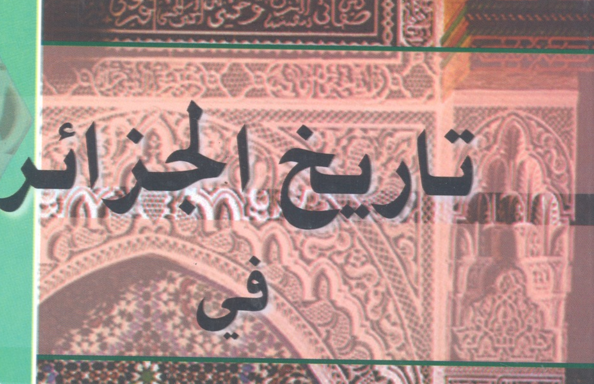


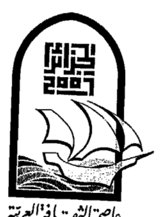
مبارك الميلي



تاريخ الجزائر في القديم والحديث

الجزء الأول




الجزائر 2007
عاصمة الثقافة العربية

مبارك بن محمّد الميلي

تاريخ الجزائر
في
القديم و الحديث

تقديم وتصحيح
محمّد الميلي

الجزء الأول



دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجـــــوال: 070 91.77.73

الميلي، مبارك بن محمّد
تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج1/ مبارك بن محمد الميلي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 454ص؛ 24سم
ردمك: 978-9947-833-12-4
الإيداع القانوني: 158-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 9-2007 دار الكتاب العربي

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتو كوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء الكتاب

إذا كان المتقدمون يهدون لملوك أعصارهم نتائج قرائحهم فذلك لأنهم في أزمنة لا ظل فيها لإرادة الأمة.

أما اليوم ونحن في عصر عمت فيه الديمقراطية كل الشعوب أو كادت وعرفت الشعوب إن إرادة الحاكم إنما تتقوى من جبنهم وجمودهم، وان الإرادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي إرادة الشعب فقد صار الكتاب يهدون كتبهم لشعبهم أو لعظيم من عظمائه هو رمز عظمة ذلك الشعب.

ونحن نهدي كتابنا هذا إلى الشعب الجزائري إلى شبابه المفكر ورجاله العاملين المخلصين.

مبارك بن محمد الميلي

إسداء شكر

لا أكون غير معترف بجميل يحتمه علي إخلاصي في هذا التأليف إذا ما نوهت بشأن من لم اعرف منهم غير النشاط النادر والعزم الفولاذي في مؤازرتي في هذا العمل الذي فيه بلاغ للشبيبة عن وطنهم.

وما جئت بدعا إذا ما ذكرت بإعجاب ما شاهدت منهم أثناء قيامهم بما نيط بعهدتهم بغبطة وسرور. على أن الشقة شاقة والمرتقى صعب.

أولئك هم الذين اذكر منهم ـ وملء فمي الفخر بهم ـ الشبان العاملين الأصدقاء: عيسى الزهار الترجمان بالأغواط، محمد التهامي الترجمان بميلة، عمر دهينة احد المعلمين بالمكاتب الفرنسية وأفذاذ نبغاء الرسامين.

هؤلاء هم الذين لهم من اليد في معاضدتي ما يشكرهم عليها الفن والعلم والتاريخ والوطن.

مبارك بن محمد الميلي

رسالة من الأستاذ عبد الحميد بن باديس
إلى المؤلف

إذا كان الكثير من الكتاب مولعين بطلب تقريظ كتبهم من إخوانهم لحمل عوام القراء على استحسانها فإنيّ في صف القليل منهم الذين يكلون إلى القارئ الحكم فيما قدموه له من غير شرط عالمية ولا انصاف. فلكل أن يقول فيما كتبناه ما شاء، والأيام هي التي ستنخل ما يقولون، وتميز جيد القول من رديئه.

وإذا كان عظماء كل أمة هم المكونين لتاريخها فالواجب أن لا نهمل نظراتهم فيما هو من نتائج حياة أمثالهم. وكتابنا هذا من نتائج حياة عظماء الأمتين العربية والبربرية فلا غرو إذا أثبتنا نظرة عظيم من عظماء جيلنا فيه مع تمسكنا بمبدإنا في التقاريظ.

كتب إلينا الأستاذ الجليل عبد الحميد بن باديس أحد شيوخنا وزعيم نهضتنا بنظرة في كتابنا. وهذا نص رسالته:

الحمد لله

«حصن الماء» مساء الثلاثاء **1347/1/15**

أخي مبارك!

سلام ورحمة، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم، وقفت على الجزء الأول من كتابك «**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**» فقلت لو سميته «**حياة الجزائر**» لكان بذلك خليقا. فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك. وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما

سيبقيها حية على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين.

أخي مبارك!

إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف من أحيا أمة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها، وحياتهما عند أبنائها حياة مستقبلها. فليس ـ والله ـ كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال. وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيرا. وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وأنا ـ واحد من هذا الجيل ـ بلسان من يشعرون شعوري، أشكرك لأقوم بما علينا من واجب، لا لأقابل ما لك من حق.

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وانصاف. والسلام عليك من أخيك.

عبد الحميد بن باديس

الجزء الأول بين يدي الأمير
شكيب أرسلان

اتصل أمير البيان ورأس الشرق المفكر الأمير شكيب أرسلان بالجزء الأول فكتب إلى صديقنا الشيخ الطيب العقبي رسالة جاء فيها قوله عن ذلك الجزء:

«وأما تاريخ الجزائر فو الله ما كنت أظن في الجزائر من يفري هذا الفري. ولقد أعجبت به كثيرا كما أني معجب بكتابة ابن باديس فالميلي وابن باديس والعقبي والزاهري حملة عرش الأدب الجزائري الأربعة».

شكر واعتذار

لا شيء أشق على الكاتب العربي من كتابة التاريخ على النهج العصري. ولا تاريخ اغمض وأقل مادة لدى القارئ العربي من تاريخ الجزائر. ولا كتب اكثر تحريفا من الكتب العربية المؤلفة فيه. وعلى نسبة أهمية تاريخ ابن خلدون كان حظه من التحريف حتى ذهبت ثقة القارئ بما فيه من اعلام الناس والامكنة.

وقد قاسيت في تصحيح الأعلام وجمع المواد وايضاح الاغراض التاريخية وتقريب الأسلوب من النهج العصري ما لا يعلمه الا من عمل عملي وكان مثلي جاهلا بغير العربية بعيدا عن العواصم العلمية منهوك الوقت بالأشغال. ولست ـ علم الله ـ أمن بهاتيك المقاساة، وانما اريد الاعتذار للقراء والادباء عن تأخر نشر هذا الجزء الثاني وعما عسى أن يكون به من نقص علمي أو فني.

وكلما أجملت لهم اعتذاري أجمل شكري لمن أمدني منهم باعارة كتاب أو دلني عليه. واخص منهم بالذكر الشابين الأدبيين المخلصين صديقي احمد توفيق المدني وعمرو دهينة حامل شهادتي التعليم بالمكاتب الفرنسية والترجمة بالمحاكم الشرعية. فقد عرّبا لي فصولا من الفرنسية وبذلا في اعانتي كل ما في استطاعتهما الادبية. جازاهما الله احسن الجزاء وذكرهما الجيل المستقبل بوافر الثناء.

الاغواط في 1359/2/1هـ مبارك بن محمد الميلي

مقدمات:

أما بعد حمدا الله الملك القدير. والصلاة والسلام على رسوله البشير النذير. وعلى آله وأصحابه الذي ركبوا لنشر العدل كل هول خطير...

فان التاريخ مرآة الغابر ومرقاة الحاضر. فهو دليل وجود الامم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتّحادها وسلّم رقيّها.

متى درسه ابناء أمة وأحاط خبرا بأدواره شبابها عرفوا وجودهم، فلم تبتلع قوميتهم القوميات الحية النهمة المجاورة لهم، وأدركوا ما لماضيهم من المجد وما لأسلافهم من الشرف، فلم يقبلوا تنقيص المنقصين وعبث المدلسين وقدح المغرضين، وشعروا بعز السيادة ولذة الحياة، فانفوا من سيطرة المستبدين و لم يخضعوا لذل المستعبدين، ورأوا سعادة الأوائل بالاتحاد والتناصر وإن ما أصابهم وأرداهم إنما هو التفرق والتدابر وكيف وجدت الروابط بين المتخالفين وسبب انحلالها بين المتحالفين، فسلكوا بأمتهم إلى الاتحاد مناهجه وتحاموا مهاوي الشقاق ونكبات الخلاف، ووضعوا بين أيديهم برامج الأمم التي ارتقت بها وحلقت في سماء العز ثم نزلت على الأمم التي تركتها الحوادث جيفا صرعى فانتهشتها وتقوت من

ضعفها واقتدرت من عجزها، فاتخذوا من تلك البرامج سلما لرقي أمتهم ونالوا حظهم من الجو والهواء. كما لم ينقصوا نصيبهم من اليبس والماء.

المتعلمون الجزائريون والتاريخ:

إن المتعلمين اليوم من أبناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم فجهلوا ما فيه من عز وذل ونعيم وبؤس ومدنية وهمجية وسيادة وعبودية.

ترى المتعلم بالمدارس يعرف من تاريخ بعض الأمم الأجنبية وما يجدر به أن يعلم مثله من تاريخ شعبه ولا يحس منه تقديمه عليه فكيف بالاقتصار عليه والاكتفاء به؟

إن النسبة بين التاريخين: الشعبي والأجنبي مثل النسبة بين الضروري والكمالي إنما يحصل له هذا المثل إذا جاء بعد الضروري فان سبقه لم يكن كماليا وكان ضرره أكثر من نفعه. ومن مضار تقديم تاريخ الأمة الأجنبية قصر الكمال والسيادة عليها وحصر المعارف والحضارة فيها وذلك تزهيد للمتعلم في وطنه وتنفير له من بني جنسه.

ولقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أن صار ينظر إلى جنسه نظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ فإذا دار الحديث على الشعوب وقسطها من الحياة وأفضى إلى قومه رأيته ـ من جهله بتاريخهم ـ يستدل على حياة الماضين بحياة الموجودين ويستنتج من ذلك ان لا حضارة للأوائل إنما هم قوم عاشوا في الهمجية وسقوط الأخلاق بعيدين عن نظم الحياة وفقه طبيعة الكون وسنن العمران، ويرى أنه اعتمد في هذا الحكم القاسي الجائر

على اعدل شاهد: قياس الغائب على الشاهد وإنه لقياس فاسد وماذا وماذا عسى ان تبلغ قيمة قياس دعامته الجهل؟

ثم قد يترقّى في حكمه ويلحق المستقبل بالماضي فيقضي على مستقبل أمته بالشقاوة والتعاسة ويرى أن داءها عياء لا يوجد له دواء وربما طلب لها من الأدوية ما هو عين الداء.

وهذا الفريق من المتعلمين نودّ له لو يعتني بمطالعة الكتب التي ألّفت في تاريخ وطنه فإنها كثيرة متنوعة المباحث ومختلفة الألسنة فمتى طالع كلام الكتاب واستعان بذكائه في تمييز الخطإ من الصواب اهتدى إلى حقيقة بني جنسه وذهب ذلك بقنوطه ويأسه. فلم يسد على من حوله طرق العمل بل يفتح لهم أبوابها واسعة من الأمل.

وهناك متعلمون تعلموا بالمساجد مبادئ بعض العلوم اللسانية والدينية وأهملوا من برامج قراءتهم التّاريخ فإذا فارقوا المساجد وقدر لبعضهم أن يحيا حياة علمية الفيته يقتصر على مراجعة ما درسه من الكتب وإن دعت الهمة أحدهم إلى التوسع ففي الفنون التي أخذ مبادئها بالمسجد.

فرطوا بذلك في قراءة علم يعود على أخلاقهم بالتهذيب وعلى عقولهم بالتدريب على التفكير ذلك علم التاريخ وتلك فوائده.

وإن منهم لقوم يخرّبون عقولهم بأيديهم ويطفئون نور الله ـ العقل ـ بأفواههم ذلك باشتغالهم بقراءة كتب المناقب والخوارق وانها لكتب سيئة الأثر في النفوس تطبع في المرء عقيدة الاتكال على ما وراء الطبيعة وعدم

السعي في هذه الدنيا حسب قوانينها التي أحكم وضعها اله حكيم وأرشدنا إلى أنها قوانين ثابتة وان خرقت أحيانا فذلك الخرق حادث جزئي لا يتخذ قاعدة عامة في الحياة.

فهذا الصنف من الكتب يحبس الألباب ويصدها عن ربط المسبّبات بالأسباب فلو إشتغل هؤلاء القوم ـ بدلى هذه الكتب ـ بكتب تاريخ البشر وحياة الأمم لأناروا عقولهم وأطلقوها من ذلك السجن تكتشف من خبايا الأيام وخفايا الطبيعة ما يعود على الإنسانية عامة وبني جنسهم خاصة بالفوائد الجليلة وذلك أهم ما يطلبه الإنسان من تكميل عقله بالعرفان.

أنا والتاريخ:

أنا من المتعلمين بالمساجد انشغلت أيام الدراسة بما به يشتغلون، فقضيت دور التعلم بعيدا عن هذا العلم ـ شأن رفاقي ـ لا عناية لي بكتبه ولا بحث لي عن دواوينه، ذلك بأني لم أعاشر مدة طلبي للعلم من يلفت نظري لهذا العلم النفيس ولا من يذكر لي من فصوله ويشرح لي من أسراره ما يشوقني إلى محاسنه ويبعثني إلى ورود عذب مناهله.

أول ما قرأت من كتب هذا العلم كتب التراجم، تراجم الفقهاء والنحاة لاشتغالي بهذين الفنّين فتشوقت نفسي إلى معرفة رجالهما.

وبعد أن قضيت عصر التلمذة رأيتني في حاجة إلى زيادة الاطلاع في بعض العلوم، ومنها ما يغنيني فيه القدر الذي حصلته منه.

حبب إليّ إذ ذاك من الكتب كتب الأقدمين أهل القرون الأولى من الإسلام وكتب المتأخرين أهل العصر الحاضر، ونفرت نفسي نفارا لم املك زمامها معه من مؤلّفاته في القرون الوسطى غالبها.

طالعت فيما طالعت بعض رسائل أُلّفت حديثا في التاريخ فتعرفت بها إلى هذا العلم ورغبت في الاستزادة منه فأخذت أبحث عن مواده ولكن لم اتصل ـ لعوارض ـ الا على القليل منها.

لم تحدثني نفسي ولا يوما واحدا بالكتابة في هذا العلم الذي يعجز عن تأديته على الطراز الحاضر من هو أوسع منّي علما وأغزر مادة وأقوى إدراكا فإن المؤرخين اليوم صاروا يهتمون بأبواب من التاريخ لا عناية للمؤلفات العربية بها وصار القارئ اليوم ـ إن كان متقمّصا الروح العصرية ـ يعد التاريخ الخالي من الأبحاث الاقتصادية وذكر حال الآداب ومبلغ الحضارة تاريخ قصص وأساطير لا شأن للعاقل بها.

كنت أنفق بعض أوقاتي في مطالعة التاريخ العام حتى دعاني بعض الأصدقاء إلى وضع كتاب في تاريخ الجزائر ـ حمله على ذلك حسن الظن ـ فحرك عزيمتي ووجه اهتمامي للبحث في تاريخ الوطن العزيز وتقديم ما يرتبط به على ما يتعلق بغيره ولم يحدث لي رأي أو يخطر لي خاطر لإجابة مطلبه وتلبية دعائه وزاد في إحجامي عن موافقة هذا الصديق أني أعلم في الوطن رجالا هم أعرف مني بهذا الشأن وأولى مني بهذا العمل.

وبعد ان قضيت حصة من الزمن في مطالعة تاريخ الجزائر وحده تكرر عليَّ الطلب من أصدقاء آخرين فتريثت في الإجابة عسى ان يظهر كتّاب من ابناء الجزائر بالقلم العربي يسدّ حاجتنا ويفي بغرضنا فألحّ عليّ بعضهم إلحاحاً لم يدع لي ما أعلل به تمهّلي في الإجابة.

هنالك رأيت أن أبتدئ العمل واضع حجر الأساس معترفا بأني لست من فرسان هذا الميدان فالذهن كليل والمادة العربية قليلة جدا والفرنسية أجهلها وقد فات وقت تلافيها فلم يحملني على الخوض في هذا الموضوع الهام غير الشعور بواجب خدمة الوطن وقراء العربية طالبا من أهل المقدرة والدراية أن لا يجهلوا كبر ما عليهم من المسؤولية أمام الوطن والعربية وأن لا يجعلوا ــ بتفريطهم في نشر هذا الفن ــ حظ الجزائر منقوصا مغبونا فمن آنس من نفسه الكفاءة ووجد من الوقت سعة فلا يبخل على بني جلدته وليبذل في سعادتهم ما في استطاعته.

العامة والتاريخ:

كانَ العرب في جاهليتهم ـ على أميتهم ـ يهتمون بالتّاريخ يتناقلون أخبار أوائلهم وحروبهم وأنسابهم كابراً عن كابرٍ ويلقّنون الولدان ما تجود به قرائح شعرائهم في أيامهم ووقائعهم.

وقد حفظ لنا الشعراء أخبارَ تلك الحروب التي كانت تندلع نيرانها بين القبائل. يصف لنا الشّاعرُ تلك المعاركَ ويفخَر بقومه الغالبين أو يعتذر

عنهم إن كانوا مغلوبين، وأكثروا في هذا الموضوع أكثر من جميع فنونهم الشعرية من غزل ومديح وهجو وغير ذلك.

وقد شاهدنا العوام يقبلون على سماع كتب المغازي والقصص يلتفون حول قارئها ويتأثّرون بأخبارها فطوراً يتحمسون وحينا يخشعون ومرة ينبسطون وأخرى ينقبضون ويفهمون كل ما يسمعون ويعون كل ما يفهمون سواء في ذلك اللبيب والغبي والشيخ والصبي.

وهذه الأمهات ـ على جهلهنَّ ـ لا يخلو سمرهنّ مع الصّبيان من حكايات واقعية وروايات خيالية، وترى الصبيَّ خاشعاً أمام تلك القصص التي يفهمها ساذجة وإن كان بعضها لا يخلو من مغزًى لطيف وغرض صحيح.

وقد لاحظت أيام مباشرتي للتعليم بالمكتب العربي بقسنطينة إن الصبيان أحرص على التاريخ منهم على غيره فإنهم كانوا يلازمون الهدوء في درس التاريخ ويعتنون بما يكتبون منه أكثر من بقية الدروس.

كل ذلك يرشد من كان له فكر وحذق إلى أن علم التاريخ أعلق بالنفوس من كل علق ومجلسه أخف على الأرواح من مجلس السماع والراح.

التاريخ والنقل:

أكثر المؤرخين من المتقدمين يكتبون كل ما يسمعون وينقلون كل ما يجدون من غير تصحيح للرواية ولا تمحيص بالفكر والدراية، يعنون بالحكايات الغريبة والروايات المدهشة كأنهم يرون التاريخ مجموع عجائب تحير الأفكار لا ديوان حقائق تهدي المتأخر سبل الاعتبار.

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أمثلة من خرافاتهم وإضرابا من أغلاطهم وأنحى عليها بالتزييف معتمدا على العقل وطبيعة العمران.

ويمنعني من إثبات شيء منها ههنا شهرة الكتاب وكثرة تداوله بين الناس.

وترى المؤرخين اليوم من كتاب الفرنج ستنقصون المؤرخين الإسلاميين بالتساهل في النقل، وينفرون القارئ من كتبهم لكون أصحابها حشوها بما يخالف الواقع وأغرقوا في المبالغة عند وصفهم لبعض الوقائع، وأنهم وقعت لهم أوهام تنبو عنها عقول العوام، وأنهم اقتصروا على سرد الحوادث من غير تعليل ولا استنتاج وبذلك أهملوا روح التاريخ وسره.

ولست أرى رأيهم في ذلك كله بل اسلّم لهم في بعض ما وصفوا به مؤرخينا من غير تعميم فإن ابن خلدون مؤرخ من مؤرخينا وهو الذي علّم هؤلاء نقد كتب التاريخ بما أبداه في مقدمته، ومن غير أن امنع من تناولها فإنها لا تخلو من علم يجهله المتأخّر. والمفكر من ينظر الكتاب فيميز بين خبيثه وطيبه ولا يمنعه رديئه من تناول جيده. وهذا ابن خلدون أول

من نقد مؤرخي الإسلام لا شك أنّه استفاد فوائد جمة من نفس الكتب التي انتقدها أو انتقد أصحابها.

وإما إهمالهم لتعليل الحوادث والاستنتاج منها فليس مما يقدح في منزلتهم أو ينقص من مزيتهم. بل إن القارئ يجد في كتبهم المادة بصورتها وتبقى له الحرية في التعليل والاستنتاج فإذا فكر وحكم في قضية تاريخية لم يبعد عن الحقيقة وقد رأينا في بعض الجرائد الفرنسية إنكارا عنيفا على الجرائد الإنكليزية لنقلها أخبار بعض الجهات الشرقية وتصرفها فيها بالشرح والتعليق حتى تنطمس الحقيقة على القراء ويضلون السبيل في فهم تلك الأخبار. وقالت تلك الصحيفة: أننا لا نريد إلا الحوادث التي ينقلها الصحفي مجردة حتى يمكننا ان نعمل رأينا فيها.

تأمل أيها المنصف تجد ما عابه الغربيون على المؤرخين الإسلاميين قد صاروا يرغبون فيه ويدعون إليه في الحوادث الحاضرة، وإن الطريقة التي يفتخرون بها على مؤرخينا صاروا يتذمرون منها ويعلنون بمصادمتها للواقع ومضادتها للحقيقة. وهم ـ وان أبدوا ذلك في خصوص الحوادث الحالية ـ لا يستطيعون ان يفرقوا بينها وبين الحوادث الماضية.

إن ذاك القديم كان جديدا وسيغدو هذا الجديد قديما

وعندي أن أحسن طريق يسلكها المؤرخ ان يضع بين يدي القارئ الحادثة التاريخية كما هي ثم يرشده إلى كيفية الاستنتاج منها وبذلك يكون المؤرخ نزيها في نقله والقارئ في مأمن من عثرة ذلك المؤرخ لأنه إذا غلط في نظره استطاع القارئ ان يدرك غلطه «**فرب حامل فقه إلى**

من هو افقه منه» وكثير من الناس لا يحسن الابتكار ولكن لا يفوته التمييز بين السليم والسقيم من الأفكار.

التاريخ والعقل:

العقل عقلان: فطري وكسبي. الفطري هو نور الهي يهبه الخالق للبشر على تفاوت سبق به القدر، لا دخل للإنسان في ضآلة شعاعه أو سطوع ضيائه، والكسبي يزيد وينقص ويقوى ويضعف على قدر ما يعد له صاحبه من المواد.

هذه المواد التي يكون العقل الكسبي على نسبتها قسمان: مواد حاضرة وأخرى غابرة. الحاضرة هي تجارب الإنسان اليومية التي يحصل عليها بالعشرة والضرب في الأرض والمعاملة. والغابرة هي ما يطالعه من أحوال الأمم الماضية ونظم حياتها ووسائل استقلالها وعلل انحطاطها وما تركت لنا من حضارة واختراع وعلوم وفنون.

وقد حثّ القرآن على الاحتفاظ بالعقل والسعي في توسعته فدعا المؤمنين به إلى السير في الأرض بقوله: «**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها**» وإلى البحث عن أحوا ل الماضين ومصير المتقدمين بقوله: «**ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم**» وقص عليهم قصصا كثيرة ليتدبروها وليتعظوا بها ونبههم إلى هذه الغاية بقوله: «**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**».

ىست أريد ان استوعب الشواهد القرآنية على تكوين العقل الكسبي وترقيته وإنما قصدت تنبيه القارئ إلى ان للتاريخ مدخلا كبيرا في ذلك. وكيف لا ـ و به تعرف سنة الكون وطبيعة العمران ومنه تتلقى سيرة الأنبياء والأولياء وأعمال الأبطال وتدابير السياسيين.

وإنما يكون للتاريخ هذا الأثر في ترقية عقول البشر ما دام على نقل الإثبات معتمدا وعن تدليس المغرضين مبتعدا خاليا من خرافات أكثر المتقدمين وعمليات المتعصبين من المتأخرين.

قد أريناك ـ آنفا ـ ما للمتقدمين وما عليهم في نقلهم، والآن نريك ما للمتأخرين وما عليهم في عقلهم:

المؤرخون اليوم توسعوا في مباحثهم ونوعوها إلى أنواع خلت منها إسفار القدماء واستعانوا على أبحاثهم بالبناءات الأثرية والكتابات الحجرية ولكن أكثرهم يحجب عن القارئ المادة التاريخية ويناوله أبحاثه واستنتاجه حتى يحمله على رأيه في ذلك الموضوع وهو تغرير بالقارئ وتضليل للفكر. فما الحامل لهم على سلوك مسلك يفضي إلى هذه النتيجة؟ يمكنني أن احصر الأسباب الداعية إلى ذلك ـ ولا أدّعي الإحاطة ـ في ثلاثة أسباب:

1- **التعصب الجنسي والوطني**: ينظر المؤرخ إلى جنسه بعين الإعجاب وإلى وطنه بعين الرضى فيجهد فكره في تأويل المساوئ واختلاق المحاسن ويخون التاريخ بكتمان ما لم يستطع تأويله من النقائص. ولا يقنع بهذه الخدمة لجنسه ووطنه حتى يعدو على غير أمته وسوى وطنه ينقصهما

وينسب لهما الهمجية ورداءة الطبع ويسطو على محاسنها فيكتمها أو يشوهها بأفكاره. كل ذلك ليظهر فضل أمته ووطنه على من سواهما ـ عموما أو خصوصا ـ من الأمم والأوطان.

2- **حب التفوق واستعباد الغير:** إذا حكم القضاء على أمة بانتزاع أمرها من يدها واستيلاء الأجنبي عليها فإن ذلك الأجنبي يحمل تلك الأمة على الاعتراف بسيادته عليها وانخفاضها عن مرتبته كي لا تنفر من خدمته ولا تستثقل وطأته وترضى عن اضطهاده لها وتخضع لسلطانه.

ولا أعون على بلوغ هذه الغاية واجتباء هذه الثمرة، من التلاعب بالتاريخ وقلب حقائقه وإعطاء كل الفضائل والمزايا للحاكم وكل النقائص والدنايا للمحكوم عليه المغلوب على أمره.

3- **الجهل بالمصادر الصحيحة:** قد يكون المؤرخ العصري قليل التعصب بعيدا عن المنازع السياسية والحيل الاستعمارية ولكنه لا دراية له بالكتب التاريخية التي توافق مشربه ويستعين بها على تحقيق مذهبه فيغتر بمن كتب قبله من المتعصبين والانتفاعيين وتخفى عليه مقاصدهم القومية والشخصية فيضل السبيل ويخطئ الحقيقة.

ولقد أعان هؤلاء على خطّتهم المنحرفة عظمة أممهم في الحال فاشتقوا من تلك العظمة كذبهم لماضيها، وسهل عليهم العبث بتاريخ الأمم الضعيفة أو المغلوب على أمرها إندكاك صرح مجدها الغابر ودروس معالمه وانطماس آثاره فلم يبق لها من شرف يذكر ولا من عظمة ومفخر حتى إذا انبرى غيور منصف لكشف الحجب عن عظمة قومه ورفع الستار

عن محاسن إسلافه كان الريب اسبق إلى كلامه من اليقين والتكذيب أقرب من التصديق والعناد أيسر من التسليم. وهكذا تكون عظمة الأمة الحالية معينة على اختلاق المحاسن لها في القرون الخالية.

وضعف الشعوب في الحال. يثير حول صدق شرفها الماضي الريب والجدال ومن القواعد المقررة لدى الأمم الغربية ان الغاية تبرر الوسيلة فهم لا يرون من العار ان يتوسلوا لخدمة شعوبهم وحكوماتهم بتضليل الأفكار ومصادرة الواقع، ولا يبالون بخدمة الحقيقة التي يجب ان تكون الضالة المنشودة للمؤرخ والباعث الوحيد للباحث.

ولست اقصد فيما أبديت من الانتقاد ان جميع التواريخ العصرية لا تخلو من هذا العيب إذ من المحال إجماع الأمم على الضلال ولكن الجهل لا ينجو من ذلك السل.

وخلاصة الكلام في هذا الموضوع الهام ان عمدة التاريخ النقل والأثر وجماله وحليته الفكر والنظر بهذا تنجلي الحقائق وتتضح للباحث الطرائق.

مبادئ التاريخ:

توقيت الأخبار وتقدير أمدها بحوادث يعلم المخاطب زمن حدوثها أمر قديم في البشر عام في جميع الأناسي.

تجلس إلى البدوي والحضري العالم والجاهل، يحدثك عن ميلاده أو سفره إلى بلد أو ولايته موظفا أو الولاية عليه إلى غير ذلك من ضروب الأخبار فتراه يؤرخ لك أخباره ويؤقتها بعام الحادثة الفلانية.

وهذه الحوادث التي هي مصادر التاريخ ومبادئه منها ما هو خاص بقبيلة أو جيل لا يؤرخ به سواهم ومنها ما هو عام يؤرخ به قبائل كثيرة في أجيال عديدة وذلك تابع لقيمة الحادثة في الرواج والانتشار والاشتهار.

ومن الحوادث المشهورة التي اتخذها المؤرخون مبادئ لتوقيت أخبارهم مبدأ الخليقة والطوفان وبناء رومة وملك الإسكندر وميلاد عيسى (**عليه السلام**) وهجرة محمد (**صلى الله عليه وسلم**) إلى المدينة. وقد اعتنى أبو الفداء صاحب حماة في تاريخه بالمقابلة بين التواريخ ورسم لها جدولا ولكن أكثرها غير مضبوط ضبطا يوثق به بل منها ما تحقق عدم ضبطه واستوقن بالغلط في تقدير مدته وأضبطُ التواريخ وأشهرها تاريخ الميلاد وتاريخ الهجرة.

إسناد التاريخ إلى حادثة من الحوادث تذكير بتلك الحادثة ليتعظ بها المتعظون ويعتبر بها المعتبرون فتترك أثرا في النفس. ولنبين ذلك في التاريخين الميلادي والهجري.

إسناد التاريخ إلى الميلاد تذكير بما فيه من خرق العادة وولادة إنسان من غير أب ويتبع ذلك ما ظهر على يد هذا المولود ـ **عيسى عليه السلام** ـ من الخوارق كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأثر الذي يبقى في النفس من هذا التذكير هو كمال الإيمان بالله وأنه عظيم السلطان كامل القدرة لا يعجزه خرق نظام هو الذي اخترعه وأوجده. وهذا إنما يحسن في مقام الوعظ والإرشاد وترقيق القلوب ولا يحسن في كل مقام لأن تكرير هذا الأمر على الآذان يحدث أثرا سيئا في الأذهان فإنه يقف

بالنفس موقف الحيرة والدّهش ويحبس العقل عن التفكير والتوليد ما دام متأثرا بهذا الحادث العديم النظير.

وإسناد التاريخ إلى الهجرة تذكير بما فيها من الأحوال وما تقدمها من الأهوال وما يتعبها من الأعمال، تذكر بالأسباب التي حملت هذا الرجل العظيم على مفارقة مستوطن آبائه وأسلافه وما لقيه قبل الهجرة من ضروب الأذى وما قاساه من صنوف المحن والشدائد وكيف تحمل مشاق هذه الهجرة ومتاعب هذه الرحلة وما قام به بعدها من أعمال الجهاد وكيف صبر حتى ظفر وأدى أمانة ربه وقلب وجه التاريخ فقضى على المدنيات السابقة ونشر مدينة أعلى وحضارة مثلى.

والأثر الذي يتركه في النفس هذا التذكير إنارة العقل وتوسعة دائرته وتثبيت النفس فلا تزحزحها النوائب ولا تقف بها في طريقها الشدائد.

يقوم عظيم من العظماء في أمة يرشدها إلى طرق سعادتها ويستحثها على العمل الصالح لحياتها فيجد أمامه عقبات وعراقيل ربما صدته عما سمت إليه نفسه ولكنه إذا ذكر الهجرة ذكر ما لقيه خير الخلق (**صلى الله عليه وسلم**) في سبيل دعوته من قومه وعشيرته ويرى ثباته وتقدمه في جهاده إلى الأمام ثم يرى نتيجة صبره وكيف كانت العاقبة له على خصومه أعداء أنفسهم فيتسلى بذلك ويتأسى بهذا الرجل العظيم ويثبت للخطوب ولا يبالي بشغب الخصوم ويقارع الأهوال وينازل الأيام والليالي حتى تلين قناة خصمه ويخضع الدهر لحكمه ويذوق لذة الظفر بالمنى وعند الصباح يحمد القوم السرى.

ترتيب الكتاب:

سيكون مؤلفنا هذا ـ إن يسر الله تمامه ـ ذا أربعة كتب: الأول في تاريخ الجزائر قبل الإستلاء العربي، الثاني في العصر العربي، الثالث في العصر البربري، الرابع في مصير أمر الجزائر إلى الأجانب وأحوالها في هذا الدور.

وكل كتاب من هذه الكتب سيقع في أبواب وفصول تشرح حالة الجزائر في ذلك الدور، وتزيد المعتبر استبصارا، وتقف باليائس على منابع الرجاء، وتبعث في المتكاسل روح النشاط، وتهيب بالمتواكل إلى العمل، وتحدث ـ إن شاء الله ـ في الأنانيين حب الصالح العام حتى يؤمنوا ـ إيمانهم بوجودهم ـ ان السعادة الحقة هي السعادة العامة فيحصرون مصالحهم في مصلحة أبناء وطنهم ويستعذبون العذاب في سبيل إسعاد شعبهم.

هذه بعض أماني يهجس بها خاطري لا أحب أن اكتمها على القارئ فإن حقق الله أمانينا فذلك ما إليه قصدنا وإياه أردنا، وان كان مؤلفنا أقل من ان تنتج عنه تلك النتائج فما الونا جهدا ولا ادخرنا وسعا، لا أعرف التقصير ولا أنكر القصور، وان كان شعبنا هو البعيد عن متناول تلك النتائج الجليلة وإدراك تلك الأغراض النبيلة فالمستقبل هو الكفيل بكشف هذا السر وما على العامل إلا ان ينظر إلى شرف المقصد ونبل الغاية فيجهد نفسه إذ ذاك ويغالب العوارض التي منها سخرية ضعاف الهمة ولغو الجاهلين ولغط الثرثارين. وعلى العامل ان لا يكون مستقربا

لنتائج عمله قلقا من طول انتظارها أو متشككا في إصابة أسبابها فاني أرى الوسط ـ كالهواء ـ إذا عمر بشيء لا بد ان يحمله إلى العموم ويحدث أثره فيهم قريبا أو بعيدا.

ومن يصبر يجد طول التمني   على الأيام قد صار اقتراحا

الكتاب الأوّل

في تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي:

يتضمن هذا الكتاب الكلام على قدماء الجزائر أهل العصر الحجري والكلام عن البربر الذين عمروا هذا الوطن منذ دهور لا يعلم مبتدأها إلا العليم الخبير واستقروا به حتى عرف بهم ونسب إليهم، والكلام على الدول التي سادت البربر فيه: وهي: دولة الفينيقيين ودولة الرومان ودولة الفنداال ودولة الروم ويتقدم ذلك كله القول في جغرافية هذا الوطن الطبيعية.

فانحصر هذا الكتاب في سبعة أبواب:

الباب الأول في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري.

الباب الثاني في ذكر البربر وأصولهم وقبائلهم وما يرتبط بحياتهم.

الباب الثالث في ذكر الفينيقيين وأخبارهم.

الباب الرابع في ذكر البربر وملوكهم على عهد قرطاجنة وروما الجمهورية.

الباب الخامس في ذكر الرومان وأحوالهم مع البربر

الباب السادس في ذكر الفندال ومآل أمرهم.

الباب السابع في ذكر الروم ومصير دولتهم.

الباب الأول

جغرافية الجزائر الطبيعية

«**الجزائر**» اسم مدينة بنيت مكان «**جزائر بني مزغنة**»، وكانت قد عرفت في التاريخ باسم «اقسيوم»، عندما كانت، على عهد الرومان بلدة صغيرة. وعندما جدد بناءها بلقين بن زيري لم يكن يتوقع أنها ستصبح عاصمة لدول مترامية الأطراف، ولم يخطر بباله أن تعطي اسمها لكامل البلاد.

تحتل الجزائر الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي أو المغرب العربي، وهي منطقة كان قدماء اليونان قد أطلقوا عليها اسم ليبيا، ثم تطورت التسمية في القديم، على يد الجغرافيين اليونانيين واللاتينيين كما يلي:

1- مصيصيليا (Massessylie) وهي عبارة عن سهول سطيف وبرج بوعريريج وتل عمالتي الجزائر ووهران إلى وادي ملوية غربا.

2- مصيليا (Massylie) وهي باقي عمالة قسنطينة وغرب عمالة تونس إلى طبرقة ثم صارت مصيصيليا تعرف بموريطانيا الشرقية ومصيليا بنوميديا.

3- جيتولية (Getulie) وهي عبارة عن صحراء موريطانيا ونوميديا. ولما جاء العرب أطلقوا اسم المغرب على ما بين برقة شرقا والمحيط الاطلانتيكي غربا، والبحر الرومي شمالا والصحراء الكبرى جنوبا. وإنما سموه المغرب لوقوعه غرب وطنهم جزيرة العرب. ثم قسم العرب المغرب إلى أدنى وأوسط وأقصى، وذلك بالنسبة لشرقهم.

1- المغرب الأدنى هو ما بين برقة شرقا وبجاية غربا.

2- المغرب الأوسط هو ما بين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا.

3- المغرب الأقصى هو ما بين وادي ملوية شرقا والبحر المحيط غربا.

وأطلقوا اسم قسطيلية على ما يعرف اليوم باسم الجريد وهو جزء من جيتولية حسب اصطلاح من قبلهم. فلعل لفظ قسطيلية مأخوذ من جيتولية بضرب من التغيير وقد كان الرومان يسمون عمالة تونس افريقية **(Afrique)** ولما جاء العرب استعملوا هذا الاسم بإزاء معان ثلاث:

قال صاحب المؤنس: تطلق افريقية على القيروان خاصة، وعلى مابين وادي الطين وبلدة باجة، وعلى المغرب كله.

ولما قسم المتأخرون الكرة الأرضية إلى قارات خمس أطلقوا اسم افريقية على القارة الواقعة ما بين المحيط الاطلانتيكي غربا، والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا، والبحر الأبيض شمالا، وملتقى المحيطين جنوبا. وإذا ذاك أطلقوا على المغرب اسم افريقية الشمالية.

إن المغرب بجميع أقسامه ــ أو افريقية الشمالية ــ منفصل عن بقية افريقية بصحار يتعذر سلوك بعضها ويتعسر سلوك بعضها الآخر، لذلك ضعفت الروابط بينه وبين أقسامه بقية القارة حتى كاد لا يعد منها، وهو يكوّن وحدة جغرافية وجنسية ودينية وتاريخية: فإن هواءه واحد وطبيعة أرضه واحدة، وسكانه من قديم الجنس البربري، وديانته ـ قديما ـ الوثنية ثم جاءت المسيحية فكادت تعم عليه ثم جاء الإسلام.

فلم يدع قلبا إلا فتحه واستقر به الاستقرار النهائي، والأمم التي فتحته قبل الإسلام وبعده كان فتحها متحدا وان اختلفت جهته، فالرومان ـ مثلا ـ لكونهم بحريين جاؤوه من الجهة الشمالية، والعرب لكونهم أهل صحار جاؤوه من الجهة الجنوبية.

الحدود:

قد علمت أن وطن الجزائر عبارة عن موريطانيا الشرقية ونوميديا وجيتولية فحده الشمالي البحر، وهو الحد الطبيعي للمغرب كله. وحدّه الجنوبي العرق وهو عبارة عن سلسلة جبال رملية تبتدئ من المحيط غربا وتنتهي شرقا بالنيل المنحدر من الجنوب إلى مصر، وهذا هو الحد الطبيعي لجنوب المغرب أيضا.

وحدّه الغربي وادي ملوية الذي هو حد موريطانيا الشرقية. وحدّه الشرقي طبرقة التي هي حد نوميديا.

تقرر هذا الوطن على هذه الحدود منذ العصر القرطاجني، وينقسم داخله انقساما إداريا إلى إيلات تختلف باختلاف أنظار الدول والملوك. وربما قام ببعضها أمراء مستقلون و لم تزل تلك الحدود مرعية إلى ان ملك آل عثمان من الترك هذا الوطن فنقصوا من حدوده الشرقية والغربية.

صار الحد الشرقي للجزائر ـ إذ ذاك ـ يمر شرق تبسة وسوق أهراس ومرسى القالة. والحد الغربي يمر غرب جبال ندرومه. فمساحة الجزائر تزيد على المليونين من الكيلومترات المربعة، يحدها غربا خط طول **2،02**° غرب خط غرينتش، وشرقا خط **8،30**° شرق خط غرينتش، وتنحصر بين خطي **19**° و **37**° من خطوط العرض، شمال خط الاستواء.

فإذا ألقيت نظرة على الحدين الغربي والشرقي الفيتهما غير طبيعيين فلم تكن للوطن الجزائري وحدة جغرافية إلا في ضمن المغرب.

وإذا نظرت إلى قدم حدوده وإنها كادت تعاصر فجر التاريخ رأيت ان له شبه وحدة تاريخية وسياسية.

وقلما تجد أرضا ميزها الطبيعية بتلك الحدود مثل أرض المغرب. وقلما تجد وطنا ذا حدود عريقة في القدم مثل الوطن الجزائري.

المناخ:

مناخ الجزائر يحدده موقعها الفلكي الذي أشرنا إليه آنفا: فالبحر الأبيض المتوسط الذي يحدها شمالا يؤثر في اليابس المجاور له. وهذا اليابس

يتكون من سهولة ساحلية، تضايقها جبال الأطلس التلي التي تليها النجود ثم جبال الأطلس الصحراوي ثم الصحراء الكبرى.

ولذلك نجد أن الساحل مناخه معتدل كما تدل على ذلك فوارق الحرارة التي تقل في المنطقة الساحلية، بينما تتفاقم في الداخل. فالحرارة تزداد كلما ابتعدنا عن الساحل في اتجاه الجنوب.

وبالنسبة لتساقط الأمطار يمكن ان نقسم الشمال الجزائري إلى أربع مناطق:

1- منطقة تتلقى أكثر من **800 مم** سنويا، وهي تشمل المنطقة الساحلية الواقعة بين ميناء دلس غربا والحدود الجزائرية التونسية شرقا، وتحد هذه المنطقة جنوبا جبال الأطلس البليدي وجرجرة والبابور وهضاب نوميديا.

2- منطقة تلية أمطارها تتراوح بين **800 مم** و**400 مم** سنويا، وهي منطقة تمتد من الحدود المغربية حتى الحدود التونسية، وهي تقع بين خطين، شمالي وهو الحد الذي يفصل بين هذه المنطقة الثانية وبين المنطقة الأولى، وجنوبي وهو خط يمر بمدينة مغنية فسبدو، فبوغاري فسطيف فعين مليلة.

3- منطقة تتراوح أمطارها بين **400** و**200 مم** سنويا وهي تقع إلى الجنوب من المنطقة الثانية، تحدها جنوبا السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي وجبال أوراس، وفي المنطقة تظهر المراعي الفصلية.

4- منطقة تقل أمطارها عن 200 مم، سنويا وتقع وسط وجنوب المنطقة الثالثة، كما تشمل مساحة واسعة من الصحراء.

التضاريس:

تختلف تضاريس الجزائر بين جبال وأحواض وسهول ونجود وهضاب.

وتنقسم الجزائر إلى خمسة أقاليم تضاريسية متباينة هي من الشمال إلى الجنوب: إقليم الشواطئ، إقليم الأطلس التلي، إقليم النجود، إقليم الأطلس الصحراوي، إقليم الصحراء.

1- الشواطئ: وهي المنطقة الفاصلة بين اليابس والماء، ويبلغ الشاطئ الجزائري الممتد من غرب الغزوات حتى شرق القالة ألف ومائتي كيلومتر، وهو شاطئ صخري، لا يسمح بظهور موانئ طبيعية، تحمي البواخر من الأمواج، ولهذا نجد ميناء مدينة الجزائر قد بنيت به كاسرات أمواج تفصل بين مياه عرض البحر المتحركة والمياه الساكنة.

ويتخلل الشاطئ الجزائري خلجان عديدة مثل خليج وهران وخليج أرزيو، وخليج الجزائر، وخليج بجاية، وخليج سكيكدة، وخليج عنابة، وهي خلجان لا تتعمق كثيرا داخل اليابس، ما عدا خليج عنابة الذي يعتبر أكبر خلجان الجزائر.

ونجد إلى جانب الخلجان، الرؤوس المتعمقة داخل البحر، وأهمها هي رأس ملوية، عند الحدود الجزائرية المغربية، ورأس فالكون غرب المرسى الكبير، ورأس فرات وكربون قرب أرزيو، ورأس تنس ورأس البرج البحري، شرق العاصمة، ورأس كانالو شرق بجاية، وينحصر خليج سكيكدة بين رأسين: رأس الحديد شرقا ورأس بوقرعون غربا.

2- **الأطلس التلي:** ينقسم الأطلس التلي إلى سهول وسلاسل جبلية. وتنقسم السهول إلى سهول ساحلية منخفضة، وسهول داخلية مرتفعة. فمن أشهر السهول الساحلية:

أ- سهل وهران، وهو سهل طويل تجري به أودية كثيرة تحده جنوبا جبال تاسالا وبوقرين والونشريس وشمالا جبال الظهر وزكار. وتنتشر بسهل وهران الدايات وهي أحواض مائية عذبة، والسبخات وهي أحواض مائية مالحة، مما يدل على حداثة المنطقة إذا أنها تمثل بقايا البحار الجيولوجية القديمة.

ب- سهل متيجة، وهو امتداد طبيعي لسهل وهران لا يفصل بينهما إلا منطقة جبلية بالقرب من مليانة، ويحد سهل المتيجة هذا الأطلس البليدة جنوبا، وتحده شمالا الحافة الجبلية، المرتفعة التي تمتد على الشاطئ البحر من بوزريعة حتى شرشال.

ج- سهل عنابة، ويحده جبل ايدوغ والبحر من الشمال، وجبال نوميديا غربا، وجبال سوق أهراس جنوبا، وجبال مجردة شرقا، وتنتشر بهذا السهل البحيرات، مما يدل على حداثة تكوينه.

أما السهول الداخلية المرتفعة فأهمها:

أ- سهل تلمسان الذي يقع على ارتفاع **737 مترا**، وهو سهل خصيب.

ب- سهل بلعباس ويقع على ارتفاع **583 مترا**.

ج- سهل السرس، أو تيارت، الذي ينحصر بين جبال الونشريس شمالا وجبال فرندة والشلالة جنوبا.

د- سهل عين بسام، بين جبال تيطري جنوبا والبليدة شمالا.

هـ- سهل قسنطينة الممتد من غرب مدينة سطيف حتى جبال سوق أهراس.

الجبال:

تمتد السلاسل الجبلية التلية من جبال تلمسان غربا إلى جبال سوق أهراس شرقا، ويمكن تقسيمها إلى كتل جبلية غربية وكتل جبلية شرقية فالكتل الجبلية الغربية تبدأ بجبال تلمسان التي يبلغ ارتفاعها **1824م** ثم جبال تاسالا، **1061م**، ثم جبال الضاية **1417م**، وجبال سعيدة **1288م** وجبال فرندة **1132م** وجبال الونشريس **1985م**، والظهرة **1071م**، وجبال زكار **1579م**.

وتبدأ الكتلة الجبلية الشرقية بجبال البليدة التي ترتفع **1972**م، وجبل بوزقزة **1000**م، ثم جبال جرجرة التي يبلغ ارتفاع قمة لالا خديجة بها **2328**م. وجبال البابور **2004**، ثم هضبة القل **1090**، وجبل ايدوغ **1068**م، وهناك كتل جبلية تسير موازية للجبال السابقة، مثل جبال تيطري **1238**م، وجبال البيبان **1417** وجبال نوميديا **1469**.

3- إقليم النجود:

تشمل النجود المنطقة الممتدة من جبال التندراره غربا إلى منخفض الحضنة شرقا حيث يتسع الأطلس التلي ويمتد إلى الجنوب مع الأطلس الصحراوي.

والجهات الغربية من النجود أكثر ارتفاعا من الجهات الشرقية وأكثر اتساعا.

وإذا استثنينا بعض الارتفاعات مثل جبل سبع رؤوس الذي يبلغ **1411**م، وبعض الانكسارات، فإن سطح النجود يبدو في شكل انتفاخ واسع تتخلله روابي وأحواض مغلقة، وشطوط واسعة، وزوازغ ضيقة، أما الأحواض المغلقة فتكسوها طبقة صماء غير منفذة، تملأها مياه الأمطار في فصل الشتاء ثم تتبخر في فصل الصيف تخلف بعض الرطوبة التي تتسبب في الحياة العشبية.

والشطوط الواسعة والضيقة هي أحواض مغلقة أيضا تتجمع فيها مياه الأمطار المحملة بالتكوينات الملحية والطينية الواردة من المناطق المجاورة

لها في فصل الشتاء حيث تحتل السبخة أكبر مساحة ممكنة، في حين يشتد التبخر في الصيف فتضيق مساحة الشط وتشتد ملوحة السبخة.

وأهم هذه الشطوط هي شط الحضنة والشط الشرقي، والشط الغربي.

4- الأطلس الصحراوي:

تمتد هذه الجبال على طول **700كلم** من فغيغ غربا إلى إقليم الزاب شرقا، وهو حاجز للرمال الصحراوية، وتتخلل الأطلس الصحراوي ممرات تشعبها الأودية المنحدرة نحو الصحراء، وهي تشكل مسالك طبيعية للقوافل التجارية بين إقليم التل والصحراء.

والإنحدار العام للأطلس الصحراوي هو من الغرب إلى الشرق كما تبينه ارتفاعات الجبال التالية:

- جبال العين الصفراء، وأعلى قمة بها هي قمة جبل عيسى التي تصل إلى **2236**م.
- جبال عمور وبها قمة جبل الطويل الذي يبلغ **1937**م وبوبرقة، **1959**م.
- جبال أولاد نايل ويصل ارتفاعها إلى **1500**م.

وتمثل جبال الاوراس كتلة جبلية حاجزة بين الصحراء ونوميديا، وارتفاعها يأخذ في النقصان كلما اتجهنا شرقا، فجبال النمامشة لايزيد ارتفاعها عن **1500**م.

وتتجه جبال الأطلس الصحراوي إلى الإندماج تدريجيا مع الأطلس التلي.

5- الصحراء:

يحتل إقليم الصحراء مساحة واسعة من الأرض الجزائرية، تقارب **90%** إذ تمتد الصحراء على مساحة قدرها **1.987.600**كلم^2.

والتركيب الجغرافي للصحراء أبسط من المنطقة التلية، ويمكن تقسيم الصحراء إلى أربعة مناطق متباينة:

أولا: منخفض في الركن الشمالي الشرقي تظهر به بعض الشطوط مثل شط مليغيغ الذي يقع دون مستوى سطح البحر بحوالي **31**م، وهو أخفض مكان في الجزائر.

ثانيا: منطقة هضابية صخرية على الأطراف الشمالية وفي الوسط، كهضبة تأدمايت الواقعة إلى الشمال من عين صالح.

ثالثا: سهول تحاتية تغطيها الرمال، وهي تحتل أكبر مساحة من الصحراء.

رابعا: كتل جبلية مرتفعة في الركن الجنوبي الشرقي وهي جبال الهوقار التي تبلغ أعلى قمة جبلية بها **2918**م، وهي قمة تاهت إلى الشمال من مدينة تامنراست.

المظهر الهيدروغرافي:

نظرا إلى شدّة الإنحدار وقلة الغطاء النباتي أو انعدامه أحيانا فإن الأودية الجزائرية كانت اقرب إلى السيول منها إلى الأنهار، وتنقسم الأودية الجزائرية حسب الأماكن التي تصب فيها إلى أودية تصب في البحر الأبيض المتوسط، وأودية تصب في أحواض مغلقة بمنطقة النجود وأودية تصب في الصحراء.

أودية البحر الأبيض المتوسط:

هي الأودية الشمالية أو التلية وأهمها هي:

1)- وادي تافنة، وينحدر من جبال تلمسان، ويرفده من الجهة اليمنى وادي يسر ومن الجهة اليسرى وادي اسلي، ويصب وادي تافنة إلى الغرب من مدينة بني صاف، وطوله **170**كلم.

2)- وادي سيق والحمام، ويسمى الأول وادي مكارة عند انحداره من جبال الضاية، ويتصل بواد الحمام في منطقة المقطع، ووادي الحمام أو الهبرة ينطلق من بوسي على ارتفاع **1200**م، بجبل سعيدة، ويبلغ طول كل من وادي الحمام وسيق **240**كلم.

3)- وادي الشلف، وهو أطول واد بالجزائر، إذ يبلغ **700**كلم، يأخذ منابعه بالقرب من أفلو، ويسمى بوادي الطويل عند مروره بإقليم النجود. وترفده عدة أودية ثانوية من الجنوب والشمال، ونظرا لوفرة مياهه فقد أقيمت عليه عدة سدود، وأهمها هو سد الغريب.

4)– وادي الشفة، الذي يبلغ طوله **203**كلم، وينحدر من جبال الأطلس المتيجي ليصب إلى القرب من مدينة سيدي فرج، ويرفده من الجهة اليسرى وادي دجر الذي ينحدر من جبال زكار، ويلتقي به بالقرب من مدينة وادي العلائق في سهل المتيجة، وهناك يتحول اسمه إلى واد مازفران.

5)– وادي يسر وينبع من جبال تيطري على ارتفاع **1200**م، بالقرب من البرواقية، ويصب قرب مدينة دلس، وطوله **230**كلم.

6)– وادي الصومام ويسمى في جهاته العليا بوادي الساحل، ويرفده من الجهة اليمنى وادي بوسلام الذي يلتقي به قرب أقبو، وينبع وادي الساحل من جبال البيبان ويصب في خليج بجاية.

7)– الوادي الكبير ـ ويسمى أيضا بوادي الرمل ـ (**وكان قديما يسمى وادي أميزاغة**) يبلغ طوله **250**كلم، ينبع في جبال فرجيوه ويصب إلى الشرق من مدينة جيجل.

8)– وادي السيوس، ويسمى مجراه الأعلى بوادي الشرق، وأهم روافده هو وادي الزناتي الذي ينحدر بالقرب من عين عبيد، ويبلغ طوله **232**كلم.

9)– وادي الصفصاف وطوله **100**كم، ويصب في خليج سكيكدة.

10)– وادي مجردة وينحدر من جبال مجردة بالجزائر ثم يمر في الأراضي التونسية.

أودية النجود:

وهي أودية قليلة المياه، قصيرة، وتسير في اتجاهات مختلفة، بها نسبة مرتفعة من الأملاح. ومنها وادي بوسعادة وحمام ومسيلة أو القصب، وبومدو وبريكة، وهذه كلها تصب في شط الحضنة الذي يرتفع **1400**م، فوق مستوى سطح البحر، ويغطي مساحة تزيد على **27 ألف هكتار**.

أما بقية الشطوط فأوديتها قصيرة جدا وجافة في معظم الأحيان.

الأودية الصحراوية:

وهي التي تجري إلى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوي وتصب في الشطوط أحيانا أو تختفي وسط الرمال أحيانا أخرى. وهي أودية عديمة الانتظام فجائية الفيضان، ليس لها جوانب مضبوطة ولا حدود معينة.

وتنقسم إلى قسمين: أودية السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي. وأودية الهوقار. فالأولى تتجه من الشمال إلى الجنوب ما عدا وادي جدى الذي يسير على طول السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي وتغوص مياهها في الرمال لتنبع مرة أخرى في شكل عيون طبيعية أو آبار ارتوازية تقوم عليها واحات النخيل، واهم هذه الأودية هو وادي جدى، ووادي العرب والوادي الأبيض، ووادي زرقون وسوقر والخبيز والناموس، ووادي الساورة الذي ازدادت أهميته بعد بناء سد جرف التربة الذي سيروي سهل عبادلة.

أما الأودية المنحدرة من جبال الهوقار فتظهر في شكل شبكة منحدرة في كل الاتجاهات، وأهمها وادي تمنراست، ووادي تافاست الذي يربط بين قلب الهوقار وجمهورية النيجر.

الغطاء النباتي:

تغطي الغابات والأحراش مساحة من الجزائر تقدر بنحو سبعة ملايين هكتار اغلبها في الإقليم الشمالي.

ويوجد بالجزائر نحو ثلاثة آلاف نوع من النباتات أغلبها أصلية والقليل منها مستورد من الخارج مثل أشجار الكافور المستوردة من استراليا، والهندي أو التين الشوكي المستورد من المكسيك.

ويخضع الغطاء النباتي لشروط معينة تتحكم في وجوده وكثافته ونوعيته، واهم هذه الشروط هي: المطر، الحرارة، التربة، الضوء، الرياح، الموقع، والتضاريس، فحيث تتوفر الأمطار بالإقليم الشمالي نجد الأحراش مع سرو وريحان وحمايرة وعلائق ودوم، عند حضيض الجبال، وفي المناطق القليلة الأمطار والارتفاع نجد غابات الفلين، وتظهر غابات الصنوبر والعرعار عندما يشتد الارتفاع وتزداد البرودة وتتنوع التربة.

وفي إقليم النجود، حيث يقل منسوب المطر، تختفي الغابات الكثيفة وتحل محلها المراعي والواسعة.

وفي الجنوب، حيث تكاد تنعدم الأمطار، يكاد الغطاء النباتي يختفي تماما. ويمكن تقسيم الجزائر من حيث الغطاء النباتي إلى ثلاثة إقليم:

1)- إقليم البحر الأبيض المتوسط:

تحده جنوبا السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس التلي وشمالا مياه البحر الأبيض المتوسط ويتميز هذا الإقليم بفصل حار وجاف وقصير نسبيا يمتد من شهر مايو إلى أكتوبر، وفصل رطب دافئ طويل يدوم من أكتوبر إلى أبريل، أمطاره السنوية تتراوح بين **1.000**مم و **350**مم وهو أوفر المناطق الباقية نباتا وأهم غاباته هي:

أ- غابات أشجار الفلين: التي يترواح طولها بين الستة والأثني عشر مترا. وتظهر أشجار الفلين فوق التربة الرملية كما لا تتحمل البرودة المتطرفة، فنجدها فوق جبال الظهرة وزكار، والسفوح الشمالية لجبال تلمسان والونشريس والأطلس المتيجي وبالقرب من بجاية واهم غابات الفلين بالجزائر هي الممتدة من جيجل غربا حتى القالة شرقا على طول الساحل.

ب- غابات أشجار الصنوبر: وتتميز بالأوراق الإبرية والثمار المخروطية الشكل، كما أنها تغطي مساحة واسعة من الجزائر الشمالية تزيد عن **700 ألف هكتار**. ونجدها في جبال التل والأطلس الصحراوي. وهي على أنواع، منها غابات الصنوبر البحري التي تتطلب أمطارا كثيرة ومرتفعات متوسطة، ولهذا نجد الصنوبر البحري على الساحل الشرقي وبالخصوص في منطقة جيجل ورأس بوقرعون، ومن غابات أشجار الصنوبر نجد نوع الصنوبر الحلبي فوق المرتفعات التي تزيد عن **1300 متراً**

فوق جبال الساحل، وجبال الأطلس الصحراوي ويغطي مساحة واسعة من الجبال، إذ نجده حتى على ارتفاع **2200**متر. والصنوبر الحلبي يتحمل الظروف المناخية القاسية، ولهذا نجده في غرب الجزائر أكثر منه في شرقها.

جـــ- غابات أشجار البلوط: ويبدأ ظهورها على ارتفاع **400**متر، وتمتد حتى **700**م، فوق الأطلس التلي أما في جبال أوراس فتصل حتى إرتفاع **1900**م.

د- غابات أشجار الأرز: ولا توجد إلا في المناطق التي يتراوح إرتفاعها بين **1300** و **2200**م، كجبال الونشريس، والثنية الأحد والبليدة وجرجرة والاوراس وبوطالب.

هـــ- غابات أشجار الزيتون: وتحتل السفوح القليلة الارتفاع، بين الألف والمائة متر، فوق التربة الرملية، ولعل أهم ما يميز مناخ البحر الأبيض المتوسط هي أشجار الزيتون التي تظهر حيث يظهر هذا المناخ ولهذا يمكن اعتبارها هي الحد الفاصل لإقليم نباتات البحر الأبيض المتوسط.

2)- إقليم الإستبس:

ويمتد إلى الجنوب من إقليم البحر الأبيض المتوسط، وهو إقليم انتقالي بين الصحراء في الجنوب والتل في الشمال. حيث نجد الشجيرات المتباعدة عن بعضها والحشائش القصيرة التي تظهر في فصل دون آخر. ولا يرجع فقر المنطقة نباتا إلى قلة الأمطار فقط ولكن إلى فقر التربة أيضا.

وأهم نباتات إقليم النجود هي الحلفاء والسدرة والبطوم والشيح والدرين والكداد والطرفة أو الثل. أما الحلفاء فهي أشهر نباتات النجود يبلغ طولها حوالي المتر، ولا تتحمل الرطوبة الكثيرة، تقنع بما يقرب من **300**مليمتر من الأمطار سنويا، وإذا زادت الأمطار السنوية عن **500**مم أضرت بالحلفاء التي تختفي ويحل محلها الديس.

ومن نباتات النجود الدرين الذي يظهر فوق التربة الرملية، والشيح فوق السهول الفيضية، والسنار فوق التربة الطينية، وأنواع أخرى من النباتات تظهر فوق التربة المحلية الشطية.

3)- الإقليم الصحراوي:

ويمتد إلى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوي يحده شمالا إقليم الإستبس، أما جنوبا فيتجاوز حدود الصحراء الجزائرية. وبحكم موقعه بعيدا عن الأمطار وأسبابها كان فقيرا في الحياة النباتية. وفي الصحراء نجد إقليمين متباينين:

أحدهما نباتيا: هو إقليم تترروف أو المليع الخالي من النباتات تماما حيث لا نجد لها فيه أثرا. والثاني: إقليم الفقر النباتي الذي تظهر في أوديته شجيرات البطوم والطلح والسنط والصمغ والسدرة التي تكتفي بالرطوبة القليلة المخزونة بين جزئيات التربة. أما فوق الهضاب فتظهر نباتات قصيرة جدا مثل الضمران والعجرم، والعلندة، والقرندل.

الاقتصاد:

عرفت الجزائر زراعة الكروم والزيتون في عهد الفينيقيين. واشتهرت بزراعة الحبوب في العهد الروماني حتى سميت بمطامر روما، وكانت روما تزود جيوشها وسكانها أثناء الحروب والسلم وفي السنوات العجاف من المنتوجات الزراعية لشمال إفريقيا، ولما دخل العرب إلى شمال افريقية عملوا على تنمية القطاع الصناعي الذي كان متأخرا في العهد الروماني، لكن عدم الاستقرار كان من أهم العوامل التي جعلت البلاد تتدهور اقتصاديا إلى أن جاء عهد الأتراك الذي وجه الاقتصاد الجزائري نحو القرصنة، وزاد من الجباية. ومع الإستعمار الفرنسي عرفت الجزائر مشاكل إقتصادية من نوع جديد، بفعل استيلاء المعمرين الأوربيين على الأراضي الخصبة، وكان من نتائج ذلك:

1)- مشكلة القطاع الزراعي، وقد عمل الاستعمار على خلق طبقتين اجتماعيتين متباينتين، أحدهما عبيد الأرض وتتكون من السكان الأصليين، والأخرى أرباب الأرض وتتكون من المعمرين. ونتج عن خلق هاتين الطبقتين نظامان زراعيان مختلفان:

أ- تقليدي في أيدي السكان الأصليين، يقوم على المجهود العضلي أكثر منه على المجهود الآلي.

ب- حديث ويديره المعمرون فيه يعتمدون على الآلة ووسائل الإنتاج الحديثة ولهذا كان محصولهم أوفر من محصول النظام التقليدي.

2)- اختلاف مستوى الدخل. وكان متوسط دخل الفرد من طبقة الإقطاعية يربو عن **3500**دينار سنويا، ودخل الفرد من طبقة عبيد الأرض لا يزيد عن **500**دينار إلا نادرا وأحيانا ينخفض إلى ما دون ذلك بكثير فيصل إلى **200**دينار سنويا.

3)- عدم مشاركة المواطنين في الدخل القومي أدى إلى انخفاض هذا الدخل وظلت الجزائر تعاني العجز في الميزان التجاري بين الصادرات والواردات.

4)- هروب اليد الفنية من المصانع والمعامل وتركها شاغرة ومشلولة أدى إلى توقف الإنتاج الصناعي.

5)- انخفاض المستوى الاجتماعي حيث نجد أربعة أخماس من الأطفال الذين هم في سن التعليم لا يعرفون قراءة ولا كتابة ثم أن الذين كان لهم حظ في الدخول إلى المدارس أبعدوا عن اللغة العربية.

6)- عدد كبير من السكان من غير مأوى بسبب الحرب الاستعمارية التي دمرت بيوتهم، (**ثمانية آلاف قرية تم تدميرها**).

تلك بعض المشاكل التي تركها النظام الاقتصادي الاستعماري في البلاد بعد خروجه، فأخذتها الدولة الجزائرية الجديدة بعين الاعتبار، وبدأت تعمل على خلق نظام اقتصادي حديث، بعد أن قوضت قواعد وأسس النظام الرأسمالي، وقضت على القيود التي كانت تشد الاقتصاد الجزائري إلى الاقتصاد الفرنسي.

الثروة لنباتية:

ونشمل كلا من الثروة الزراعية والغابية، أما الأولى فتختلف عن الثانية في أنها من إنتاج المجهود الإنساني، أما الثروة الغابية فهي من نتاج الانديسكيب الطبيعي وتفاعله مع بعضه وليس فيه للإنسان إلا المجهود الأخير المتمثل في الجمع.

1- الثروة الغابية:

وهي أقدم ثروة، عرفها الإنسان قديما، واستغلها في حاجياته، وكانت الغابات تغطي مساحات واسعة من الجزائر، وفي الوقت الحالي تنتشر الغابات إلى الشمال من جبال سلسلة الأطلس الصحراوي، أما إلى الجنوب منه وفي إقليم الصحراء فلا نجد الغابات ولكن الحشائش الفقيرة المتباعدة عن بعضها البعض ـ كما ذكرنا سابقا ـ.

ومساحات الغابات في الجزائر الشمالية تقل كثافة كلما تقدمنا من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب بصفة عامة.

الفليـــن:

كانت الجزائر تنتج منه حوالي نصف مليون قنطار من الفلين سنويا قبل الحرب التحريرية وبذلك كانت ثالث دولة عالمية في إنتاج الفلين لا تفوقها إلا البرتغال، وأثناء الحرب التحريرية انخفض الإنتاج الجزائري من الفلين إلى **140 ألف قنطار** وذلك بسبب الحرب التي كانت تدور في

الجبال وهي مناطق غابات الفلين التي أحرقت الجيوش الاستعمارية جزءا كبيرا منها.

الحلفاء:

إنتاج الجزائر من الحلفاء يختلف من سنة لأخرى، فيرتفع في سنوات الجفاف، وينخفض إذا ما أصاب الأرض غيث ونمت الحبوب والأعشاب في منطقة النجود، ذلك إن الذين يقومون بجني وجمع الحلفاء في شهر مارس حتى شهر يوليه هم سكان النجود الرعاة. وهذه الحرفة ثانوية بالنسبة لهم يقومون بها إذا ما حدث جفاف، وماتت لهم المواشي وانتشرت بينهم البطالة.

وتعد الجزائر أول دولة عالمية في إنتاج الحلفاء تأتي بعدها المغرب ثم تونس ثم ليبيا ثم أسبانيا، وهذه الدول هي التي تنتج الحلفاء في العالم، معنى هذا أن نباتات الحلفاء تكاد تقتصر إنتاجا ومساحة على دول المغرب العربي فقط.

وللحلفاء فوائد كبيرة نذكر منها الورق الجيد ويوجد لهذا الغرض عدة مصانع بالجزائر، وتدخل الحلفاء في الصناعات المحلية أو التقليدية بكمية كبيرة، حيث يصنع منها السجاد، والحصر، والقفف، والحبال إلخ..

الـــدوم:

وهو من النباتات البرية التي تكثر بإقليم التل، يشبه النخيل إلا أنه قصير جدا ولا يزيد طوله عن المتر، ينبت في التربة الرملية والطينية على السواء، ويكثر في غابات الأحراش الخالية من الأشجار العالية، والذي

يستغل من الدوم هي أوراقه التي يصنع منها الألياف، والقفف والحبال، والحصر، والأكياس، والمضلات. ويعود تاريخ استغلال الدوم في صناعة الألياف التي تحشى بها الكراسي والمراقد، إلى القرن الثامن عشر، ومنذ هذا التاريخ أخذت شجيرات الدوم تقل بسبب استغلالها الواسع، واجتثاثها في بعض الأحيان لمصلحة توسيع الرقعة الزراعية لدى الفلاحين، إلى أن أصبحت الآن تحتل مساحة ضيقة ومحصورة في غرب الجزائر بالخصوص، أما صناعة القفف والحصر والحبال من الدوم فهي معروفة عند البربر منذ القديم.

العرعـــار:

أهم شيء يستغل في أشجار العرعار هي عروقه التي يزيد محيطها عن نصف متر، وبعد أن تجف عروق العرعار تحمل إلى مصانع مزودة بمناشير لتقطيعها إربا إربا، ثم توضع هذه الأجزاء في قدور بها مياه حارة لمدة تتراوح بين العشر والأثني عشر ساعة كي تطبخ جيدا، وبذلك تتحول إلى قطع صالحة لصناعة الغلايين الجيدة.

2- الثروة الزراعية:

تمثل الزراعة في الجزائر العنصر الحيوي في الثروة الاقتصادية. فحوالي **80** في المائة من السكان كانوا يعملون في القطاع الزراعي الذي تبلغ مساحته حوالي السبعة ملايين هكتار. فالجزائر عند الاستقلال كانت بلادا زراعية أكثر منها صناعية.

الحبوب:

ونقصد بها كلا من القمح والشعير والذرة والأرز والشيلم. وتحتل الحبوب في الجزائر **40%** من مجموع المساحة الإجمالية للزراعة أي حوالي **2.860.000**هكتار، وإقليم زراعة الحبوب تتركز في الجهات الشمالية، حيث المتوسط السنوي للأمطار لا يقل عن **300**ملمترا، وهو الحد الأدنى اللازم لزراعة الحبوب التي تقوم على الأمطار. ولهذا كانت أقاليم زراعة الحبوب هي: **سطيف، وقسنطينة، وقالمة، وسوق أهراس، وحوض الشلف، والمدية، وعين بسام، والسرسو، وتيارت، وسيدي بلعباس، وسعيدة**. وزراعة الحبوب لا تقوم كلها على الأمطار، أو تزرع في فصل واحد، ومن هنا جاء تقسيمها إلى حبوب صيفية وهي التي تزرع في فصل الصيف وحبوب شتوية وهي التي تزرع في فصل الشتاء. أما الأولى فتشمل الأرز الذي يكثر في السهل الغربي لمتيجة، وحوض الشلف. ويتطلب وفرة اليد العاملة، وكمية كبيرة من الماء والحرارة، ولهذا يزرع في فصل الصيف. ومن الحبوب الصيفية نجد الذرة الخشنة وتحتل مساحة أوسع من الحبوب الصيفية إذ تزيد عن **13 ألف هكتار**، أغلبها في سهل متيجة، وبلاد القبائل، وتدخل الذرة في غذاء السكان بنسبة قليلة جدا. والذرة الدقيقة أو البشنة لا تحتاج إلى الري وتكفيها نسبة قليلة من الرطوبة، ولهذا تزرع في فصل الربيع وتحصد في فصل الصيف في المناطق الجبلية حيث التربة الفقيرة، والرطوبة المتوفرة.

وتشمل الحبوب الشتوية كلا من القمح والشعير والشيلم، والقمح نوعان: صلب ولين، أما القمح الصلب فهو المادة الأساسية التي تدخل في غذاء السكان في كل القطر الجزائري. ويتطلب تربة متماسكة، وأمطارا متوفرة ولهذا اشتهر به شرق الجزائر الذي تتوفر به هذه الميزة الطبيعية.

والقمح اللين يتطلب تربةً خفيفة وأمطاراً قليلة ولهذا تكثر زراعته في غرب الجزائر. وتزرع الحبوب الشتوية في أوائل فصل الشتاء لتحصد في فصل الصيف والحبوب الشتوية التي تقوم على الأمطار تحتل الأرض الزراعية لمدة ثمانية شهور.

الكروم وتطور مساحة زراعتها:

بدأت زراعة الكروم تتوسع باتساع الاستعمار الفرنسي بالجزائر ففي الأيام الأولى لعهد الاحتلال زرع المعمرون الكروم حيث انتهي بهم الاستقرار، سواء أكانت التربة محلية، أو المنطقة معرضة للجليد أو تكثر بها المستنقعات، ثم أخذ المعمرون بعد أن اتسعت الرقعة التي احتلّوها، ينتقون لزراعة الكروم المناطق الملائمة مثل السهول الفيضية والسفوح الجبلية المشمسة وقد بلغت المساحة المزروعة كروما سنة **1875** حوالي **20 ألف هكتاراً** أنتجت ما يزيد عن **200 ألف هيكتوليتر**، ثم شجعت الآفات **(مرض الفيلوكسيرا الذي أصاب مزارع الكروم في فرنسا)** المعمرين على نقل مزارعهم إلى الجزائر فبلغت بذلك المساحة سنة **1888** حوالي **100 ألف هكتار**، وفي هذه الفترة أممت فرنسا مساحة كبيرة من أراضي

الجزائريين الذين قاموا بثورة **1871** وأسندها إلى المهاجرين الفرنسيين الذين قدموا من الالزاس واللورين، لزراعة الكروم. وهكذا ظلت مساحة الكروم تزداد على حساب بقية المزروعات إلى أن بلغت **230ألف هكتار** في أواخر العشرينات من القرن العشرين، ثم بلغت أقصاها سنة **1934** حيث وصلت إلى **411 ألف هكتار**.

ويحظى إقليم وهران بالنصيب الأكبر من مساحة الكروم التي نجدها تغطي سهول أرزيو، وسان كلو، وريو صالادو، وهضاب عين تموشنت، ومستغانم، وعين الحجر ومعسكر وتلمسان. وفي إقليم الجزائر نجد مزارع الكروم تغطي ربع سهل متيجة، من حجوط حتى بودواو، وسهل يسر، من الثنية حتى الدلس. وفي إقليم قسنطينة تنتشر زراعة الكروم في حوض وادي الصفصاف وبالقرب من سكيكدة وسهل عنابة، وتتوزع المساحة المزروعة كروما بالجزائر على الأقاليم الثلاثة السابقة كالآتي: إقليم وهران **250 ألف هكتار**، إقليم الجزائر **87 ألف هكتار**، إقليم قسنطينة **25 ألف هكتار**.

التـــين:

وتملك الجزائر أكثر من **ثمانية ملايين** شجرة من التين منها **6 ملايين** تتركز في بلاد القبائل.

الزيتون:

وهو لا ينبت إلا حيث مناخ البحر الأبيض المتوسط لذلك قيل إن من علامة مناخ البحر الأبيض المتوسط شجرة الزيتون. وتوجد في المناطق الجبلية حتى ارتفاع ألف متر وفوق التربة الرملية بالخصوص والتربة الفقيرة بصفة عامة مثلها في ذلك مثل أشجار التين حتى أننا كثيرا ما نجد حقول أشجار الزيتون مختلطة بأشجار التين. وتتميز أشجار الزيتون بالتعمير لمدة طويلة تفوق أشجار التين.

وتملك الجزائر حوالي العشرة ملايين شجرة من الزيتون منها ما يقرب من تسعة ملايين شجرة منتجة. وتحتل مجموع الأشجار مساحة تزيد عن المائة ألف هكتار وتنتشر على طول الساحل، حيث نجدها في منطقة سكيكدة وقالمة، والمحمدية، وغليزان، وسيدي بلعباس، ومستغانم، والسيق. إلا أن أهم مناطق أشجار الزيتون هي منطقة القبائل المشهورة منذ القديم بزياتينها حتى أطلق سكان الجزائر على زيت الزيتون اسم زيت القبائل. وتحتكر عمالة تيزي وزو وحدها **31 ألف هكتار** من مجموع مساحة الزيتون بالجزائر، كما يوجد بها خمسا من مجموع الأشجار.

الحمضيات:

ويقصد بها كل من البرتقال، والمندرين، والليمون، والنارنج، وتغرس أشجار الحوامض في الأرض السهلية الواقعة في ظل الرياح.فهي تتطلب تربة رسوبية، متوسطة النفاذية، ورياً دائما في فصل الجفاف وتشذيبا وحرثا في فصل الشتاء.

وتشتهر بغراسة أشجار الحوامض سهول متيجة، ومستغانم والمحمدية، وغليزان، وسكيكدة، وعنابة، وبجاية. وتحتكر سهول متيجة وحدها جل المساحة وثلثي الإنتاج الجمالي لبلاد الجزائر.

الخضر:

ويراد بها البطاطس، والطماطم، والجزر، والخرشف، واللوبية، والخردل، والدباء، والبصل، والبطيخ..الخ. والخضر تنتشر على طول الساحل الجزائري، حيث المناخ المعتدل والتربة الرسوبية الخفيفة الناضجة التي تساعد نباتات الخضر على مد عروقها بسهولة، وسطوع الشمس الذي يساعد على نضج الثمار،والسدود الكثيرة التي تمدها بالمياه وقت الحاجة.

وأكثر المناطق الجزائرية إنتاجا للخضر هي القريبة من الموانئ التي تساعد على التصدير بسهولة كما هو الحال في سهل متيجة المشهورة بزراعة الجزر والبطاطة والطماطم، وسهل وهران الذي يحتل المركز الأول في إنتاج الخرشف.

النباتات الصناعية:

ويقصد بها النباتات التي تدخل في الصناعة، والتي لايمكن إستهلاكها مباشرة، ولكن بعد تحويلها وتهيئتها للإستعمال مثل القطن، والبنجر، والتبغ، ونباتات العطور والأدوية. وأهم النباتات الصناعية بالجزائر هي التبغ الذي عرفت بلادنا زراعته قبل الإحتلال الفرنسي، وأصله من جزر الآنتيل بأمريكا الوسطى، نقل إلى وأروبا في القرن السادس عشر ومنها

جاء إلى الجزائر التي ظل يحتل فيها مساحة محدودة إلى مطلع القرن العشرين، ثم أخذت المساحة المزروعة تبغا تتسع شيئا فشيئا إلى أن زادت عن العشرين ألف هكتار قبل الحرب التحريرية، كما إرتفع الإنتاج إلى أن بلغ مايقرب من **200 ألف قنطار**.

ومن النباتات الصناعية نجد القطن وهو من شجيرات المنطقة المدارية، يتطلب حرارة مرتفعة ومياها متوفرة. وقد عرفت الجزائر زراعته قبل الإحتلال الفرنسي.

والبنجر زراعته بالجزائر حديثة جدا تعود إلى بعد الحرب العالمية الثانية.

الثروة الحيوانية:

الصيد البحري:

إن الشواطئ الجزائرية التي يبلغ طولها **1200**كلم لاتعتبر شواطئ مثالية أو جيدة للحياة البيولوجية وبالتالي لصيد الأسماك، ذلك أن الرصيف القاري وهو المنطقة الساحلية التي لايزيد عمقها عن مائتين متر ضيق للغاية.

وأهم موانئ الصيد بالجزائر هي:

1)- ميناء بني صاف وتأتي في الدرجة الأولى لصيد الأسماك الزرقاء والأسماك المهاجرة.

2)- ميناء الغزوات، وتنتج كميات كبيرة من الأسماك البيضاء والزرقاء على السواء.

3)- ميناء الجزائر وهي أهم منطقة لصيد الأسماك في الإقليم الجزائري الأوسط، تليها في الأهمية موانئ شرشال وتنس وسيدي فرج وبوسماعيل، وشفا لو، وبنهرون، وكوربي، والدلس.

4)- ميناء سكيكدة وهي أهم ميناء لصيد الأسماك في الإقليم الشرقي، تأتي بعدها موانئ القالة، وبجاية وجيجل والقل.

تربية المواشي:

تربية المواشي حرفة تقليدية مرتبطة بالظروف الطبيعية من مناخ وتضاريس، ففي المنطقة التلية من الجزائر حيث الجبال الوعرة والسفوح الشديدة الإنحدار تختفي التربة الناضجة أويقل سمكها وبالتالي تصعب الحياة الفلاحية، وفي منطقة النجود وعلى الهوامش الشمالية للصحراء تقل الأمطار إلى ما دون **300**مم سنويا وهي كمية لاتضمن النشاط الزراعي. ووجد السكان في تربية الأغنام أحسن حل لقساوة المناخ.

الأغنام:

يشتهر إقليم النجود بتربية الأغنام أو الضأن التي تعيش جماعات أو قطعانا يزيد عدد رؤوس القطيع عن **300** رأس في أغلب الأحيان ويعيش مع القطيع أفراد من الماعز ليقوده إلى المرعى.

والملاحظ على لحوم الأغنام الجزائرية أنها ذات شهرة عالمية، لجودتها ورائحتها الذكية.

الأبقار:

يشتهر الشرق الجزائري بتربية الأبقار التي تكثر في هضاب قسنطينة، وتقل في المناطق الجبلية المعقدة، لأن الأبقار بطيئة الحركة وتتطلب المروج حيث الأعشاب الكثيرة.

وتملك الجزائر ما يقرب من مليون رأس من الأبقار. ثلثها يتركز في منطقة عنابة التي تعد أول عمالة جزائرية في تربية الأبقار.

الإبل:

نصيب الإبل هو الصحراء. وقد ميزها الطبيعة بجلد سميك يمنع عملية التبخر في إقليم تشتد به الحرارة، والإبل بما لها من الخصائص الفيزيولوجية، تبلغ سرعتها **6 كيلومترات** في الساعة إذا ذملت، **وعشر** إذا رسمت، **وخمسة عشر** إذا وجفت **وخمسة وعشرين** إذا أجمرت، **وأربعين** إذا ارتقلت.

وتملك الجزائر ما يقرب من مائتي ألف رأس من الإبل أكثرها تتركز في الواحات الصحراوية.

الثروة المعدنية والتوزيع الجغرافي للمعادن:

أغلب المعادن الجزائرية تظهر بالقرب من الساحل.

الحديد:

وتأتي الجزائر على رأس قائمة الدول المنتجة للحديد في إفريقية، وقد

بلغ إنتاجها سنة **1938** حوالي الثلاثة ملايين من الأطنان، منها **1640000**طن من معدن الحديد الصافي.

وخام حديد الجزائر من الهيماتيت، والليمونيت، والمانيتيت، تتراوح نسبة المعدن فيه بين **50%** و**60%** ويحوي **2.5** في المائة من المنجنيز و**0.4%** من الفوسفور.

وأهم مناجمها هي:

أ- منجم الونزة بالقرب من الحدود الجزائرية التونسية.

ب- منجم بوخضرة.

ج- منجم خنقة المحاد بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية.

د- منجم جبل فلفله، يقع إلى الشرق من مدينة سكيكدة.

هـ- منجم تيمزريت، يبعد حوالي **30**كلم عن مدينة الجزائر.

و- منجم المعدن ولا يبعد إلا بحوالي **35**كلم عن مدينة الجزائر.

ز- منجم قوراية بالقرب من البحر: ومن مدينة قوراية.

ح- منجم بني صاف وهو منجم اكتشف إبان عهد الإحتلال الفرنسي.

ط- منجم غاز جبيلات اكتشف سنة **1952** يقع في الركن الجنوبي الغربي من الصحراء الجزائرية. وفي منطقة تندوف القريبة من الحدود المغربية، وهو أعظم منجم في الجزائر، بل وفي المغرب العربي كله ويحوي رصيدا من الحديد الخام يزيد عن المليار من الأطنان.

الفوسفات:

وهو ناتج عن تحويل بقايا حيوانية ماتت منذ آلاف السنين، ويستخرج في شكل صخور رمادية اللون تحوي مابين **58%** و**56%** من الفوسفات. وأهم مناطق استخراجه في الجزائر هو الإقليم الشرقي حيث يستخرج من منجم الكر يف بالقرب من الحدود الجزائرية التونسية، وإلى الشمال الشرقي من مدينة تبسة، ويبعد عنها بحوالي **40**كلم، وعن البحر بحوالي **257**كلم.

ومن أهم مناجم الفوسفات بالجزائر نجد منجم جبل العنق الذي اكتشف سنة **1956** به احتياطي يقدر بمليار طن ويغطي مساحة تزيد عن **2،15**كلم.

ثم أخيرا نجد معدن الفوسفات برأس الوادي **Tocqueville** إلى الجنوب الغربي من مدينة سطيف.

معادن أخرى:

وإلى جانب الفوسفات والحديد نجد بالجزائر معادن أخرى مثل الزنك والرصاص والبيريت والأنتيموان والنحاس والكيسلفور والزئبق منتشرة هنا وهناك في شكل عروق لأن التركيب الجيولوجي لشمال الجزائر معقد للغاية. حيث أن التكوينات من نوع واحد قلما نجدها تغطي مساحة واسعة، بل هي متداخلة فكذلك المعادن تظهر في نقط متعددة من القطر وأهم المناجم هي:

أ- مناجم الزنك في العابد بالقرب من الحدود الجزائرية المراكشية وفي الونشريس.

ب- مناجم الرصاص وأهمها منجم غار الروبان بالقرب من الحدود الجزائرية المراكشية.

ج- مناجم النحاس وأهمها منجم عين بربر في هضبة ايدوغ بالقرب من عنابة.

د- مناجم الأنتيموان، وتنتج منه الجزائر ما يقرب من **200**طن سنويا وأهمها منجم تعدينه توجد في حمام نبايلس والحنق.

هـ- مناجم بيريت الحديد وأهمها منجم جبل مروان.

و- والرخام يستخرج من فلفه بمكان يقع على إرتفاع **600**متر ويبعد **8**كلم عن العالية و**25**كلم عن سكيكدة.

ز- البارتين ويستخرج من منجم قدارة الذي يبعد بحوالي **40**كلم إلى الشرق من مدينة الجزائر بالقرب من الأخضرية.

الطاقة:

مصادر الطاقة هي:

الفحم الحجري:

وهو ناتج عن بقايا نباتية مدفونة منذ آلاف السنين تحت الرواسب تحولت إلى فحم حجري تحت عامل الحرارة والضغط. وتتركز المناجم

الفحمية بالجزائر في الجنوب الغربي بالقرب من كلومبشار، وأهم المنجم في إقليم كلومبشار هي:

منجم قنادسة المكتشف سنة **1907** بدء إستغلاله في نهاية الحرب العالمية الأولى وأخذت القطارات الجزائرية تستعمله في إدارة محركاتها منذ سنة **1922**.

ثم في منجم بشار الجديد وكسيكسو ويقعان إلى الجنوب من منجم قنادسة وبدء العمل فيهما أثناء الحرب العالمية الثانية.

الكهرباء:

وهي التي يطلق عليها اسم الفحم الأبيض، تولدها المحركات التي تديرها القوة البخارية أوالقوة المائية. وليس بالجزائر مساقط مائية طبيعية، وشلالات كما هو الحال في البلدان الأوروبية، تساعد على إدارة التوربينات، ولكن تعتمد الجزائر في توليد الكهرباء التي بلغ انتاجها سنة **1965** أكثر من مليار كيلواط ساعة، على الفحم الحجري والبترول في الدرجة الأولى والسدود في الدرجة الثانية ويوجد في أنحاء القطر **35** مصنعا لتوليد الكهرباء، منها **25** مصنعا تديرها القوة المائية الناتجة عن السدود و**15** مصنعا تديرها القوة البخارية.

البترول:

أصبحت المحروقات تلعب دورا متزايد الأهمية في تنشيط اقتصاديات العالم.وقد كانت المحروقات، عاملا أساسيا من عوامل تطور البلاد المصنعة. وقد أدى تطور استعمال البترول، كمصدر للطاقة، إلى تدهور

قيمة الفحم الحجري. ومن هنا أصبحت الصناعات الحديثة تفضل استعمال البترول والغاز. وكان ذلك من بين عوامل تطور قوة البلاد الامبريالية التي إستطاعت أن تفرض إرادامًا على البلاد المنتجة للبترول. فقد كانت الشركات الاحتكارية الكبرى تسيطر على 82% من إحتياطي البترول الموجود خارج الولايات المتحدة الأمريكية.

الغاز الطبيعي:

الغاز الطبيعي، يوجد في جيوب خلال التربة الرسوبية، ونظرا لانخفاض كثافته (0،7) فانه يوجد غالبا فوق البترول الذي تبلغ كثافته نسبة اكبر من الميطان. ويذكر الجيولوجيون أن نشأة البترول الذي يتحول بمرور الزمن إلى غاز طبيعي ناتج عن تحليل بقايا حيوانات البلاكتون والالق وحيوانات أخرى صغيرة كانت تعيش قديما في بحار ضحلة ثم ترسبت بعد موتها فوق تكوينات طينية، ثم تسلطت عليها مكروبات وحرارة وضغط، حولت الرواسب العضوية إلى خليط سائل ذي لون أسود فاحم، أو أسمر قاتم. هو البترول الذي ترسبت فوقه خلال العصور الجيولوجية صخور جيرية أو رملية، ثم تعرضت الرواسب إلى الالتواء، فحاز بذلك البترول إلى أماكن بها صخور مسامية أور ملية تحولت هذه الأخيرة بمرور الزمن إلى جيوب بترولية هي التي يبحث عنها رجال التنقيب.

والميطان هوغاز ليس له رائحة ولالون،خفيف الوزن،ولا يتحلل في الماء ويشتعل بسهولة. والبترول هو سائل زيتي له رائحة قوية، واخف من

الماء، ولهذا يوجد في كثير من الأحيان، خلال جيوب من صخور مسامية فوق المياه المالحة. وفي حالته الطبيعية يكون مخلوطا بشوائب كثيرة ومتنوعة، ولهذا يكرر في المصانع قبل أن يعرض في أسواق الاستهلاك، وتشتق منه مواد كثيرة تزيد عن التسعين.

التوزيع الجغرافي للبترول:

يتوزع البترول الجزائري في منطقتين هامتين هما: منطقة الصحراء الشمالية الشرقية ومنطقة الصحراء الجنوبية الشرقية.

1- منطقة الصحراء الشمالية الشرقية، أو منطقة إقليم ورقلة غرداية. وأهم حقول المنطقة هي: حقول حاسي مسعود التي اكتشفت سنة **1956**، ويقدر الاحتياطي المؤكد في هذه الحقول بحوالي الثلاثة ملايين طن. ظل إنتاجها يتزايد وحقل الحاسي الطويل الذي بدأ إستغلاله سنة **1964**.

2- منطقة الصحراء الجنوبية الشرقية، وتقع على الحدود الجزائرية الليبية، ويظهر بمنطقة الصحراء الجنوبية الشرقية حوالي **15** حقلا:

أ- حقل زارزاتين وهو أعظم الحقول الجنوبية الشرقية إنتاجا.

ب- حقل إيجي، ويأتي بعد زارزاتين.

ج- حقل طين فوى ويقع إلى الغرب من الحقول السابقة.

د- حقل تيقنوتورين، اكتشف سنة **1956**.

وهناك حقول أخرى تنتشر في دائرة مركزها عين أمناس، وقطرها يبلغ **250** كلم.

التوزيع الجغرافي للغاز الطبيعي:

من الحقول المنتجة للغاز الطبيعي في الجزائر، نجد حقل العابد لراشن، وحقل عين أمناس، وحقل الرار الشرقي إلى الشمال من زارزاتين. وأهم هذه الحقول هو حقل حاسي الرمل الذي يوجد بالقرب من بريان. وتعود أهمية حاسي الرمل إلى مايحويه من غاز طبيعي قدر الفنيون احتياطاته بألفي مليار متر مكعب. وبذلك فهو من أعظم الحقول العالمية.

نقل البترول والغاز الطبيعي:

منذ أن اكتشفت الشركات الأجنبية البترول في صحراء الجزائر بدأت تعمل على مد أنابيب تربط بين الموانئ الساحلية التي ترسو بها بواخر الشحن، وحقول الإنتاج.

وأهم أنبوب بترولي في الجزائر هو الذي تم إنشاؤه في **15 فبراير** من **1966** ويعتبر من أهم الإنجازات التي حققتها شركة السوناطراك أو الشركة الوطنية للنقل وتجارة البترول وهي شركة وطنية أنشأها الحكومة الجزائرية في **31 ديسمبر** سنة **1963** وقامت السوناطراك بمد أنبوب للبترول طوله **805**كلم وقطره **28** بوصة من الفولاذ يربط بين حوض الحمراء وميناء أرزيو.

تأميم المحروقات ووسائل نقلها:

خطت الجزائر خطوة كبيرة في طريق استرجاع ثرواتها الطبيعيــــة،

عندما أعلنت في **24** فبراير**1971** عن التأميم الكلي للغاز ووسائل نقل المحروقات، وعن التامين الجزئي للبترول.

وقد حددت نصوص تشريعية لاحقة، صدرت بتاريخ **12 ابريل 1971** الإطار القانوني الجديد الذي تعمل ضمنه الشركات الأجنبية في ميدان التنقيب عن البترول واستثماره.

وقد سمحت هذه الخطوة، للجزائر، بتأمين مصدر هام من مصادر تمويل مشاريع تنميتها الاقتصادية والاجتماعية، وفجرت بذلك معركة لم تلبث أبعادها أن تجاوزت حدود الجزائر.

تنبيه: معظم معلومات هذا الفصل عن جغرافية الجزائر– وهو فصل روجع ونقح وأضيف إليه– مستقاة من كتاب الأستاذ حليمي عبد القادر علي "جغرافية الجزائر" مكتبة الجزائرية.

الباب الثاني

في ذكر قدماء الجزائر
أهل العصر الحجري

تمهيد:

كان الإنسان في إبتداء وجوده وأول عهده بهذه الحياة لا يعرف الكتابة ولا الصنائع والحرف، ولا يهتدي إلى ما أودع الله في الأرض من المنافع، فجهل الفلاحة والغراسة واستخراج المعادن.

إنما عرف الحجارة فاستخدمها لصيد الوحوش لقوته، أو رد عاديتها عنه، ثم في دفاع المعتدين عليه من بني جنسه، أو الهجوم عليهم.

ولبث على ذلك دهورا طوالا ولكن مع ترق في صناعتها وتفنن في وجود إستخدامها ـ حتى إخترع الكتابة وعرف المعادن ودخل حضيرة الحياة النظامية.

ويعرف ذلك الدهر الطويل بالعصر الحجري لأن مدنيته مشتقة من الحجارة. ويدعى أيضا «**ما قبل التاريخ**» لأن الكتابة لم توجد بعد حتى يدون ما على عهده من الحوادث والوقائع وسير العمران والحضارة فالمؤرخ لا يستطيع أن يتحدث عن أهل هذا العصر حديثا مفصلا مستمدا من النقل، فكان هذا العصر جديرا بأن يدعى ما قبل التاريخ.

إن المؤرخين ـ وإن لم يكن لهم نقل عن أهل هذا العصر ـ لم يعدموا سبيلا للبحث عنه فقد وجدوا الآثار العريقة في القدم التي حفظها بطن الأرض أساسا للكلام عن حياة الإنسان الأول. وأنار أمامهم مذهب النشوء والإرتقاء دياجي هذا العصر الحالكة.

إن مذهب النشوء والإرتقاء قديم ليس من بنات أفكار المتأخرين. والناس إزاءه فريقان: مثبت له معجب به، وناف له نافر منه.

والحق الذي تشهد له الضرورة ويؤديه القرآن الكريم إن المذهب نفسه ـ بصرف النظر عن بعض الجزيئات ـ معقول مقبول.

أما الضرورة فيكفي استحضارها في النبات والحيوان والاجتماع والعمران: فإنك ترى النبات كيف يبدو عقب ماء المطر أو غيره ثم يأخذ في الرقي حتى يبلغ شبابه المقدر له، وترى الحيوان يكون نطفة ثم يرتقى حتى يوضع ويأخذ في النمو حتى يبلغ أشدّه، وترى الرجل يؤسس البيت أو الملك ثم يأخذ ذلك التأسيس في الرقي حتى ينال الشرف ويحوز السيادة وينتهي إلى درجة من العظمة. ثم ينشأ غيره ويزاحمه ويترقّى على حساب انحطاط الأول حتى يضمحل ويحل الثاني محله. وهكذا الشأن دواليك في كل الزمان ومكان، وترى مثل ذلك في العمران أيضا.

وأما القرآن فقد قال تعالى: ـ في شأن النبات ـ: «**والذي أخرج المرعى فجعله غثاء احوى**»، وقال في شأن الحيوان: «**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا**

النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»، وقال تعالى في شأن الاجتماع ـ ومثله العمران ـ: «**وتلك الأيام نداولها بين الناس**».

وإذا ثبت لديك أنّ المذهب نفسه لا مغمز فيه فلا يضيقنّ صدرك لبعض الجزيئات التي يقصر بعض الماديين عقلاء البشر على قبولها ويحاولون بها هدم الأديان ـ مثل ترقّي القرد إلى نوع الإنسان ـ فإن تلك الجزيئات لم تزل وهما ولن تزال خيالا فكيف يصحّ إلحاقها بذلك المذهب الصحيح؟

وزبدة القول أن الضرورة والدين متفقان على إثبات النشوء والارتقاء في النوع الواحد: أما الارتقاء من نوع إلى آخر فاقرب من تحقيقيه الجمع بين النّقيضين.

ولا معارضة بين دعوى أنّ إنسان العصر الحجري كان جاهلا إلى تلك الدرجة، وما أخبر به الكتاب الحكيم من أنّ الله علّم آدم الأسماء كلّها لأنّه لم يخبرنا أنّه علم علمه لأولاده بل فيه ما يرشدنا إلى أنّ ذلك خصوصية لآدم إذ ذكر قصّة إبني آدم ـ وهما لصلبه في رأي بعض المفسّرين ـ وعدم اهتداء القاتل لدفن المقتول. وعلى تقدير أن يكون علّم أولاده فإنّ كرور الأيام وانتقال البشر من وطن إلى آخر ممّا ينسي ذلك العلم ويذهب به بل قد تكون الأمّة العاملة في مكانها لم تبرحه وتذهب الأيام واللّيالي بعلمها حتى يضن الجاهل بتاريخها أن لا سلف لها في العلم. والشواهد على ذلك لا تحصى.

أصل قدماء الجزائر:

دلّ الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على أنّ البشر كلهم من نسل آدم عليه السلام، وأنّه هلك جميعه في الطوفان على عهد نوح عليه السلام و لم ينجو إلا من ركب معه في السّفينة و لم يعقب منهم إلاّ أبناؤه «**وجعلنا ذرّيته هم الباقين**».

واتفق المؤرّخون على أنّ أبناء نوح الّذين تفرّعت عنهم جميع أمم الدنيا ثلاثة: سام، حام، يافث.

وقد ذكر ابن خلدون في أبناء يافث قطوبال ثم ذكر الأمم المتفرّعة عنه فقال: «**وإما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق، واللمان من المغرب ويقال أنّ أهل افريقية قبل البربر منهم، وأنّ الإفرنج أيضا منهم. ويقال أيضا أنّ أهل الأندلس قديما منهم**»[1].

فإذا صحّت هذه الرواية ـ ولصحتها شواهد ستراها كان قدماء شمال افريقية وبلاد الفرنجة والأندلس ذوي رحم. ولهم إخوة مع الصيني بالشرق.

وعلى هذه الرّواية يكون شمال إفريقيا أقدم عمارة من جنوب أوروبا، لأنّ أبناء قطوبال لا شك أنّهم مروا بمصر ـ حسب ما هدت إليه الآثار ـ ثم نزلوا افريقية الشمالية وقد كان البحر الرومي ـ إذ ذاك ـ قليل

---

[1] ج2 ص10.

الماء ومتّصلا بأوروبا من جهة صقلية ومضيق جبل طارق (**وقد ذكروا أنّ الذي حفر بوغاز جبل طارق هو هرقول وقيل الإسكندر**)[1].

والأول أصحّ فإنّ هرقول متقدّم الزمن جدا. أما الاسكندر فمن المحقق أنّ الفينيقيين ـ وهم أقدم منه ـ إجتازوا إلى الأندلس في السّفن (**أواخر الألف الثاني قبل الميلاد**) فإنتقل بعض أبناء قطوبال من أفريقية إلى جنوب أوروبا برا ـ إذ لا سفن لهم في ذلك الحين ـ سالكين تينك السبيلين. وسنقف على الآثار المؤيّدة لهذا الرأي.

آثار قدماء الجزائر:

عثر الباحثون في الوطن الجزائري على آثار لأهل العصر الحجري، وهي إمّا منازل لأحيائهم، وإمّا قبور لموتاهم. وأما آلات لحياتهم من مصنوعاتهم، وأما أشياء من مقتنياتهم.

1- المنازل: أما المنازل فقد وجدت آثارها بالأماكن المرتفعة والكهوف على مقربة من العيون والأودية، وعلّة نزول الهضاب والكهوف التّمكن من حماية أنفسهم من الحيوانات الضارية، والامتناع من الأعداء الهاجمين. وحكمة الاقتراب من الماء البارز على سطح الأرض سهولة التزود منه، لبساطة حياتهم وقلّة اختيارهم للطبيعة.

---

[1] الاستقصاء ج1 ص32.

ومن المنازل المكتشفة مترل قرب معسكر ومنازل أخرى بجهات وهران، الجزائر، سعيدة، عين مليلة، سطيف، العين البيضاء، التبسة.

2- القبور: وأما القبور فقد وجدت متفرّقة ومجتمعة فوق الكهوف والهضاب، وهي مبنية بحجارة غير مصنوعة أو بها أثر ضعيف من الصّنع، وملتسقة من غير ربط بطين ونحوها. يتّخذون عليها صومعة من حجر كقالب السّكر، وكثيرا ما يجعلون عليها صفيا عريضة ويحوطونها بصف من الحجارة ثم أخذ من خلف الأوّلين منهم يقلل من هذه الأعمال القبورية حتّى صاروا يكتفون بحياطتها بدائرة حجرية ويدعون الصندوق الحجري بارزا على سطح الأرض بعدما كانوا يضعون عليه حجارة كثيرة.

ولهم في الدّفن طريقتان: الأولى وضع الميت بمحل وقتي حتى ينفصل لحمه عن عظمه ثم يجمعون عظام الأموات ويضعونها في قبر واحد، الثانية أن يفصلوا اللحم عن العظم ماعدا المختلط بالعظام ثم يدفنون الهالك جالسا ملتصقا بطنه بفخذيه ولحاه بركبتيه ويجعلون معه أواني ببعضها طعام ويضعون معه أيضا أسلحة وأشياء من زينتهم.

وقبور أهل هذا العصر كثيرة بوطن الجزائر، والبربر يدعونها قبور الجهلاء. وهي ترجع في تاريخها إلى العصر الحجري الذي انقرض اصحابه منذ أمد بعيد.

3- الآلات الحيوية: وأما مصنوعاتهم الآلية لحياتهم: فمنها هراوي حجرية عديمة الإتقان،مساحي، مناقير، وجدت هذه الأشياء بطلل دار قرب

معسكر. ومنها آلات وأسلحة مثل الأولى، عثر عليها قرب الرمشي **(مونطانياك)**.

ومنها فؤوس كثيرة حجرية متقنة الصنع، ابر من عظام متقنة أيضا ومنها أواني من طين مزينة بصور. اكتشفت بجهات سطيف وعين مليلة وعين البيضاء، ووجد معها أشياء من الأسلحة والآلات ومنها محكات لدبغ الجلود وأشاف وأوعية من خشب.

وهذه الآثار مختلفة في درجة الإتقان حسب اختلاف أزمنتها.

4- المقتنيات: وأماالآثار التي جلبوها للإقتناء من غير أن يكون لهم فيها عمل فمنها أصداف كثيرة برية وبحرية. عثر عليها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ونواح أخرى. وهذه الأصداف يتخذونها للزينة. ومنها عظام حيوانات وحشية وإنسية منها فرس الماء والكركدن ونوع من الفيلة عظيم انقطع نسله منذ قرون عديدة، عثر على عظام هذه الحيوانات قرب معسكر تحت كثيب رمل ارتفاعه ستون ذراعا. ومن تلك الحيوانات الوعل، الغزال، الخنزير، الحمار، البقر، الضان، العتر، عثر على عظامها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة، ومنها بيض النعام، عثر على شيء منه بجهات متعددة. وهو مما يتزينون به.

هذه الآثار منها ماهو محلي محض غير مجلوب من وطن آخر ولا مشابه لآثار الأمم الأخرى. ومنها مايشبه مصنوعات قدماء المصريين خاصة، ومنها ماله شبه بآثار قدماء مصر وأوروبا الغربية. فان الآلات الحجرية متشابهة في هذه الأوطان. ووجد بمغارات في نواحي وهران أوان

من الفخار وحجر الصوان والعظم شبيهة بما وجد في مغارات بجبل طارق. وبناء القبور بالأحجار موجود بغرب أوروبا. والطريقة الأولى في دفن الأموات موجودة بغرب اروروبا. والطريقة الأولى في دفن الأموات موجودة بصيقلية أيضا. وأكثر آثار قدماء الجزائر شبيهة بآثار قدماء مصر.

إن المشابهة بين آثار افريقية وآثار أوروبا الغربية دليل لصحة رواية ابن خلدون ـ وإن لم يجزم هو بصحتها ـ بأن سكان هذه الأوطان من أصل واحد. ثم في كثرة متشابهة آثار افريقية لآثار مصر دليل على أن أبناء قطوبال دخلوا إفريقية من ناحية مصر. ثم في نهاية متشابهة آثار افريقية بعضها لآثار صقلية وبعضها لآثار جبل طارق دليل على إن هذه الأمة دخلت أروبا من تينك الجهتين.

ومؤرخو الإفرنج احاطوا علما بهذه الآثار وما بينها من المشابهات ولكنهم لم يهتدوا لرواية خلدون.

فأثبتوا بطريق البحث والنظر أن سكان افريقية وصقلية وأوروبا الجنوبية والغربية متفرع بعضهم عن بعض. ثم افترقوا في تعيين الأصل والفرع: فمنهم من قال: أنه لايعلم ـ لقدم الزمن جدا ـ من هي الأمة التي بقيت بوطنها والتي انتقلت عنه؟ ولا متى وقع انتقال المنتقل؟ ومنهم من جزم ـ من غير دليل ـ بان الإنتقال وقع من أوروبا إلى افريقية الشمالية. وانا لاأقف موقف الطائفة الأولى، ولا اخضع لجزم الطائفة الثانية، بل أجزم بان الانتقال وقع من افريقية الشمالية إلى أوروبا الجنوبية والغربية. ومستندي في ذلك الآثار السابقة فإنها متصلة من المشرق إلى

المغرب. ولم تجد طريقا أخرى متصلة بالشرق من جهة وأوربا مملوءة بالآثار التي لها شبه بآثار قدماء افريقية.

حياة قدماء الجزائر:

تختلف حياة الأمم بساطة ورفاهية باختلاف درجتها في معرفة وسائلها المادية والأدبية. والأستاذ الأول لتلقين تلك المعرفة هي الضرورة والحاجة. وقديما قيل: «**الحاجة أم الاختراع**» .

وقد هدت الحاجة الإنسان الأول إلى اتخاذ مسكن يأوي إليه، وملبس يقيه حرارة القيظ أو زمهرير القر، ومطعم يحفظ عليه حياته ويقوي بدنه على تحمل عبء الحياة. ومكسب يقتنيه ويدخره ليستعين به في وجه من وجوه الحياة.

1- المسكن: أما المساكن فقد دلت الآثار المكتشفة في غيرما وضع على أن قدماء الجزائر اتخذوها في الأكمات والهضاب واختاروا لها مواضع المياه. وقد قدمنا الوجه في ذلك. ومن وجوه اختيارهم الهضاب على الوهاد الفرار من تراكم الثلوج على بيوتهم المفضي إلى القضاء عليهم تحتها. ذلك بأن الرياح تنسف الثلوج عن الأمكنة المرتفعة وتنقلها إلى الأمكنة المنخفضة، ولم يزل هذا الغرض ببعض جهات الجزائر معروفا معمولا به إلى اليوم وقد إتخذوا مدنا وقرى وأحاطوها بأسوار من الحجارة الضخمة غير منحوتة إلا قليلا. وكانت مساكنهم داخل المدينة أو القرية

في أول عهدهم بالعمارة متخذة من أخشاب ومركبة بكيفية وقتية ليسهل عليهم نقلها حيث صاروا.

وكانت لهم عربات تحمل تلك البيوت تجرها الخيل. وهم لا يأوون إلى مدنهم إلا متى حز بهم أمر وداهمهم مكروه لا يستطيعون مقاومته ببواديهم.

2- **الملبس**: وإما لباسهم فكان من جلود الحيوانات التي يصطادونها، يدل على ذلك وجود محكات لدبغ تلك الجلود وأشاف لثقبها وإبر لخياطتها.

واتخذوا زينتهم وحليهم من بيض النعام والأصداف. وكانت رؤوسهم غير مكشوفة. يدل ذلك على وجود تماثيل حجرية تشخص إنسان ذلك العصر مكسو الرأس بالجلد أو الريش وماسك ثوبه الجلدي على كتفه بزر.

3- **المطعم**: وأما مطعمهم فكان من البقول وثمار بعض الأشجار وخشاشات الأرض ولحوم الحيوانات التي يصطادونها من ظباء ووعول ونعام وخنازير وغير ذلك مما هدت إليه بقية عظامه وما ذهب ولم يبق له أثر.

4- **المكسب**: وأما مكسبهم فهو حيوانات يقومون بتربيتها أو حفظها من عاديات السباع ويتنتجعون بها مواضع الكلأ ومواقع المياه. وأهل الأراضي الخصبة منهم لايبعدون عن النجعة بل إن منهم قبائل اختصت بجهات لزمتها ولم تخرج عنها إلى غيرها. قال **اغسال Gsell** في قوم وجدت لهم

آثار بجهات سطيف وعين مليلة وعين البيضاء: «**والظن أن بيوتهم كانت من خشب كثيرا منها طالت عمارتها. ويظهر أنّ هؤلاء السّكان كانوا قليلي الإنتقال**». وذكر في موضع آخر: أن هناك قبائل لم تبرح أوطانها. وسكان الصحراء أبعد القبائل نجعة وأكثرهم لجذب أراضيهم وقلّة العشب والماء الكافيين لمواشيهم.

ومن حيواناتهم الإنسية الحمار والضان والعنز، وقد عرفت هذه الحيوانات لقدماء المصريين فربما نقلها هؤلاء الإفريقيون من هناك حين مروا بمصر أو جلبوها من بعد. ومنها الخيل، ويحتمل أن تكون مجلوبة من الشّام لتحقق وجودها به منذ أحقاب عريقة في القدم. ومنها البقر، ويحتمل أن يكون أصله البقر الوحشي وراضه أهل هذا العصر حتى تأنس وتناسل. ومنها الفيل العظيم، وهذا انقطع نسله كما انقرض أهله وإنما بقي أثره حسبما سبق. ومنها الكلب وظنه بعض المؤرخين من المتأخرين متفرعا من الذئب. وهو من إغراقهم في الاندفاع خلف تيار مذهب النشوء والارتقاء وعدم تحريهم في تطبيقه ولو أتقنوا درس الطبيعة لما حملوا على هذا المذهب أكثر مما يتحمل، ولما الصقوا به جزئيات جهلوا أصلها وهو لايتسع لها. وقد نطقت التجربة والاختبار بأن الذئب ـ ولو ربي ـ لايصير كلبا. والله صفاء اذهان العرب اذ تقول امرأة منهم أخذت جرو ذئب وارضعته نعجة لها فلما كبر أكلها:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي   وأنت لشاتنا ولد ربيب

غذيت بدورها وربيت فينا فمن أنباك أن أباك ذئب؟

إذا كان الطباع طبــاع سوء فلا لبن يفيد ولا حليـب

ولم يوجد أي اثر يدل على معرفة هذا الجيل للفلاحة. أما المعادن فكانوا يجهلونها بتاتا. وإنما عرف من بعدهم النحاس فسمي عصرهم بالعصر النحاسي، ثم ترقوا إلى معرفة الحديد فسمي هذا العصر بالعصر الحديدي. ومازال هذا العصر إلى اليوم لوفور منافع الحديد ولذلك ذكره الله من بين سائر المعادن بأسلوب يدل على عموم حاجة البشر إليه في جميع الأزمان إذا قال: «**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**».

أدوار مدينة قدماء الجزائر:

مكث قدماء الجزائر ـ كغيرهم ـ أحقابا لا يعلم تقديرها إلا العزيز العليم ومدينتهم محصورة في الحجارة: يستخدمونها في جميع شؤونهم الضرورية والكمالية. غير أنهم كانوا يترقون ـ وفق ناموس النشوء والارتقاء ـ في أحكام صنع الحجارة وإتقانها، ويتفننون في نقشها وتنميقها.

وقد قسم المؤرخون ذلك العصر السحيق الطويل ـ حسبا هدتهم الآثار المختلفة صنعاً وزمناً ـ إلى ثلاثة أدوار:

1- **عصر الحجارة القديم**: كان الإنسان فيه أول عهده بالطبيعة جاهلا بطرق الاستفادة منها مقتصراً في حياته على استعمال ما إهتدى إليه فكرة

الإبتدائي من المواد الطبيعية التي يسهل تناولها من غير حاجة إلى حذق في صناعتها. استعمل من الحجارة مع تهذيبها قليلا جهازه الحيوي.

وقد عثر الباحثون على شيءٍ من هذا الجهاز بجهات من الجزائر تقدم ذكرها. من ذلك هراوي ومناقير ومساح. وهي من أقدم ما عرف من مدينة الجزائيين في ذلك العصر.

2- **عصر الحجارة الأوسط**: تقدم الإنسان في هذا الدور قليلا فرقى الصناعة الحجرية، ومدَّ يده إلى غير الحجارة أيضا: اتخذ من مغارات الكهوف أكنانا، وصنع الفؤوس الحجرية، وجعل ابراً وخناجر من العظام، وأواني من بيض النعام.

وأثار هذا الدور متوفرة فيما بين قابس شرقا وسطيف غربا.

3- **عصر الحجارة الحديث**: في هذا الدور أتقن الإنسان صناعة الحجارة وتفنن فيها وتوسّع في الاستفادة منها ولم يقف عندها فقط: اتخذ بعض جهازه الحربي ـ مثل السهام ـ من الحجارة، ورسم عليها الرسوم العجيبة.

وقد عثروا على بعض تلك الرسوم بجبل بني راشد ووادي ايتل وجهات قالمة واتخذ الأواني الطينية للطبخ (**مما يدل على تعرفه إلى النار**).

وصنع الأوعية من الخشب، والعربات تقودها الخيل لنقل الآلات الحربية والبيوت الخشبية. وأتقن التصوير فرسم صور الحيوانات ومناظر الاصطياد. واشرف على المبادئ التاريخية فرسم على أواني الفخار أشكالا هندسية تمثل الكتابة. وقدر علماء الآثار قدم تلك الأواني الفخارية بنحو ستة آلاف سنة قبل المسيح عليه السلام.

مدنية أية أمة من الأمم مستمدة استمدادا علميا من معقولها ودرجة تفكيرها، واستمدادا عمليا من كسب أبنائها وجهودهم، ويتكون عقليا وعمليا من طبيعة المكان الذي تقطنه، وتتأثر بما تشاهده من جيرانها أو يبلغها من أخبار الأمم الأخرى.

ولهذا كانت مدنية قدماء الجزائر ذات أقسام ثلاثة:

1- مدنية محلية لا مشابهة بينها وبين مدنيات الأمم المجاورة لها. من ذلك مدنية أطلق عليها اسم «**الصناعة الجيتولية**» وآثارها تبتدئ من قابس شرقا وتذهب جنوبا إلى جهات قفصة وتنتهي غربا بنواحي سطيف.

ومدنية أطلق عليها اسم «**الحضارة الصحراوية**» وآثارها قائمة إلى اليوم بوادي ريغ ووادي مزاب.

2- مدنية تشبه مدنية قدماء مصر وشمال افريقية الشرقي.

3- مدنية تحاكي مدنية جنوب أوربا والأندلس المجاورة لها غربا.

من تأمل الآثار الجزائرية ـ وسائر افريقية الشمالية ـ وأمعن النظر فيها، ألفى أن مدنية هذا الوطن كانت شديدة التأثر من ناحية الشرق قليلته من جهة الغرب. بل قد تكون مدنية هذا الوطن هي التي أثرت في مدنيات جنوب أوربا وغرها حسب البحث السابق.

والقضايا التاريخية ناطقة بانشراح صدور الإفريقيين عموما للحضارات الشرقية وسرعة تأثرهم بها، ومحاربة المدنيات الغربية وتقززهم منها. وقد يعثر الباحث في بطون التاريخ على جزيئات لا تؤدي هذا الحكم ولكنها نادرة لا تقوى على مضادته أو نقضه.

وهكذا ترى الجزائر (**وجارتيها**) من حين مهدها معترفة بفضل الشرق مهبط الوحي ووطن النبوءة ومعدن الحكمة.

لغة قدماء الجزائر:

ذكر غسال في كتابه الجزائر في القديم: «**إن لغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والبربر ترجع إلى أصل واحد**». وقد لخص بيروني في كتابه «**المسألة الإفريقية**» كلام غسال. وبيرنار **Bernard** في هذه المجلة: «**وتشبه لغتهم (البربر) لغات الشمال الشرقي من إفريقية ولغات أوروبا الجنوبية والغربية**».

وقد عبر هؤلاء المؤرخون عن قدماء افريقية الشمالية بالبربر لاعتقاد جمهور المؤرخين أنهم أول من عمرها. والصواب أنهم مسبوقون بأمة العصر الحجري وهي غير أمة البربر. أفصحت عن ذلك رواية ابن خلدون، ويعضدها قول غسال نفسه أثناء الحديث عن القبور الأثرية: «**والبربر ينسبون هذه القبور إلى الجهلاء. وهؤلاء كانوا وثنيين وانقرضوا منذ دهر بعيد جد**». إذا لا يخفي أن البربر لم ينقرضوا وإنما انقرضت الأمة التي سبقتهم إلى شمال افريقية وهي أمة العصر الحجري.

وتشابه لغات هذه الأمم شاهداً آخر يضاف إلى ما تقدم من الشواهد على صحة رواية ابن خلدون التي صدرنا بها الكلام على أصل قدماء الجزائر. ثم وقوف الشبه من جهة الغرب في جنوب أروبا وامتداده

من جهة الشرق مما يؤيد رأينا السابق أن أبناء قطوبال أتوا على مصر إلى افريقية ومنها ذهبوا إلى ما يليهم من أروبا.

ديانة قدماء الجزائر:

أثبت الباحثون على الآثار أن لهؤلاء القوم ديانة: والديانات أصلها الوحي. فلا بد أن تكون هذه الأمة أخذت أصول ديانتها عن رسول من الرسل.

وقد قال تعالى: «**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**» ثم دخلها التحريف والتبديل والغلو في تعظيم بعض المخلوقات حتى أمست وثنية. ولا أظن أمة تنشأ على فطرتها تكون وثنية تعتقد النفع والأضرار على الناشئين عن الاختيار في الشمس أو القمر أو أي مظهر آخر.

وإنما تخضع الأمم ذوات الفطر التي لا عهد لها بأي نزعة، للدين الصحيح. فإذا ألفت الإذعان للدين وتمكن منها الإيمان بأشياء من المغيبات، ثم طرأ عليها الجهل ـ ظهر فيها من الدجاجلة من لهم أغراض شخصية يعملون لتحصيلها باسم الدين والدين هداية عامة لا آلة يستخدمها أصحاب الغايات الذميمة لبلوغ غاياتهم. لا جرم اضطر كل دجال من البشر في أي عصر إلى تحريف الدين، بالغلو أحيانا والابتداع تارة. وإذا ذاك يغرس أشجار الوثنية في تربة الجهل الثرية، تسقيها تلك الأمة الجاهلة بخيالاتها وأوهامها حتى تعظم وتنتشر فتحجب شمس الدين الصحيح وتغطي بدور العقول النيرة.

وفي ظلام هذه الأشجار الحالك تعيش الأمة عيشة وثنية: لا هي من الأنعام عديمة الشعور بغير حاجتها إلى ما يحفظ حياتها الأولى، ولا هي من البشر تحكم العقل وتتقاضى إليه فيما تأتيه من ضروب الأعمال. «**أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا**».

أما الديانة التي عرفها الأثريون لقدماء الجزائر فهي عبادة الشمس والقمر (**وهما من معبودات المصريين**)، وعبادة بعض الحيوانات منها القرد والثور والكبش والتيس. وجد بجبل بني راشد تمثال يدعى «**أتون**» كانوا يتخذونه إلها وهو صورة تيس على رأسه دائرة الشمس.

وكانوا يعظمون العيون والأشجار والجبال، ويحترمون الأموات ويشيدون لهم قبورا ضخمة.

وقد وقع شعبنا فيما يقرب من هذه الوثنية «**والتاريخ يعيد نفسه**» فمن آثار عبادتهم للشمس إن الولد حينما يثغر وتسقط سنه يرمي بها إلى الشمس، ويقول لها في بعض الجهات الشمالية «**أعطيتك فضة أعطني ذهب**» وفي بعض الجهات الجنوبية: «**أعطيتك سن حمار أعطيني سن غزال**».

ومن تعظيمهم لبعض العيون أنهم يتبركون بمياهها ويستشفون بالشرب منها ويرجون منها النسل ويقربون لها القرابين الدجاجية.

ومن تعظيمهم لبعض الأشجار أنهم يجتنبون قطعها واحتطاب ما سقط من عيدانها ويعلقون بها الخيوط رجاء أن تقضي حاجاتهم، كما يعلق أحدنا بإصبعه خيطا كي يذكر به ما يخشى نسيانه.

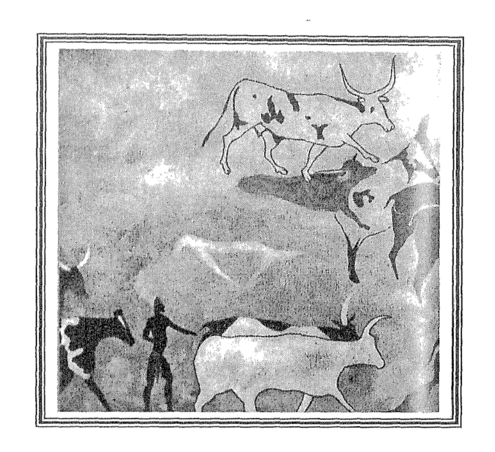
ومن تعظيمهم للجبال تقديم النذر من الأطعمة والأنعام لبعض الكهوف وزياراتها زرافات ووحدانا. وتطييب رائحتها بالبخور ومياه الرياحين. وقد يتأولون ذلك بأن احد الصلحاء مر بهذا الكهف أو جلس عنده. وعلاوة على كون هذا التأويل غير مبرر لفعلهم فإن الصلحاء جلسوا في غير الكهوف أيضا ومشوا في السهول والبسائط.

أما تشييد القبور الضخمة للأموات واتخاذ الحرم لها فقد بالغوا فيه أكثر مما تقدم واربوا في ذلك عن كل أمة حتى صاروا يشيدون القباب لا على ضريح ولا على أثر من مواقع أقدم صلحائهم. وشرح هذا المقام يوسع دائرة خروجنا عن موضوع الكلام.

وكان قدماء الجزائر يعتقدون بحياة أخرى غير الحياة الأولى، ويرون أن الميت في قبره أكمل منهم علما.

يدل على ذلك ما تقدم من أن منهم من يضع الميت في قبره جالسا متلصقا بطنه بفخذيه ولحاه بركبتيه يمثلون بهذا الوضع هيئة الجنين في بطن أمه. كأنه بموته ولد في عالم آخر، ولذلك يضعون معه أطعمة وأشياء من الزينة. وإذا أهمهم أمر لم يهتدوا إلى وجهه استشار الموتى من أسلافهم

ينام أحدهم على قبر سلفه وما رآه في منامه عمل بمقتضاه في يقظته وللجزائريين اليوم حظ وافر من هذه العقيدة المبنية على الانحطاط والتقهقر.



نقوش من تاسيلي

الباب الثالث

في ذكر البربر

تمهيد:

البربر أمة من أقدم أمم العالم وأشهر أجياله، عاصرت العرب والفرس واليونان والروم. معروفة بعز الجانب وأباية الضيم والدفاع عن الشرف.

وقد زاحمت الأمم ودافعت الملوك عدة آلاف من السنين. حاربت بني إسرائيل بالشام. وهاجرت إلى وطن افريقية والمغرب فاستولت عليه في إعصار لا يعلم مبتداها إلا العليم الخبير، واستوطنته بطونها وقبائلها، وكانت ذات كثرة ومنعة فملأت وهاد المغرب ونجاده، وأعفت ذكر الأمة التي سبقتها إليه، ثم كانت لها مواقف مع الدول العظمى ذات المطامع في وطنها. هاجر الفينيقيون جيرانهم بالشام إلى وطن البربر ونزلوا عليهم ضيوفا كراما فأكرموهم.وعاشت الأمتان في وئام قرونا. البربر يعضدون الفينيقيين في حروبهم خلف البحار، والفينيقيون يحترمون حرمة البربر ـ خصوصا بربر نوميديا ـ فلا يسومونهم بذل ولا ينالون من شرفهم ولا يمدون أيديهم إلى ما تحت تصرفهم. وقد وقعت بين الأمتين حروب إلا

أنها كانت في مباديها من قبيل الثورات التي لا تخلو منها الأمة الواحدة، وفي الأخير تمشت حيل أروبا بين البربر وانطلت عليهم دسائسها فعضدوا الرومان في حروب قرطاجنة طمعا في الاستقلال بحكم وطنهم واسترداد ما أخذتهم منهم قرطاجنة معلمتهم الحياة والنظام.

ولما انكشف لهم الحجاب عن مقاصد الرومان اخذوا يحاربونهم ـ والظفر حليفهم ـ ولم يجن الرومان من تعنتهم في محاربة البربر غير الاستيلاء على بعض المدن وما حولها من البسائط على طول المدة وكمال العدة.

ولم تزل هذه الأمة النشيطة الحربية ـ قبل الإسلام وبعده ـ تقف في وجوه الهاجمين وتثور على الظَّلمة المستبدين وتنهض للتخلص من وطأة الأجنبي على حريتها وإزاحة كابوس المستعمرين عن مقلتي حياتها.

ملأت بذلك تاريخها منذ سطوع فجر التاريخ ولكن لم تكن الحروب بمانعتها عن مجاراة الأمم الأخرى في الحضارة والرقي والتخلق بالأخلاق الجليلة والخلال النبيلة، فقد عرف التاريخ لها حضارة عظمى ومدنيَّة مُثلى، وظهر منها علماء حكماء وعظماء خبراء في الدين والسياسة والعمران قبل الإسلام وبعده وسترى ـ إن شاء الله ـ في الصحائف التالية ما ينير أمامك حقيقة هذه الأمة العظيمة.

أصل البربر:

الحديث في أصل البربر من أكثر الأحاديث اضطرابا وأوسعها خلافاً بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا وأطالوا البحث ولكن لم يحصلوا إلا على روايات متضاربة وآراء متناقضة.

ولهم في البحث طريقان: طريق المتقدمين من مؤرخي اليونان والرومان والعرب تعتمد على الرواية والنقل، وطريق المتأخرين من مؤرخي الإفرنج تعتمد على الدراية والنظر إلى اللغة والخلقة والصناعة.

ونحن لا يسعنا أن نتتبع كل ما وقفنا عليه ولكننا نحرص على إفادة المطالع بأقرب طريق فنلخص أقوال الطائفتين ثم نتبعها بنظرة تؤيّد ما كان من هاتيك الأقوال أقرب إلى الصواب ونزيف ما كان منها خرافة أو خيالا.

أ – **الطريقة الأولى**: انقسم أصحاب هذه الطريقة إلى فرق:

1– فرقة ترى أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من وطن آخر. ومن هذه الفرقة أفلاطون من القدماء **وفورنال Fournal** من المتأخرين.

2– وفرقة تقول أنهم إيجيون من سكان ضفاف بحر **إيجه Egée** وهو بحر الأرخبيل. ومن هذه الفرقة هيرودوتس، ديودور الصقلي، بلوتارك.

3– وفرقة تقول أنهم ساميّون انساب العرب. ثم اختلفوا من بعد. فذكر بروكوبس ــ وهو من مؤرخي الدولة البيزنطية عاش في المائة السادسة للميلاد ــ أنهم من العبرانيين والبونيقيين، وروى الطبراني أنهم من نسل

نقشان ـ أو نفسان ـ بن ابراهيم عليه السلام. وهي موافقة لقول بروكوس.

وروى أبو عمر عبد البر عن بعض نسابة البربر أنهم من ولد النعمان بن حمير ابن سبا. وإذن فهم عرب.

وقيل أنّهم أوزاع من اليمن: قال المسعودي من غسان وغيرهم، وقال غيره من لخم وجذام.

وقيل من عملاق بن لاوذ بن ارم بن سام. هذا ملخص أقوال الفرقة الثالثة.

4- وفرقة تقول أنهم حاميون: قيل من مصراييم بن حام، وقيل من مازيغ بن كنعان بن حام.

5- وفرقة تقول أنهم من الفرس ـ وفارس قيل من سام وقيل من يافث ـ روى المؤرخ الروماني **سالوستس Salluste** عن كتب فينيقية: إن الميد والأرمن والفرس جاؤا إلى الأندلس في جملة جنود أحد ملوك اليونان فلما توفي ذلك الملك عبر هؤلاء الأقوام إلى افريقية الشمالية ـ وكانت عامرة بالجيوتوليين والليبيين ـ واختلط الأرمن (**وهم من يافث**) بالليبيين وكذلك الميد (**إخوان الفرس**) فغيرت كلمة الميد بكلمة «**المور**» وتنقل الفرس في هذا الوطن فلقبوا أنفسهم «**النوماد**» ومعناه الرحل. ثم استولوا على البلاد القريبة من قرطاجنة واستوطنوها فسميت نوميديا نسبة إليهم. واندمج من كان قبلهم بهذه الناحية فيهم وامتزج بهم وسمي باسمهم. ومثل

هذه الرواية رواية من روى أن البربر من ولد جالوت، فقد نسب ابن خلدون جالوت إلى فارس.

6- وفرقة تقول أنهم من الهند. منها استرابون من متقدمي المؤرخين.

7- وفرقة تقول أنهم أخلاط من أصول: ففي بعض روايات الطبري أنهم من العمالقة وهم ساميون ومن كنعان بن حام، وقال مالك بن المرحل: البربر من العمالقة وحمير ومضر وقريش (**قبائل سامية**) والقبط وكنعان (**قبيلتان حاميتان باتفاق**).

هذا ملخص أقوال أهل الطريقة الأولى وتركنا بعضا منها إيثارا للاختصار.

ب- الطريقة الثانية: وهي تبحث عن أصل البربر من طريق الخلقة واللغة والصناعة:

1- أما الخلقة فيوجد في كثير من البربر عرض الأكتاف وضيق الخصر وهذا الضرب قديم بافريقية وموجود بالجزائر وتونس. وهذه الصفة معروفة بقدماء مصر والأسبان والباسك (**قوم من السلتين يسكنون شمال الأندلس وجنوب فرنسا الغربي**).

ويوجد فيهم الشقر بالجبال مثل جرجرة وأوراس بالجزائر والريف بالمغرب. إدعى بعضهم أن أصحاب هذه الصفة من بقايا الرومان والفندال ولكن غسال يقول: أنه لم يبق من هاتين الأمتين عدد يمكن أن يؤثر في البربر بل الظاهر أنهم بالمغرب من قديم. وقال مرسى أيضا أنهم

سكنوا هذا الوطن قديما، ثم قال ولهم مشابهات كثيرة ـ خلقا وخلقا ـ بأمم أروبية.

ومنهم أقوام سمر اللون قصار القامة سخنوا الطبع. قال غسال: وهذه الصفات توجد في سكان الأندلس وإيطاليا وجنوب فرنسا وجزيرتي الكورس وسردانيا.

2- أما الصناعة فمنها أوان طينية تصنع بوطن القبائل وينقش عليها تماثيل، قال غسال: وقد عثر على نظيرها في قبور مصرية يرجع تاريخها إلى نحو أربعة أو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. قال بيروني ويوجد نظيرها أيضا بجزر صقلية ومالطة. ومنها تماثيل للحيوانات تصنع بالجزائر ومراكش والصحراء. قال غسال: ويوجد نظيرها قديما بمصر والنوبة. ومنها بناءات للمعابد. قال بيروني: ولها شبه ببناءات معابد أروبا الغربية.

3- وأما اللغة فإنه لا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا، ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والصومال والهوصا، وفيها ألفاظ أروبية وهندية.

وقد إعتنى رين بالبحث فيما بين لغة البربر وبقية اللغات من المشابهات اعتناء لم يشاركه فيه غيره.

وصدر بحثه في أصل البربر بقوله: «**ومن الأدلة للبحث عن أصل أمة لغتها**» ثم أخذ يذكر ألفاظا بربرية ويناظر بينها وبين وسائل اللغات خصوصا لغات أوروبا والهند، مثل لغة السكسونيين (**الألمان والانكليز**)

ولغة السكنديناففيين أهل شمال أوروبا (**السويد والنرويج**) ولغة الاترسك (**قدماء ايطاليا**) قال وتوجد قبائل من قدماء ايطاليا مسماة بأسماء قبائل بربرية. ومعاني تلك الإعلام متعددة عند الفريقين وذكر أيضا قبائل أوروبية من أمتي الغوط والسكيت (**ويقال أيضا السكلوت**) إعلامها متحدة باعلام قبائل بربرية. ثم سرد تلك القبائل بأسمائها عند الفريقين.

وخلاصة بحث رين: أن أكثر البربر هنديون وأوروبيون أصلا ولغةً، وليس في الوطن البربري من الأصل السامي إلا قليل، حتى إن بني هلال الذين جاؤا في العصر الإسلامي أكثرهم طورانيّون وآريّون!!

وملخص أبحاث هذه الطائفة أن البربر ليسوا امة مستقلة وإنما هي مزيج من أمم شرقية وأوروبية وحد بينها الوطن.

ج – نظرة فيما تقدم من الروايات والأبحاث:

قد علمت أن أبحاث المتأخرين تعتمد على الصفات والصنائع واللغة وليس شيء من ذلك بمفيد في معرفة أصالة أمة لأخرى أو تفرعها عنها وذلك أن للأمكنة دخلا في الصفات. فالأقوام الذين يسكنون أماكن متّحدة في الطبيعة يتّحدون أو يتقاربون في الصفات وإن اختلفت أصولهم وقد أشار بيروني إلى هذه الحقيقة بقوله: «**إن مسألة الأوصاف لم تفدنا في أصول البربر شيئا**».

والصنائع اضعف من الصفات في ذلك لأنها مما يسهل تعلمه وتنقله خصوصا بين الأمم المتجاورة التي كانت بينها علاقات.

وقد أثبت التاريخ أن سكان ضفاف البحر الرومي شمالا وجنوبا تعارفوا ودخل بعضهم تراب بعض: فقد كان الجند الفينيقي مركبا من عدة أجناس كانت حوالي هذا البحر وكذلك من جاء بعد الفينيقيين من الدول: وقد أقام الجند النوميدي مع رئيسه حنبعل سنين بجنوب أوروبا.

واللغات إنما تعتبر المشابهات بينها إذا كانت من حيث التراكيب لامن حيث وجود بعض المفردات فيها خصوصا إذا احتيج في تقرير المشابهه إلى تغيير بعض الحروف أو حذفها وقد ذكر بيروني انه توجد مشابهات بعيدة بين اللغة البربرية ولغات قدماء مصر والنوبة والحبشة والصومال والهوصا، وقال: «**وهي ترجع إلى أصل حامي**» يريد أن المشابهة بين هذه اللغات السامية من عربية وفينيقية وعبرية، ولم يعتبر بيروني مشابهة اللغة البربرية للغات الاروبية وذلك لانها مشابهة في بعض الألفاظ. وقال: «**واللغة أيضا لايمكن الاعتماد عليها في أصالة أمة لأخرى**».

ولم أر من اعتمد اللغة أصلا للبحث في جنس البربر مثل **رين Rinn** وقد بالغ في البحث والتنقيب مبالغة لاتجديه في الغرض الذي يقصد إليه شيئا ولكنها تدل على سعة اطلاعه على اللغات وقوة جراءته على الانساب. ناهيك أنه لم يبال بوضوح أصل العرب وصراحة نسبها فجعل الهلاليين ـ على نصوع نسبهم العربي كسائر القبائل العربية ـ طورانيين وآريين. أي ثقة تبقى في كلام رين بعد إقدامه على العبث

بنسب قبيلة من أصرح القبائل العربية نسبا؟ وهل تثق النفس بما يبديه من المشابهات بين الألفاظ المختلفة الأصول؟ أما العربية ـ ولاأعرف غيرها ـ فقد رأيته عبث بكثير من معاني الألفاظ التي أوردها منها.

لم يكتف رين بالمقارنة بين ألفاظ البربر والأمم المجاورة لها على ضفاف البحر الرومي حتى طار إلى روسيا وأتانا منها بمفردات اتعب نفسه في تقريبها من مفردات بربرية!

أي أمة تستطيع أن تحصن وحدتها الجنسية للنجاة من تكلفات هذا الكاتب وفلسفته اللفظية؟ إذا لم تستطع قبيلة الهلاليين ذلك فليس لأي قبيلة ولا شعب آخر طمع في النجاة من تفرقة هذه الفلسفة المتمحلة.

لو كان لي شيء من جرأة هذا الكاتب لاتهمته بأنه لم يكتب ما كتب بقلم علمي وإنما كتبه بقلم سياسي: يريد أن يمزق الجنس البربري كل ممزق ويفرقه شذر مذر ويوزعه على أمم أوروبية ـ بالخصوص ـ كي تذهب وحدته ويسهل على البلعوم الأوروبي ابتلاعه.

وتلك أمنية يحلم بها بعض مرضى العقول من السياسيين ولكن لن يلج الجنس البربري في جنس آخر حتى يلج الجمل في سم الخياط.

وههنا أودع طائفة الاعتماد على الأبحاث التي لا نتيجة لها غير الشكوك والأوهام، وارجع إلى تمحيص تلك الروايات لاستخراج ما تطمأن إليه النفس منها.

1- أما القائلون بأصالة البربر في افريقية وعدم انتقالهم إليها من وطن آخر فظاهر أنّهم لم يذهبوا هذا المذهب إلا لكونهم لم يعرفوا للبربر وطنا قبل

هذا الوطن. ولكن من المعمول أن آسيا هي مهد الأصول الأولى للبشر، وإنهم لما كثروا وضاق بهم وطنهم الأول اخذوا يتوسّعون فيما حولهم من الأوطان ويكتشفونها وطنا بعد آخر.

فهذا غير صحيح ولا معقول إلا أن يكون أصحابه لايعترفون بأبوة آدم للبشر ولا باستقلال نوعهم وإنما هم منحدرون أو صاعدون من سلالة القرود مثلا. وهو رأي افن أو حلم طائش لا يعقل الأخذ به بدلا مما تواتر في التواريخ القديمة أن الوطن الأصلي للبشر هو بعض جهات آسيا، أو إيثارا له عما جاء في الكتاب الحكيم أن البشر من آدم.

2- وأما القائلون بأنّ البربر هنديون فهم أبعد عن الصواب من الأولين إذ البربر معرّفون بإفريقية من قبل التاريخ ـ كما ذكره غير واحد من المؤرخين ـ فكيف يكونون منقولين من الهند؟ وأي طريق سلكوها إلى افريقية؟

إن قالوا طريق البحر قلنا أنّها لطولها وعظمة البحر في بعضها يتوقف سلوكها على بسطة في علمي الجغرافية والنجوم ومعرفة مهاب الرياح وتقدّم في صناعة المراكب البحرية. وكل ذلك مفقود في ذلك العصر السّحيق.

وإن قالوا طريق البر قلنا أن سلوكها يتوقف على جيوش جرارة وأسلحة ممتازة ليتمكنوا من مغالبة الأمم التي يمرون بها، ثم لا يصلون إلى افريقية إلا بعد سنين طوال مملوءة من الحروب والأهوال. وذلك مما تتوفر

الدواعي لنقله وانتشاره ثم تدوينه في الكتب. ولم تحو كتب التاريخ شيئا عن هذه الرّحلة الشعبية التي لا تتيسّر حتى اليوم.

3- أما القائلون بأنّ البربر إيجيون فإنما نسبوهم إلى وطن ولم ينسبوهم إلى أصل بشري. ثم انه وطن ضيف والبربر أمة من أوفر الأمم عددا. على أن أفلاطون اليوناني ادعى ـ كما سبق ـ أنّهم أصليون بوطنهم فلو كانوا منقولين من جهات بحر هيجاي لما خفي ذلك عليه. وأهل مكّة أدرى بشعابها.

ويصعب على النفس تكذيب هذه الطائفة بتاتا فالذي يظهر أن عرق ايجيا موجود بوطن البربر، وهو الذي أوقعه في تلك الشبهة. ولكن البربر أقدم في هذا الوطن من الإيجيين وأكثر عددا وأعز نفرا.

4- وأما القائلون بأن البربر ساميون فقد علمت اختلاف رواياتهم وقد رد ابن خلدون رواية الطبري أنّهم من ولد ابراهيم عليه السلام بما محصّله: أنّ البربر كانت لهم من الكثرة في زمن داوود عليه السلام ما يبعد كونهم من نسل ابراهيم العدم طول المدة بين ابراهيم وداوود طولا يتشعّب معه البربر ذلك التشعب.

ورواية بروكوبس بمعنى رواية الطبري وقد علمت ما فيها، ولو قال هؤلاء بأنّه يوجد بين البربر عرق عبري لكان صحيحا فقد أثبت الباحثون وحققوا وجود طائفة من اليهود بين البربر من قديم، حتى أنّهم لقدمهم لا يعرفهم قدماء مؤرخي الإسرائيليين. ومعابدهم مخالفة تماما لمعابد سائر اليهود. وللعلامة شلوش اليهودي في هذا الموضوع كلام في غاية التحقيق.

والفينيقيون معلوم أنهم طارئون على البربر وليسوا مجتمعين معهم في الأصل قطعا. وأنكر ابن خلدون أيضا القول بأنهم من ولد جالوت أو عملاق وقال فيه، «**قول ساقط يكاد يكون من أحاديث خرافة**».

ورواية بن عبد البر عن بعضه نسابة البربر أنكرها هو نفسه، وأنكرها ابن حزم أيضا وعمم ـ ابن حزم ـ في الإنكار إذا لم يقبل كونهم من اليمن قائلا: «**وهذا كلّه باطل لا شك فيه**» وقال ابن خلدون «**أنّه منكر من القول**» ولكنه نقل عن المحقّقين من نسابة العرب مثل الطبري والسهيلي: أنّ قبيلتي كتامة وصنهاجة من حمير تركهما افريقش بالمغرب لما قفل من غزوه. قال السلاوي: «**وهو قول جميع النسابين من العرب**»[1].

5- وأما القائلون أنهم من الفرس فقد فسرت قولهم رواية سلوستس: أن ليبية (**افريقية**) كانت عامرة بالبربر، وان الفرس إنما نزلوا في جوارهم بعد وفاة ملكهم اليوناني.

وعليه فلا تصح دعوى أن الفرس أصل للبربر، ولا إنكار وجود الفرس بافريقية اذ لا منافاة بين الأمرين.

6- أما القول بأنهم اخلاط من أصول فقول فاسد التعبير. وصواب الحديث أن يقال: إن الوطن البربري فيه أصول غير بربرية. وهذا مسلم لكن غير مفيد في معرفة أصل البربر.

---

[1] الاستقصاء ج**1** ص**29**.

7- وأما القول بأنهم حاميون من مصراييم فغير صحيح أيضا ولكنا لا ننكر وجود عرق منهم في الوطن البربري.

والصحيح من هذه الروايات كلها أنهم حاميون من مازيغ بن كنعان ابن حام. هذا الذي صححه ابن خلدون قائلا: «**والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح... وإن إسم أبيهم مازيغ**».

واعتمد كاريت رأي ابن خلدون: أن البربر أمة مستقلة منذ أجيال عديدة. وقال الجنرال دوماس: «**أن لنا أدلة كثيرة على أن البربر من كنعان. نكتفي منها بدليل واحد: احد أعقاب حام يدعى مازيغ، وإلى يومنا هذا يسمى البربر أنفسهم أمازيغ. إلا يكون هذا التواطؤ بين الأعلام مفتاحا لأصل البربر؟**».

- خلاصة البحث:

يمكننا أن نستصفي من تلك الروايات ونستنتج من هاتيك الأبحاث النقط الآتية:

1- الجنس البربري جنس مستقل في أصله يرجع إلى مازيغ بن كنعان ابن حام. إنتقل من الشام إلى إفريقية في أزمات قديمة جدا فصح أن ينسب هذا الوطن لهم.

2- وقعت مهاجرات إلى هذا الوطن في أوقات مختلفة من أمم متعددة منها أبناء مصراييم بن حام. قال دوماس: جاءوا مع البر واجتازو إلى افريقية

وتسموا «**مور**» ومعنى ذلك مغاربة. وتقدم عن سلوستس خلاف ما يقول دوماس في كلمة «**مور**».

ومنها قبائل فلسطينية فرت أمام يوشع. ذكر ذلك دوماس وفي ابن خلدون وما يؤيده.

ومنها الفينيقيون (**وهم ساميون**) وقد جاوروا البربر قرونا عديدة فقد أسسوا عوتيقة عاصمتهم الأولى سنة **1101ق.م**.

ومنها عرب يمنيون جاؤوا مع إفريقش. ومنها قوم إيجيون ومنها قوم من الفرس. ومنها العبريون على ماحققه **شلوش Schlousch**.

كل هذا تظافرت عليه أقوال جماهير من المؤرخين. وليس في العقل ما ينافي هذا النقل.

3- البربر أخذوا حظا من لغات هذه الأمم وطبائعهم ولكن بعد صبغها صبغة بربرية. قال مرسيي: البربر تأثروا بعدة أمم نزلت بوطنهم أو استولت عليهم ولكنهم بقوا بربرا. وقال بيروني: إن الوطن البربري جمع أمما مختلفة ولكنها اصطبغت جميعا بصبغة بربرية.

وإذن نقول في سكان افريقية غير أنهم أمة بربرية إذ لايمكن تمييز ماعدا البربر عنهم لغلبة البربرية على غيرها. وهذا لايخدش في أصل البربر شيئا بل انه يشهد تمسك البربر بجنسياتهم ولذلك لم يندمجوا في غيرهم، وإلى كثرتهم ووفور عددهم ولذلك ابتلعوا الجنسيات التي حلت بوطنهم.

وهكذا أصبحت الأمة البربرية بنجوة من وصمة التهاون بجنسها وحازت الشرف على الأمم التي إبتلعتها، فإن الأمة لا تندمج في غيرها إلا وقد سجلت على نفسها الوضعية والخطيطة ونفت عنها كل وجه من وجوه الكرم والفضيلة وكتبت للأمة المندمجة فيها أسطرا من الفخر والشرف والميزة عليها لا يمحوها إلا تداركها بنفسها لجمع شتات قوميتها والعمل باسم أمتها.

هجرة البربر إلى ليبية:

علمت من الفصل السابق ان البربر أمة ذات وحدة جنسية كباقي الأمم التي عرف التاريخ عصبيتها وعظمتها.

وكان موطنها الشام ثم انتقلت إلى ليبية. ونزح أيضا إلى هذا الوطن طوائف من أمم أخرى. وحصل الاختلاط والامتزاج بين جميع سكان هذا الوطن تحت اسم البربرية. وإذ ذاك صارت الأمة البربرية ذات وحدة وطنية مركّبة من عناصر متعددة ومفرغة في قالب بربري.

ليس العنصر البربري الأصلي أول من عمّر ليبية فقد مر في الباب الأول أن أمة سبقت البربر إلى هذا الوطن. وقد عبر ابن خلدون عن البربر في ترجمة الكتاب الثالث من تاريخه الهام بقوله: «**الأمة الثانية من أهل المغرب**».

أما الروايات في تاريخ هجرتهم إلى ليبيا فكثيرة وأحسنها ما نقله يحي ابن خلدون عن إبن قتيبة: إنّ خروجهم كان أيام البلبلة[1] والبلبلة هي إختلاف اللهجات وتعدد اللغات فكأنه يقول: قبل حدوث الخط والكتابة.

وهذه الرواية متفقة مع ما يقوله متأخرون من أن البربر هاجروا إلى ليبيا قبل التاريخ. وهذا عذر من ظن أنهم أصليون بهذا الوطن غير منقولين.

وقد ذكر عبد الرحمان إبن خلدون روايات أخرى نعرض عن بعضها لظهور سقوطه، وننقل بعضها ثم نقفي عليه بما يزيل شبهة الاعتماد عليه.

1- نقل عن المسعودي والطبري والسهيلي: إن افريقش إستجاشهم لفتح إفريقيا وسماهم البربر. وينشدون من شعره:

بربرت كنعان لما سقتها   من أراضي الضنك للعيش الخصيب[2]

2- ونقل عن بعضهم: أن يوشع رئيس بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام هو الذي أخرجهم من الشام.

3- ويقول بعضهم: إن داوود عليه السلام هو الذي أخرجهم وان الله هو الذي أوحى إليه بذلك: «**قيل ياداوود اخرج البربر من الشام فإنهم**

---

[1] بغية الرواد: ج1 ص91، وقد عبر فيها بلفظ البلية وفي نسخة بلفظ البلبة. وكل ذلك تحريف البلبلة.

[2] ج6 ص94.

جذام الأرض»[1].

وقد أبطل إبن خلدون نفسه قول من قال: أن أفريقش هو الذي أخرجهم من الشام إلى المغرب بأن هناك رواية أخرى تقول: «**أنه وجدهم به وانه تعجب من كثرهم وعجمتهم وقال ما أكثر بربرتكم**».

وأفريقش هذا من ملوك اليمن التبابعة وهو مختلف في زمنه ففي بعض المواضع من ابن خلدون ما يدل على أنه قريب من عهد موسى عليه السلام وهي بعضها مايدل على أنه بعد سليمان عليه السلام وبين هذين الرسولين نحو من سبعة قرون. وذكر إبن خلدون عن إبن حزم: أن التبابعة «**في أنسابهم إختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة**»[2] وسواء إرتقى عهد هذا الملك إلى مايقرب من عهد موسى أم تأخر إلى ما بعد سليمان فان البربر بوطنهم الثاني أقدم من ذلك كله وفاقا لرواية ابن قتيبة المؤيدة بآراء الأثريين المتأخرين.

ومن قال أن يوشع هوا لذي أجلاهم إلى المغرب فقد أخطأوإشتبه عليه الأمر. وذكر دوماس أن من القبائل التي أضيفت إلى البربر قبائل فلسطينية فرت أمام يوشع وفلسطين وذكر ابن خلدون[3] أنهم أخوان البربر.

---

[1] ج6 ص94.
[2] ح2 ص58.
[3] ج6 ص97.

وبهذا يتبين مافي هذه الرواية الثانية حيث خلط أصحابها بين البربر وفلسطين.

وأما قول من قال أن داوود (ص) هو الذي أجلى البربر إلى افريقية بالوحي فقول ساقط ورواية سخيفة، لأن داوود عليه السلام عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وقد علمت أن الفينيقيين كانوا أسسوا عاصمتهم الأولى عام (1101)، وهم إنما جاؤا بعد الفلسطينيين، والفلسطينيون إنما جاؤوا بعد البربر. وأيضا فان البربر ليسوا جذام الأرض، بل هم أمة عاملة نشيطة من أقدار الأمم على تعمير الأرض واستدرار خيراتها. ومن نظر إلى ماكانت عليه افريقية من العمران المستبحر: مدن عظيمة، مياه مطردة، بساتين متصلة، حقول مزروعة، علم سخافة تلك الرواية التي لم يستح واضعها حتى جعلها وحيا.

هذا ما نقوله عن تاريخ انتقال البربر إلى ليبية أما ما انضاف إليهم من الأمم فقد كان في أوقات مختلفة يعسر الوقوف عليها جميعها، ومنهم من كانوا جاليات قليلة لايهتم المؤرخ بذكر تاريخ استيطانهم لافريقية.

ومن هذه الأمم التي كان لهجرتها إلى إفريقية ضرب من الوضوح أمة الفرس فإنهم نزلوا افريقية لما مات ملكهم اليوناني، هوقليس. و لم أعثر على تاريخ هذا الملك.

ومنهم الفلسطينيون فقد علمت أنهم فروا أمام يوشع. والمظنون أن يوشع كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد. لأن داوود عاش في القرن الحادي عشر. وقد ذكر ابن خلدون ان بين خروج بني إسرائيل من مصر

وملك داوود (ص) (600) باتفاق. ويوشع إنما رأس بني أسرائيل بعد خروجهم من التيه الذي مكثوا فيه (40) سنة.

ومنهم العرب اليمنيّون قبيلتا كتامة وصنهاجة اللتان تركهما افريقش بافريقية. وقد علمت ما في زمنه من الاضطراب.

أوصاف البربر وأخلاقهم:

إذا كان للأمكنة دخل في صبغ البشر بما تشاء من الألوان فإن منها أوصافا خلقية لا بد للأمكنة فيها وإنما ترجع إلى خاصة جنسية.

وهذا ما دعا بعض المتأخرين إلى إضافة هذا المبحث إلى مواد البحث عن جنس البربر ولكنه وضع للشيء في غير محله وطلب للنتيجة من غير شكلها فان هذا المبحث إنما يفيد في قرابة الأمم بعضها من بعض لا في أصالة أمة لأخرى.

والأخلاق من الأشياء التي تتوارث باتفاق الفلاسفة وإنما اختلفوا في أنها تتوارث عن الأصل أم الوسط، وهذا الخلاف إنما تظهر ثمرته في الأشخاص دون الأمم، لأن الأمة أصلها هو وسطها ومجتمعها.

أما أوصاف البربر فمنها أوصاف عامة لكل بربري وهي: أنّ البربري وجهه معتدل، خط عينيه مستوٍ ليس كبعض الأمم التي يكون خطا عينيها عندما يتلاقيان بالأنف زاوية منفرجة، عيناه غير ناتئتين، أنفه متوسط الطول والعرض، أعضاؤه متناسبة، قوي البنية، مستطيع لتحمل

الأتعاب وغير سريع التأثر من تغيرات الهواء، بشرته بيضاء وإنما تؤثر فيها الشمس بالسمرة.

1- ومن الأوصاف ما يختص ببعض الفرق: ففرقة منهم طوال القامة، مستطيلو الرؤوس والوجوه حواجبهم ناتئة، أنوفهم طوال رقاق. قليلو شعر اللحية، أكتافهم عريضة، خصورهم ضيّقة، ضعاف البنية. وهذه الفرقة موجودة بكثرة.

2- ومنهم صنف قصير القامة، طويل الرأس وبه عظام ناتئة، عريض الوجه، ناتئ الوجنتين، عريض الأنف، واسع الفم غليظ الشفتين، ناتئ الذقن، كثير شعر اللحية، عريض الصدر والرفغ.

3- ومنهم صنف ربعة إلى القصر، مستدير الرأس، عريض الوجه مستدير الجبهة، غليظ الحاجبين قصير الأنف، واسع الفم، مستدير الذقن، عريض الصدر. والصنفان الأولان معروفان بالمغرب من قديم الأزمنة. وثلاثتها توجد بالجزائر وتونس، والثالث منها مشهور بجربة ومزاب.

وأما أخلاق البربر مطلقا فإنّه فلاح مقيم، عامل كناز، تاجر حاذق شجاع، وقد يكون لصا متمردا، حار ينتقم ممن أغضبه بأكثر مما يستحق. حر متطرف في الحرية إلى درجة أنه يكره الرئاسة عليه ويتقزز منها إلى أن تسنح له الفرصة لهدم تلك الرئاسة وتخريب سلطانها فخور بأصله وعشيرته، هائم بمسقط رأسه حتى إذا فارقه لضرورة بقي حنينه إليه لا يضعف منه طول الاغتراب بل يزيده قوة الإلتهاب فمتى أمكنه العود عاد إلى وطنه.

وهذه الأخلاق ترشد إلى ان البربري محب لجنسه ووطنه مستكمل لصفات العمل لسعادتهما ودفاع الأجنبي عنهما أو على الأقل عدم الرضى عن سلطته ولو طال أمدها. وقد ذكر بيروني ـ وعنه أخذنا مادة هذا الفصل ـ أنّ من أخلاق البربري كونه شحيحا جلفا منقادا للخرافات ومؤثرا لها.

وهذا من هناته فإنّ كونه شحيحا جلفا خلاف الواقع المشاهد والمتواتر والمسطّر في كتب التاريخ، وسترى ما يقول ابن خلدون عنهم من صفات الكمال، وهو رجل عرفهم وعاشرهم في أواخر أيام عزّهم ودخل بجاية إحدى عواصمهم.

وأما إنقيادهم للخرافات وإثارهم لها فهو واقع مشاهد في زمننا هذا ولكنه ليس من طبيعتهم بل من طبيعة الجهل الذي ثأر منهم وبالغ في الانتقام وأمدته في ذلك عوامل من الأيام.

وقد كان منهم قبل اليوم عظماء في العلوم والمعارف. منهم يوغورطة الموجود قبل الميلاد، أبدى في كفاحه للرومان مقدرة فائقة في الحرب والسياسة، ومنهم يوبا الثاني الموجود قبيل الميلاد، كان من أعظم الفلاسفة وامهر المؤلفين، ومنهم القديس أوغسطين الموجود في عصر انحطاط الرومان، كان نادرة الوجود علما وفصاحة وتقوى وإخلاصا وتفانيا في خدمة دينه وجنسه وغير هؤلاء كثير قبل الإسلام منهم من قصّهم علينا التاريخ ومنهم من لم يقصصهم علينا.

أما بعد الإسلام فيكفي المرتاب أن يلقي نظرة على بعض عواصمهم التي كانت من عواصم العلم الكبرى مثل تيهرت وبجاية وتلمسان هذا بالقطر الجزائري فقط. ولا أطيل بذكر المدن الثانوية بله الرجال العظام.

ودونك ما يقوله إبن خلدون عن أخلاق البربر باختصار وتصرف لفظي: وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف. لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيهم من الأمم.

فمن خلقهم عز الجوار وحماية النـــزيل ورعاية الذمة والوفاء بالعهد وبر الكبير وتوقير أهل العلم ورحمة المسكين وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والصبر على المكارم والإعانة على النوائب ومقارعة الخطوب وابابة الضيم ومشاقة الدول[1] وقد أطال ابن خلدون في هذا الغرض ولكن اقتصرنا على ما إليه الحاجة أمس.

القبائل البربرية الكبرى:

البربر أمة ذات قبائل وبطون وعشائر لا ينالها الإحصاء. فإنهم كانوا يعمرون افريقية من آخر إيالة مصر إلى المحيط الأطلانتيقي، ويتصلون من ناحية الصحراء بأرض السودان.

[1] ج6 ص104.

وذكر بعض مؤرخي الفرنجة أن البربر في منتصف القرن السادس للميلاد خسروا في حروبهم من البيزنطيين خمسة ملايين من الأنفس، هذا مع أنه لم يحارب البيزنطيين جميع البربر كما هو معلوم.

وعلاوة على ذلك فقد جاء العرب عقب هذه الخسارة الفادحة ونزلوا على بقية البربر فألفوهم على غاية العزة والمنعة وذاقوا من باسهم ما يحل عزائم غير العرب أولي الإتحاد المتين في ذلك الحين.

لعل هذا الضرب من الإجمال في عظمة البربر وكثرتهم يقيم لي عذرا في عدم تتبع قبائل هذا الجيل، فلنكتف بذكر القبائل الأخرى التي تعد أصولا لقبائل عديدة. ومتى سنحت لنا فرصة ـ أثناء مرورنا بأدوار التاريخ ـ بزيادة تفصيل ودعا المقام إلى ضرب من البسط فإننا نشرح ما يحتاج القاريء إلى شرحه ونبين ما يفيد المطالع إن شاء الله.

اتفق النسابون من العرب والبربر وتابعهم المحققون من الإفرنج ـ دون المتعثرين في شبه الألفاظ ـ على ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان هما برنس ومادغيس (**ويلقب مادغيس بالأبتر**) ويقال في شعوب برنس: البرانس، وفي شعوب مادغيس الأبتر: البتر.

واختلفوا بعد هل هذان الجذمان لأب واحد: فعن بن حزم ـ وهو من نقدة النسابين ـ أنهما لأب واحد، والجميع من نسل كنعان بن حام، وعن بعض نسابه البربر أن البرانس فقط من نسل كنعان، وأما البتر فهم بنو برا ابن قيس بن عيلان بن مضر.

وذكر رين قول من قال أن البربر كلهم من بر وأيد ذلك بأن لفظ برانس كلمة مركبة من ثلاث كلمات وهي: "أبير" و" بر"، و"أن" = اله، اس = له= بر اله له.

وهذا الضرب من فلسفة رين اللفظية يذكرنا فلسفة العوام في كلمة فرعون، اذ يقولون: كان اسمه «**عون**» وفر عن أمه فلما سئلت عنه قالت: فرعون، فعلق به هذا اللفظ وعرف به.

ومنهم من يدعي أن يارين من الأمم الأروبية وأنهم هم الذين يسميهم ابن خلدون البرانس. وهذا من البعد بمكان. ذكر ابن خلدون في بطون مكناسة قبيلة «**أبا يرون**» فلو أعملنا المشابهات اللفظية مطية لإدراك حقائق الأنساب لقلنا: ان يارين هي أبايرون وكان ذلك أقرب من دعوى أنها البرانس.

والقائلون بأن البتر من سلالة بر بن قيس يروون في التحاق بر بالبربر روايات وأشعاراً لا أحب أن أطيل بجلبها فليس شيء منها بمطمئنة له النفس، ومن كان له ذوق سليم أدرك أثر الصنعة في تلك الأشعار. والصحيح عند حذاق النسابين ان البرانس والبتر جميعا من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام.

أما البرانس فيتفرعون إلى فروع كثيرة تجمعها سبعة أصول كبيرة وهي: كتامة، عجيسة، أوربية، صنهاجة، ازداجة، أوريغة، مصمودة.

قال ابن خلدون: وزاد سابق بن سليم المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخر وهي: لمطة، هسكورة، كزولة (**ويقال لها أيضا جزولة**).

وأما البتر فيجمع شعوبهم أربع قبائل كبرى وهي:

ضريسة، لواتة، نفوسة، اداسة.

ومن هذه القبائل أو بعض بطونها من يتنصل من البربرية ويعتزى إلى العرب. ولكنا تبعنا الجمهور في عدها جميعا بربرية، ومتى دعانا المقام إلى زيادة بسط في انساب بعض القبائل فإننا نفيد القارئ بمبلغ علمنا في نسب تلك القبيلة والله المسؤول في بلوغ المأمول.

برابرة وطن الجزائر ومراكزهم به:

لم يعن المؤرخون اليونانيون واللاتينيون بتفصيل قبائل البربر وبيان مراكزهم. وإنما كانوا يميزوهم بأوطانهم: يقولون في أهل نوميديا: نوميد، وفي أهل موريطانيا: مور، وفي أهل جيتول جيتوليا. وهكذا في أهل بقية أوطان البربر.

ولعل ذلك يرشدنا إلى أنهم ـ وإن كان منهم من استولى على الوطن البربري قرونا طوالا ـ لم يمتزجوا بالبربر امتزاجا يؤهلهم لهذا الضرب من البيان وينير أمامهم سبيل هذا النحت من البحث.

ولما جاء العرب امتزجوا بالبربر بسرعة تضاهي سرعة فتوحاتهم، فأخذوا عن نسابة البربر تفصيل قبائلهم، وجاسوا خلال ديارهم، فعرفوا مركز كل قبيلة منهم.

كان وطن ليبية أو المغرب أو افريقية الشمالية وطنا للبربر وقبائلهم، وكان بعض القبائل مختصا بجهات من شرق هذا الوطن أو غربه أو وسطه، وبعضها تعددت بطونه وكثرت شعوبه، فانتشرت تلك القبيلة بشعوبها وبطونها على الوطن كله، وكان لها في كل قسم من أقسامه بطن أو شعب.

ونحن نذكر الآن ما كان من تلك القبائل أو البطون والشعوب مستوطنا بالوطن الجزائري مع بيان الجهات التي اختص بها كل قبيل حسبما كان في أول الاستيلاء العربي.

تقدم أن البربر يجمعهم جذمان عظيمان: برنس ومادغيس، وإن الجذم الأول يشتمل على عشر قبائل عظمى والثاني على أربع.

وقد اختص من تلك القبائل العظمى بسكنى الوطن الجزائري دون سواه ثلاث قبائل: كتامة، عجيسة، ازداجة.

وكان بهذا الوطن أيضا بطون وشعوب من بقية القبائل الأخرى ما عدا قبيلتين من قبائل البرانس وهما: هسكورة، وكزولة، فإنهما استوطنتا المغرب الأقصى، وما عدا قبيلتين من البتر وهما: نفوسة واداسة فإنهما اقتصرتا على سكنى طرابلس.

فأما كتامة فهي من أكثر قبائل البربر عددا وأشدهم قوة وأطولهم باعا في الملك وهي إحدى قبائل البرانس عند نسابة البربر، ونسابة العرب يقولون: أنها من قبائل حمير تركها بالمغرب افريقش أحد ملوك التبابعة.

ولهذه القبيلة بطون كثيرة المعروف منها عند ابن خلدون ثمانية عشر بطنا. ومن تلك البطون ما يتفرع إلى فروع وأفخاذ.

وحوالي القرن العاشر الهجري اختلطت كتامة بمصمودة وامتزجت بها فعفا رسمها واندرست تلك الأسماء التي عرفها ابن خلدون.

ومن أسماء تلك البطون التي بقيت لعهدنا هذا جميلة.

ومما ذكره ابن خلدون من تلك البطون مصالة. والظاهر أنها مزالة التي صارت اليوم علما لقرية بعد إضافة كلمة فج إليها فيقال فج مزالة وهي تبعد عن ميلة غربا بأزيد من ثلاثين ميلا.

ومن الأفخاذ الصغيرة التي ذكرها إبن خلدون بنو تليلان. وعين مركزهم بقوله: **«أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسنطينة»**[1].

ولم يزل بنو تليلان معروفين بهذا الاسم إلى اليوم ومركزهم لهذا العهد بجبال بين قسنطينة والقل كما قال ابن خلدون.

وكتامة بجميع بطونها وأفخاذها كانت تقطن الساحل البحري من بونة إلى بجاية وتتقدم في داخل الوطن إلى حدود جبل أوراس.

---

[1] ج6 ص150.

ومن مدنها بلزمة، باغاية، سطيف، قسنطينة ،جيجل، القل، السكيكدة[1] ومدن أخرى.

وأما عجيسة فهي قبيلة عظيمة من قبائل البرانس. كان لها بين البربر كثرة وظهور كان موطنهم شرق صنهاجة وجنوب زواوة بجبال المسيلة وقلعة عجيسة التي صارت من بعد حاضرة آل حماد.

وقد انكسرت شوكتهم في عهد آل حماد وزاحمهم الهلاليون وأزاحوهم من مواطنهم فتفرقوا اوزاعا في قبائل البربر منهم من ذهب إلى تونس ومنهم من ذهب إلى المغرب الأقصى.

وفي ارض بني تليلان اليوم قرية بدوية تدعى عجيسة فلعل أهلها من بعض افخاذ عجيسة ساكنوا بني تليلان.

وأما ازداجة **(ويقال أيضا وزداجة)** فقبيلة عظيمة من قبائل البرانس **«وكثير من نسابة البربر يعدونهم في بطون زناته. وقد يقال: ان ازداجة من زناته. وزاداجة من هوارة. وانها بطنان مفترقان. وكان لهم وفور وكثرة»**[2].

ومركزهم بالمغرب الاوسط بنواحي وهران منه.

وفي القرن الرابع للهجرة أضعفتهم الفتن فذهبت ريحهم وانتقل أهل الرياسة منهم إلى الأندلس.

---

[1] ذكر ابن خلدون من مدن كتامة: (السيكرة) واظنها تعريف السكيكدة.

[2] ابن خلدون ج6 ص144.

وأما أوربة فقد كان بعضها بالمغرب الأقصى وبعضها بالمغرب الاوسط ـ على مايفهم من حديث ابن خلدون عنهم ـ فليست من القبائل المختصة بوطن الجزائر.

وهي ذات بطون كثيرة عدَّ ابن خلدون منها سبعة. وكانت لعهد الفتح العربي أكثر القبائل البربرية عددا وأشدها قوة وأقواها باسا وكانوا مستوطنين شمال الزاب. وذكر البكري منهم طائفة حوالي بونة وفي أوائل الفتح العربي أيام عبد الملك ابن مروان دحر الجيش العربي هذه القبيلة إلى المغرب الأقصى.

وأما صنهاجة فقبيل عظيم من قبائل البرانس. وزعم بعضهم: أنها ثلث البربر ونسابة العرب ينسبونهم إلى عرب اليمن وأنهم تركهم افريقش بالمغرب لما قفل من غزوه. ويقول مرسي وبيروني: أنهم من المور والجيتول. وهم ذوو بطون عديدة. نقل ابن خلدون عن بعض مؤرخي البربر أنها تنتهي إلى سبعين بطنا.

ومواطنهم بالصحراء إلى السودان والمغرب الأقصى، وبالمغرب الأوسط على ساحل البحر من عمالة الجزائر ووهران ويتقدمون في داخل الوطن إلى سهول الشلف ينتهون غربا بمصب وادي شلف في البحر ويختلطون شرقا بزواوة في سهول حمزة. وذكر البكري أو زقور شمال

مسيلة فقال: «**وهي عين عذبة باردة عليها شجرة عظيمة وهذا آخر حد بلد صهناجة**»[1].

ومن قبائل صهناجة المعروفة إلى اليوم بنو مزغنة أصحاب مدينة الجزائر قبلا وذكر ابن خلدون منها لمدونة ولها مدينة بهذا الاسم. ولعلها المدية، وأهلها إلى اليوم ينسبون إليها بلفظ لمداني.

وأما مصمودة فقبيلة عظيمة ذات بطون تبلغ أربعة عشر ولبعض تلك البطون أفخاذ وفروع.

مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة. وذكر البكري عند الكلام على بونة: ان حولها قبائل كثيرة منها مصمودة.

وأما لمطة فقبيلة كبيرة ذات شعوب كثيرة. وهم إخوة صنهاجة، مواطنهم بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء. وأكثرهم مجاورون للملثمين من صنهاجة. قال ابن خلدون: ومنهم قبيلة بين تلمسان وافريقية.

وأما أوريغة فإحدى قبائل البرانس العظيمة ذات بطون كثيرة منها هوارة. وهم ولد هوارة بن اوريغ بن برنس، باتفاق نسابة العرب والبربر ويتفرعون إلى سبعة فروع.

ومواطن الجمهور من هوارة لاول الفتح بنواحي طرابلس وبرقة.

وذكر البكري قبائل بربرية تسكن حول تاهرت، منها هوارة تسكن قبلتها وذكر منهم شعبا يسكن مدينة الغدير. وذكر ابن خلدون موطنا

---

[1] المغرب ص 65.

آخر لهوارة وهو جبل أوراس مع كتامة ولواتة. وهذا آخر ما قصدنا اليه من الكلام على قبائل البرانس.

وقد كان للواته وضريسة من قبائل البتر بطون استوطنت الجزائر أيضا. ولواتة قبيلة عظيمة تنسب إلى لوا الاصغر ـــ وهو نفزاو ـــ بن لوا الأكبر بن زحيك. ولها بطون سبعة منها مزاتة وهي اوسعها ومنها صداراتة، ومنها نفزاوة. ومواطن لواتة في القديم بنواحي برقة وطرابلس إلى قابس.

وقال ابن خلدون: «**وكان منهم بجبل أوراس أمة عظيمة.. ولم يزالوا بأوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكتامة**»[1].

وقال أيضا: «**وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تيهرت إلى ناحية القبلة وكانوا ظواعن هناك على وادي ميناس**».

وقال أيضا: «**ومنهم أيضا بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة يترلون ببسيط تاكرارت**»[2].

وبطن ميزاته منهم كانت له مدينة بلزمه على ماذكر البكري. وبطن صدراته ذكر البكري أنهم حول بسكرة ولصدراته اليوم قرية معروفة بهم في أعالي وادي سيبوس. نفزاوة هم بنو تطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر بن زحيك.

---

[1] ج6 ص 117.
[2] ج6 ص118.

وكانت لعهد الفتح العربي من القبائل ذات الكثرة والقوة، ولها تسعة بطون منتشرة في جهات من طرابلس وتونس ومركزها بالجزائر في شرق عمالة قسنطينة.

ومن بطون نفزاوة ولهاصة. وهي تقطن حيث تقطن كومية. واما ضريسة فمن بطونها بوطن الجزائر: بنو فاتن، زواغة، زواوة، مكناسة زناتة.

بنو فاتن هم أبناء فاتن بن ممصيب بن ضريس، ويتشعبون إلى عشرة شعوب: **مطغرة، لماية، مطماطة، مديونة، كومية، مغيلة، ملزوزه، دونة، كشانة، صدينة.**

وبنو فاتن منتشرون في المغرب تلوله وصحرائه يلون صنهاجة غربا على الساحل الوهراني ومنتشرون في داخل العمالة.

فأما مطغرة فقد كانت ذات قوة وكثرة لعهد الفتح العربي تقطن مابين فاس وتلمسان، وتتقدم إلى جهات شلف وجبل بني راشد.

ومن مدن مطغرة قرية تدعى «**جليداسن**» وهي على مرحلة من تنس مطلة على فحص شلف، ومنها تابحريت قرية على البحر الرومي بساحل وجدة، وذكر ابن خلدون منهم رهطا بالصحراء يقطنون قليعة والي. وهي المعروفة اليوم بالقليعة ويقولون فيها أيضا: المنيعة.

وأما لماية فلها افخاذ كثيرة، كانوا ظواعن بافريقية وجمهورهم بالمغرب الاوسط. ومن مراكزهم به جبل جزول ونواحي وانشريس.

وبطن لماية هو الذي نزل عليه عبد الرحمن بن رستم حينما فر من القيروان إلى المغرب الاوسط، وأسس دولة فيما بعد من غرر دول الجزائر.

وقد انقرضت لماية بانقراض ملك الرستميين وتفرقت اوزاعا في القبائل.

قال ابن خلدون: «**ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس. وهم بها لهذا العهد**»[1].

وأما مطماطة فهم شعوب كثيرة أيضا ومتفرقة في نواحي المغرب كله. ومركزهم بالجزائر بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل جزول من نواحي تيهرت.

وأما مديونة فإنها تقطن نواحي تلمسان إلى جبل مديونة غربا وجبل بني راشد شرقا. وفي جوارهم شرقا بنو يلومي وبنو يفرن، وغربامكناسة، وشمالا على السواحل كومية ولهاصة.

وأما كومية ـ ويعرفون قديما بصطفورة ـ فلهم بطون ثلاث: ندرومة، مغارة، بنويلول، ومن هذه البطون تفرعت شعوب كومية وتعددت قبائلهم ومواطنهم قال ابن خلدون: على ساحل تلمسان وارسكول.

---

[1] ج6 ص122.

ولعل ارسكول هي القرية التي ذكرها البكري بلفظ ارشقول عند مصب نهر تافنا في البحر. وذكر البكري من حصونهم حصن هنين على البحر.

وأما مغيلة فإنها تقطن بالشاطئ الأيمن من شلف عند مصبه في البحر ولهم مدينة على البحر تدعى «**آسلن**» بساحل تلمسان. قال البكري: **«وهي مدينة قديمة عليها سور صخر.. ولها نهر يصب في البحر من شرقيها»**[1].

ويساكن مغيلة إخوتهم من ملزوزة ودونة وكشانة. ومن ساحلهم اجتاز عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وبذر بذور حضارة كانت من بعد المثل الأعلى.

هذا آخر قول في أبناء فاتن ملتزما فيه الإيجاز.

وأما زواغة فهم من ولد سمكان بن يحي بن ضري أو (**ضريس**). واقرب ما إليهم من البربر زناتة، لان أبا زناتة جانا وهو اخو سمكان ابن أبيه.ولزواغة بطون ثلاثة متفرقة في القبائل بطرابلس والجزائر والمغرب الأقصى. وذكر ابن خلدون منهم رهطين بالجزائر: احدهما بجبال وبسائط غرب ميلة على القرب منها، وهم معروفون حتى اليوم باسم زواغة، وهذه عبارة ابن خلدون:

«وفي جهات قسنطينة أيضا رهط من زواغة»[2].

---

[1] المغرب ص79.

[2] ج7 ص7-8.

ثانيهما بجبال شلف غرب تاهرت. وذكر البكري مدينة شلف فقال: وتعرف بشلف بني واطيل. وهي ولزواغة.

وأما زواوة فهي قبيلة عظيمة تتشعب إلى شعوب عظيمة عرف منها قديما احد عشر بطنا. وهم إخوة زواغة من ولد سمكان بن يحيى. وقال ابن حزم: أنهم من قبائل كتامة. قال ابن خلدون: «**والصحيح عندي ما ذكره ابن حزم. ويشهد له الموطن ونحلة التشييع مع كتامة**».

وقال في موضع آخر: «**والمحققون من النسابة مثل ابن حزم وأنظاره إنما يعدونهم في بطون كتامة. وهو الاصوب والمواطن أوضح دليل عليه**»[1]. وغلط من جعلهم إخوة زواغة بأن القبيلة التي هي أخت زواغة تدعى زواوة. والقارئ صحف زاي زواوة بواو زواوة فظن زواوة أخت زواغة[2].

وقد اشتهرت مواطن زواوة باسم القبائل وهذه اللفظة تطلق أيضا حتى اليوم على مواطن كتامة، وان لم تشتهر فيها اشتهارها في وطن زواوة. وقد يكون هذا الإطلاق عاضدا آخر لما يستصوبه ابن خلدون.

ووطن زواوة بجبال القبائل الكبرى مابين كتامة شرقا وصنهاجة غربا و عجيسة جنوبا.

وأما مكناسة فبطن عظيم من بطون ورسطيف. وورسطيف اخو جانا وسمكان فالثلاثة أبناء يحيى بن ضري.

---

[1] ج6 ص151.

[2] المعروف بطرابلس اليوم زوارة بالراء لا بالزاي.

والمعروف قديما من بطون مكناسة ثمانية.

وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن سجلماسة أعلاه إلى مصبه في البحر.

وذكر البكري أن من القبائل التي تسكن حول تاهرت مكناسة بجوفيها.

وأما زناتة فقبيلة عظيمة من القبائل العريقة في القدم وبما كان لها من الكثرة تغلبت فيما بعد على بقية بطون ضريسة.

ويرى ديكلوس من متأخري المؤرخين: ان الجيتول أصل صنهاجه زناتة.

قال ابن خلدون: «**وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي ملوية**»[1]. قال: «**والأكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم، فيقال: وطن زناته**»[2].

قال ابن خلدون: وشعوب هذه القبيلة أكثر من ان تحصى. وعليه فانا نقتصر على ذكر الشعوب التي كانت لها شهرة في التاريخ، وهي هذه العشرة: **جراوة، اوغمرت، يفرن، مغراوة، واسين، يرنيان، ورجلة، ورنيدين، يلومي، ومانو.**

---

[1] ج7 ص7-8.

[2] ج7 ص2.

أما جراوة فهم ولد كراو بن الديرت بن جانا **(وهو زناتة)** وكانوا قبل الإسلام أهل كثرة وقوة وفيهم رئاسة زناتة.

موطنهم لعهد الفتح بجبل أوراس. ثم تفرقوا من بعد أوزاعاً في قبائل البربر بالمغرب الأقصى وغيره.

وأما اوغمرت **(ويقال غمرت أيضا)** فهم من ولد ورتنيص بن جانا، وكانوا من أوفر بطون زناتة عددا.

قال ابن خلدون: «**ومواطنهم متفرقة، وجمهورهم بالجبال إلى قبلة بلاد صنهاجة**»[1] وذكر مرسيي من مواطنهم جبل بني راشد.

وأما ورجلة **(ويقال أيضا وركلة)** فهم من ولد وركلة بن فرني بن جانا. وموطنهم بالصحراء جنوب بسكرة. ولهم مصر اختطوه ومعروف باسمهم إلى اليوم.

وأما يفرن فهم بنويفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا.

وهم من أوسع بطون زناتة. وكانت لهم الرئاسة من بعد جراوة.

ومواطنهم فيما بين تلمسان وتاهرت وفي الحضنة وجنوب أوراس.

وكان لهم ملك في العصر الإسلامي بالمغرب الاوسط ثم الأقصى.

وأما مغراوة فهم بنو يصلتين بن مسرا. فهم أخوة يفرن كانوا أوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلب منهم. وشعوبهم كثيرة. ذكر ابن خلدون

---

[1] ج7 ص50.

منها ثمانية (**منها ديغة والاغواط**) ثم قال: وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم.

وكان لهم في العصر الإسلامي ملك بفاس وسجلماسة (**تفيلالت**) وتلمسان وطرابلس وغيرها.

وموطنهم بالمغرب الاوسط من شلف إلى تلمسان. ولهم مراكز أيضا من إخوانهم بني يفرن بالحضنة وجنوب أوراس.

وأما واسين فهم بنو واسين بن يصلتين أبي يفرن ومغراوة. ولهم افخاذ عظمت وصارت ذات كثرة وقوة .منها بنو مرين ملوك المغرب في الإسلام، وبنو عبد الواد ملوك المغرب الاوسط، وبنو توجين، وبنو مصاب (**مزاب**)، وبنو راشد، وبنو رزدال في قبائل أخرى.

ومواطنهم بالزاب ووادي ريغ وجبل راشد إلى ملوية.

وأما يرنيان فهم إخوة مغراوة .لهم بطون كثيرة وأفخاذ عديدة. وهم منبثون في مواطن زناتة، واختطوا قصورا كثيرة على وادي ملوية واما ورنيدين فهم بطن من بطون دمر. ولهم شعوب كثيرة وفصائل عديدة منها بنو برزال.

وهم بنو ورنيدين بن وانتن بن وارديرن بن دمربن ورسيك بن الديرت. وكانت مواطنهم غرب جبل بني راشد قبلة تلمسان في البسائط والسهول. ثم نزحوا عندما غلبهم بنو راشد إلى الجبل المطل على تلمسان، وبنو برازل منهم كانوا بجبل سالات وما اليه من نواحي المسيلة.

وأما ومانو فقبيلة من أوفر قبائل زناتة عددا وأشدها شوكة. وكانت تقطن الجهة الشرقية من أسافل وادي شلف على نهر ميناس.

وأما بنو يلومي فهم أيضا من أوفر قبائل زناتة عددا وأشدها باسا كانوا يقطنون العدوة الغربية من شلف إلى جبل هوارة وفحص سيرات ويذهبون جنوبا إلى جبل بني راشد.

هذا ما أردنا ايراده من قبائل بربر الجزائر ومواطنهم على ماعرف لهم العرب لأول استيلائهم على المغرب. ولم يزالوا بها إلى القرن الخامس الهجري حينما حمل الهلاليون على هذا الوطن حملة أزاحت كثيرا من قبائل البربر عن مواطنها، وحل الهلاليون محلها.

والظاهر ان المراكز التي أدركها العرب للبربر وعرفوها لهم هي مراكزهم القديمة. اذ لا يعرف التاريخ هاجما غير خريطة افريقية وملك على البربر أوطانهم وحل محلهم بصفة دائمة غير الهلاليين ومن انضاف إليهم من عرب المائة الخمسة. وعندما يحين القول في هؤلاء العرب ونتكلم على شعوبهم ومراكزهم نذكر ــ ان شاء الله ــ المراكز الجديدة للبربر. ونزيد القول في شعوبهم وأفخاذهم بيانا وشرحا.

الحياة البربرية:

عمر البربر وطنهم الثاني ليبية (**المغرب**) قبل التاريخ. فلا جرم كانت حياتهم في البساطة شبيهة بحياة بقية أهل العصر الحجري في المسكن والملبس والمطعم والمكسب. ولكنهم ترقوا ـ وفق طبيعة النشوء

والارتقاء ـ في ذلك. وتأثروا بمجاورة الإغريق أولا ثم بمعاشرة الفينيقيين. وكانوا أسبق من الرومان إلى الاقتباس من حضارتي هاتين الامتين.

عرف البربر ـ كسائر البشر ـ معدن النحاس فانتقلوا من مدينة العصر الحجري إلى حضارة العصر النحاسي. ولكنهم لم يلجوا هذا العصر الثاني الا حين اكتشاف معدن الحديد. فاندمج هذان العصران عند البربر في عصر واحد على أنّ عصر الحجارة طال أمده بدواخل وطنهم. فعاصر الحديد حينا من الدهر.

من الآثار النحاسية المكتشفة بالوطن الجزائري قطع بضواحي مدينة قيصرية، وأخرى مدينة اقسيوم. ووجدت أيضا صفائح نحاسية بترل في مغارة قرب مدينة صلداي، ومعها قطع بصدد التكوين لم يزل بها اثر الفحم. وذلك يدل على أنها مصنوعة هنالك وليست منقولة من وطن آخر.

1- المسكن: كان البربر منهم الرحل أهل البيوت التي يخف حملها مهما أرادوا الظعن لإنتجاع الكلأ والعشب بمواشيهم، ومنهم المقيمون أهل القرى والمدن، يتخذون بيوتهم إما من الخشب واما من الحجارة ويغطون سقوفها بالديس أو غيره من النباتات. ولهم في هندسة البيوت أشكال وفي بنائها كيفيات. منها بناء جدارين متوازيين بالحجارة ثم صب الحصا خلالهما حتى يمتلئ ما بينهما من الفضاء.

وقد أسس البربر مدنا عظيمة. منها ماطوى عنا التاريخ خبره واعفى كر الغداة والعشي أثره، ومنها مابقي ذكره مرعيا لو حوفظ على موقعه فلم يزل موضع عمارته مرئياً.

وسنتكلم على ماحفظ التاريخ للبربر من المدن حسبما تدعونا المناسبات.

2- الملبس: كان ملابس البربر من الصوف بعد ما عرفوا الحياكة. منها البرنس. وهو ثوب أعلى يسلك في العنق اويوضع على الأكتاف ينسج قطعة واحدة ويترك من أمام مفتوحا، لايخاط إلا ما يقابل الصدر منه. وهو قديم بينهم ومعروف عند غيرهم أيضا. فقد كان لباسه شائعا بين اليونان والرومان. ووصف ابن خلدون برانس البربر بأنها كحل. والبربر معروفون بالمحافظة على العوائد العتيقة فلعل هذا الوصف قديم أيضا. ولم يزالوا حتى اليوم بوطن القبائل ينسجون برانس في غاية المتانة والإحكام. ولونها في الغالب أزرق. فأما أن يكون هذا اللون حدث بعد ابن خلدون وأما أن يكون هو الذي تساهل فعبر بالكحولة مكان الزرقة. والعرب تتساهل في الألوان المتقاربة.

ومنها القشابية. هي ثوب أعلى له أكمام يسلك في العنق ويخاط من أمام، لايترك منه إلا الجيب (**الوقبة**) ولا يلبس البرنس فوقها إلا نادرا. وهي قديمة جدا. وكانت من ملابس الرومان أيضا.

ومنها الكساء. وهو قطعة صوف غير مخيطة يشتمل بها الرجال والنساء اشتمال الصماء. وهو قديم أيضا، ومعروف عند قدماء المصريين.

ولم يزل لباسه حتى اليوم شائعا في بعض الجهات. وفي اغلب الوطن الجزائري تفننوا في نسجه ورققوه وزينوه بالحرير فصار من ملابس الزينة يختص به أهل الهيآت ويعبر عنه عرب الجزائر بالحائك.

ومنها السراويل القصيرة أو الطويلة، وهي معروفة أيضا عند الغاليين قدماء الإفرنج.

ويلبسون غير ذلك جلود الحيوانات بعد دبغها. وهي من ملابس الغاليين أيضا مازلنا نشاهدها اليوم عند أعقابهم المتمدنين. أما البربر فقد تركوا هذا اللباس من قديم، ولم يحافظوا عليه خلافا لعادتهم في غيره. وقد أحسنوا في رفض لباس يقرب صاحبه في المنظر من الحيوانات الوحشية، ويذكر بأخلاقها في المجتمع صباح مساء.

وكانوا يضعون على رؤوسهم «**القنور**». ويرجع عهده إلى الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد. وقد قدر له ان يعيش ـ على ثقله حسا ومعنى ـ هذا العمر الطويل. ولكنه اليوم أدركه الهرم ودب فيه دبيب الفناء ولا ندري متى يحين الوقت الذي يوضع فيه بدار الآثار. وعلى كل حال فلم يكن لباسه عاما. فقد قال ابن خلدون ـ متحدثا عن عموم البربر ـ: «**ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق**»[1] وذكر عن زناتة ـ وهم من سكان جيتولية على ماسبق ـ أنهم يلبسون العمائم «**يلفون الليت والاخدع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم**

[1] ج6 ص89.

من فضلها»[1]. وكان بربر نوميديا لايحلقون رؤوسهم ويفرقون شعرها غديرتين يرسلون مع كل جانب غديرة.

واتخذوا الحلي من النحاس والفضة والذهب خواتم واساوروخلاخل وغير ذلك.

و لم يغيروا إلى اليوم لباسهم القديم إلا يسيرا خصوصا البادين منهم.

3- المطعم: لاشك ان البربر كانوا قبل معرفتهم للزراعة يقتاتون من لحوم الصيد والحيوانات الأنسية وبعض النباتات الطبيعية التي لاتضر بمعدتهم. أما بعد ان عرفوا الزراعة فلا ريب أنهم استعملوا من الحبوب ضروبا من الأطعمة، نقلوا بعضها عن غيرهم من الأمم. ومن الأطعمة المنسوبة لهم **«الكسكس»** وهو اليوم من أهم أغذيتهم. يواظبون عليه للعشاء. وقليلا مايستعملونه غداء. وقد أثروا على عرب الجزائر في اقتياته فصاروا سواسية في اعتماده غذاء لابدانهم.

4- المكسب: كان البربر من قديم يكسبون الغنم والبقر والخيل الغنم والبقر لنتاجها وألبانها وغير ذلك من فوائدها، والخيل لركوبها أما للصيد وللهو واما للحرب والغزو.

واشتهر في الفروسية بربر نوميديا. وخيلهم كانت قصيرة سريعة العدو. تصلح لاستطلاع أحوال العدو ورد الفارين من الجيش. يلبس الفارس منهم لباسا خفيفا ويحمل سلاحا خفيفا أيضا، ويعتلي صهوة

---

[1] ج2 ص15.

فرسه من غير سرج ولا لجام. وإنما يمسك بيده قضيبا من خشب يصرف به الفرس طوع ارداته. وهذا دليل على حذقهم في سياسته الخيل ومهارتهم في تربيتها.



رسم فارس نوميدى

ومن مكاسبهم الإبل وهي معروفة قديما بآسيا. ولكنها لم تدخل الوطن البربري إلا حوالي سنة **66**(ق.م) قال ابن خلدون: وهي من مكاسب أهل النجعة منهم شان العرب.

وكانت لهم معرفة بالصناعات المعدنية وزراعة الحبوب، فكانوا يزرعون الفول. قال بيروني: ويظهر ان أصله من أرض البربر. ويزرعون الشعير، وهو أكثر فلاحتهم، والقمح وحبوبا أخرى. قال بيروني: ولا نعلم أهذه الحبوب محلية أم مجلوبة؟ وكان بوطنهم العنب والزيتون، ولكنه طبيعي غير مغروس.

وصنعوا من المعادن ما كانوا يصنعونه من الحجارة وبذلك سقطت الصناعة الحجرية إلا بدواخل الوطن فقد عاشت وترقت حتى صارت في غاية الإتقان.

واتفقت كلمة من وقفنا على كلامهم من المؤرخين ان البربر لم يتعلموا الغراسة الا من الفينيقيين .أما الفلاحة واستخراج المعادن فقد قال اغسال: ان البربر تعلموهما من قدماء المصريين وسكان جزر البحر الأبيض المتوسط .كانوا أولا يقتنون مصنوعات هذه الأمم ويستوردونها ثم تولوا صناعتها بأنفسهم.

نظام المجتمع البربري:

كان البربر مقتنعين ـ منذ نزلوا ليبية في حياتهم بما منحتهم الطبيعية من خصب أراضيهم التي كانت ـ على كثرتهم ووفور عدد قبائلهم ـ تفي بحاجتهم وحاجة حيواناتهم. فلم يكن لهم من غرض في استعمال وطن آخر، ولابلغ بهم الجشع ان يفسكوا دماء محترمة، ويصبغوا بلونها القاني ترابا تنبسط نفوسهم من بعد لتمتع فوقه بخيراته وجهود أبنائه المظلومين. وإنما كانت تقع منهم بعضهم على بعض هجومات أما لصيانة حرمة انتهكت واما لدالة الشرف حيث يكون منهم ذو عزة بعشيرته فيريد ان يفرض سيادته على جيرانه. وهي سيادة أدبية شرفية غير مشوبة بطمع في مغرم أو انتزاع ارض.

لذلك لم يكن لهم في القديم ملوك عظام ودول فخام وإنما كان منهم امراء على قبائل وسادات على عشائر.

وكانت السلطة المترلية بيد الرجل ولذلك كانت أنسابهم تابعة لآبائهم لا لأمهاتهم، وروى **هيرودوتس**[1] ـ على ماذكر الكعاك ـ إن نظام الأمومة كان أيضا حالة من حالات المجتمع البربري. تكون السلطة فيه للأم والأب غير معترف به شرعاوالابناء تابعون لخالهم في الميراث، وعلى هذه الرواية يكون البربر اسبق الأمم إلى الاعتراف بحرية المرأة. ويؤيدها ان ابن خلدون ذكر قبائل منهم تنتسب إلى أمهاتها. وذكر رين قبائل عبر عنها بأولاد أمهاتهم. وقد بقي أثر ذلك اليوم عند «**اليقاشين**» فإنهم إذا حسبوا لمريض أو غيره توصلا للغيب عدوا حروف اسمه واسم أمه دون أبيه. وكذلك إذا رقوا لأحد رقيتهم كتبوا بها اسمه واسم أمه لا أبيه.

ونحن ـ إذا أيدنا وجود نظام الأمومة قديما ـ لانريد انه عام بين البربر بل خاص ببعض الأوساط ونظام الأبوة هوا لغالب .

قال مرسيي: «**ومن غير شك ان لكل قبيلة قوانين تخضع لها. ولم يزل أثرها إلى اليوم في وطن القبائل**».

وقال أغسال: ويؤخذ من الكتابات الحجرية الأثرية ان فراعنة مصر كانت لهم علاقات بالليبين ينتهزون فرصة ضعف الفراعنة ليغيروا على

[1] مؤرخ يوناني شهير يلقبونه شيخ التاريخ وأبا التاريخ عاش قبل الميلاد بنحو **450** سنة.

سواحل النيل ويملؤا أيديهم من الغنائم. وأحيانا يكونون جندا مرتزقين لدى الفراعنة. وفي القرن **الرابع عشر والثالث عشر** (ق.م) كادوا يستولون على مصر.

هذا كلام أغسال. وهو ـ وإن كان تاريخه خاصا بالجزائر ـ لايصح حمل كلامه هذا على الجزائريين. وإن كانت الجزائر من ليبية. وإنما يصدق على البربر المجاورين لمصر. أما بربر الجزائر فإن لهم من وطنهم مايغنيهم عن مزاحمة القبط على النيل.

لذلك عاشوا دهورا متمتعين بلذة البساطة في مجتمعهم أغنياء عن النظام الدولي، إذ لاتحتاج إليه إلا أمة اضطرها ضيق عيشها إلى تعدي بعضها على بعض أو التوسع على حساب أمة أخرى.

عاش بربر الجزائر ماشاء الله ان يعيشوا في راحة من تحمل عبء الملوك ودالتهم، أعزاء عن الخنوع لشهوات الأمراء وجبروتهم حتى ألجأتهم حروب قرطاجنة مع رومة إلى تجشم مرارات النظام الدولي. أيقظتهم تلك الحروب إلى ان من الأمم ما لها مطامع في إستعباد غيرها. فضخموا ملكهم ووحدوا إمارتهم كي يحفظوا وطنهم من عاديات عشاق الزعامة العامة والسيادة السامة. وكان منهم اذ ذاك ملوك سنأتي ـ ان شاء الله ـ فيما بعد على تفصيل حياتهم وبيان أعمالهم الجليلة بقدر ماتسمح به المادة التي بأيدينا.

لغة البربر وكتابتهم:

البربر يسمون لغتهم «**تماشغت**» ولهم لهجات مختلفة. ففي ابن خلدون: ان زناتة منهم لها رطانة خاصة بها. ونرى اليوم فرقا بين لغة زواوه إحدى بطون ضريسة، ولغة مصاب (**مزاب**) من زناتة وغيرهم. أما أصلها فهو تابع لأصل الناطقين بها ويقول بيروني: أنها غريبة مجهولة الأصل، كما أن البربري نفسه مجهول النسب.

والصواب خلاف مايقول فقد قدمنا ماعليه محققوا المؤرخين من ان البربر جنس حامي. ووطنهم الثاني (**ليبية**) ساكنهم به طوائف من أمم مختلفة. واذن فاللغة البربرية حامية الأصل مشوبة بعدة ألفاظ من الفينيقية وغيرها من لغات الأمم التي جاورتهم أو إستولت عليهم.

والبربرية تخالف اللغات السامية في أنها يسوغ فيها الابتداء بالساكن واجتماع الساكنين فأكثر وتقديم المضاف اليه على المضاف. وتوجد فيها كلمات مركبة تركيبا مزجيا وليست إعلاما. وقد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا. ولاكذلك اللغات السامية.

يقول رين: ان اللغة العربية واللغة الفرنسية استعارتا ألفاظا من البربرية. وسرد تلك الألفاظ التي يدّعى إصالتها في البربرية. وهو ان كان يريد ذلك في العصور الأخيرة فلا منازعة، وان كان يدعي ذلك في القديم فلا أنازعه في ذلك بالنسبة إلى اللغة الفرنسية فقد يساعده التاريخ على ذلك لان بربر نوميديا مكثوا مع حنبعل القرطاجني سنين بالغاليا وغيرها

من جنوب أوروبا، واختلطوا بهم في جيش قرطاجنة أيضا واللغات اذ ذاك ضيقة تحتاج إلى النقل فلا يبعد ان يكون قدماء فرنسا أخذوا من البربرية.

أما العربية فبعيدة جدا عن البربرية. ولا يعلم في التاريخ وقوع اختلاط بين هاتين الأمتين إلا ما كان من غزو افريقش لليبية[1]. ولكن ذلك لايؤيد دعوى رين لان المغلوب هو الذي ينقل عن الغالب. على ان علماء العربية تكلموا في الدخيل واعتنوا بتمييزه حتى خصه بعضهم بالتأليف. و لم يذكروا منه كلمة بربرية.

إن من الألفاظ التي ذكرها رين بربرية نقلت إلى العربية ماهو عربي حقيقة. فان كان موجودا في البربرية فهو دخيل فيها بعكس دعواه وتكون تلك الألفاظ موروثة عن قبيلتي كتامة وصنهاجة العربيتين.

كانت اللغة البربرية ـ كغيرها ـ ساذجة بسيطة ثم تطورت مع الزمان وتأثرت بما كان يجاورها من اللغات الراقية: وخصوصا الفينيقية. وكان لها أدبها وبلاغتها والفت بها التآليف العلمية قبل الإسلام وبعده.

وكان للبربر خط خاص بهم، وحروفه تمثل شيئا من أشياء الكون مثل الشمس والهلال والبرق. وتدل على معنى موافق أما لصفة ذلك الشيء مثل السرعة للبرق واما لفائدته مثل الحرارة للشمس.

كان هذا الخط في القديم يتركب من عشرة حروف يسمونها «**تيفيناغ**» ومعنى هذه اللفظة الحروف المترلة من عند الاله، لأنهم كانوا

---

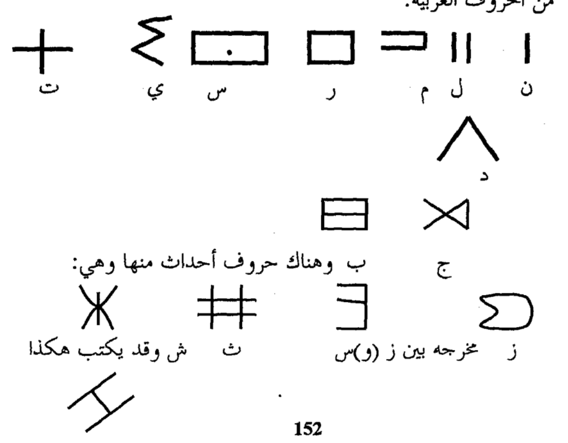
[1] **مما يثبت غزو افريقش لليبية ما ذكره ابو يعلى في كتابه تاريخ الـزواوة (ص22) أنـه رأى في المجلـة الاسيوية أن علماء الاثر اكتشفوا الخط الحميري منقوشا على حجر في بعض قرى افريقية.**

يعتقدون أنها ليست من وضع البشر. ويتركب من خمسة أشكال يسمونها «**تيد باكين**» ومعناه: الدليل على العمل والتوسع. ويتعقدون أنها من وضع البشر.

حروف تيفيناغ هي التي تفيد المعاني، وحروف تيد باكين أما لضبط تلك الحروف أو توكيد معنى حرف منها.

وكانت حروف الأمم قديما مثل الإغريق وللطين عشرة أيضا. وذلك ان الإنسان يخترع على قدر حاجته. وفي بدء عهده بالحياة كانت دائرة أفكاره ضيقة، والمعاني التي يعبر عنها قليلة. فكانت هذه الحروف ـ على قلتها ـ وافية بحاجته.

وهذه صورة حروف تيفيناغ القديمة مفسرة بما يوافقها أو يقاربها من الحروف العربية:



وهذه صورة حروف تيد باكين:

1. هذه الشكلة حركة. والأثر ان تكون فتحة.

2: هذه الشكلة واو مد غالبا.

3: هذه الشكلة تؤكد معنى حرف الجيم.

4: هذه الشكلة لا نظير لها في العربية.

5: هذه الشكلة حرف هجائي وحركة معا. ولا نظير لها في العربية وتوجد غير ما سبق حروف أحداث من تلك تختلف باختلاف القبائل معنى ومخرجا. ومن حروف تيفيناغ ما تصرفوا فيه من بعد، كما أن تلك الأشكال صيروها من بعد كحروف هجائية.

وترتيب الحروف الهجائية في الوضع مجهول لم يهتد اليه الباحثون من طريق النقل، وإنما ظنوا أنها كانت ترتب حسب معانيها.

ويقول رين: المظنون ان اللطينيين أخذوا حروفهم عن البربر لأنهم يسمون حروفهم الهجائية «المنتا» وحروف "ل،م،ن" ،هي الأولى في الحروف البربرية.

وليس للبربر في القديم نظام في الكتابة: يكتبون من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، ومن أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى. ولما جاء العرب أثروا بنظامهم فصاروا يكتبون من اليمين إلى اليسار. وبطول المدة نسي المختلطون بهم الحروف البربرية وصاروا يكتبون لغتهم بحروف عربية. ولم تعش حروفهم إلا بين الملثمين في مجاهل الصحراء فإنهم لم يزالوا يكتبون بها إلى هذا العهد.

المعتقد البربري:

كان قدماء البربر يعتقدون وجود اله يسمونه «**عمون**» ولكن يرون انه ليس له وجود مستقل، وإنما هو روح تحل ببعض الكائنات مثل الشمس والقمر والرعد والبرق وغيرها.

لذلك كانوا يعبدون تلك المظاهر وهي ترجع إلى ثلاثة أصول:

1- **الكواكب**: كانوا يعبدون منها الشمس والقمر. ويمثلون الشمس بقرني الثور. وقد يتخذون لقرصها تمثالا يضعونه على رأس صورة تيس كما دلت على ذلك الآثار.

2- **الحيوانات**: كانوا يعبدون منها الثور وهو في المنـــزلة الأولى من الأهمية، والكبش، وهوفي الدرجة الثانية. ويعبدون سواهما الأفعى والبوم والحمام والطاووس والسلحفاة والضفدع والقرد والهر.

3- **الروحانيات**: كانوا يعتقدون وجود أرواح كالجن في بعض العناصر الطبيعية كالعيون والأحجار والأشجار فيعبدونها ويتوسلون بها إلى نيل ماعجزت عنهم قواهم البشرية.

قال البكري في خاتمة كتابه المغرب: «**وبنو ورسيفان من البربر إذا أرادوا الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ. وهي عندهم الشياطين ـ ويقولون: هذا ذبح للشماريخ. ويفتحون أوعيتهم في تلك الليلة من الطعام والعلف. فلا يكون لها وكاء ولا سداد. ويقولون: هذا طعام وعلف للشماريخ، فإذا غدوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع**

الريح. فيقولون قد جاءت الشماريخ أولياؤكم لنصرتكم. فيحملون عند ذلك. فينتصرون بزعمهم ويقولون: أن ذلك لايخطيهم»[1].

ونظير ماذكره البكري ما هو موجود اليوم من ان الناس إذا عز عليهم المطر في فصلي الربيع والخريف لم يستسقوا الاستسقاء الشرعي بل يتقربون بذبح البقر أو غيره من الأنعام لقبر من القبور التي يعتقدون صلاح صاحبها بالسماع من أسلافهم العوام، ويطعمون الطعام. ويسمون ذلك «**زردة سيدي فلان**....» فإذا أغاثهم الله بالمطر نسبوا ذلك لبركة ذلك السيد وانه رضي عنهم. وكثير من عقائد الأقدمين الوثنيين لم تزل رائجة بين الجهال البسطاء وعوام المتعلمين. وإنما صبغت بلون آخر.

إن عبادة الكواكب والحيوانات والروحانيات أمر شائع بين الأمم المتقدمة، وقدر مشترك بين الوثنين، وإنما يختلفون في تفاصيل المعبودات وكيفيات العبادات.

ونحن نجهل ـ لفقدان المصادر التاريخية ـ نظام ديانة البربر وشعائر عبادتهم على وجه التفصيل. ولكن من المحقق أنهم كانوا ـ كغيرهم ـ يتقربون إلى آلهتهم بإلقاء أنفسهم في النار.

والوطن البربري ـ كما قدمنا ـ معمور بأمم مختلفة ولغته مزيجة من لهجات. فديانته كذلك مركبة من عدة ديانات: ومنها مايشبه ديانة قدماء المصريين. ومنها ماأخذوه عن الفينيقيين ومنها ما نقلوه عن الرومان

---

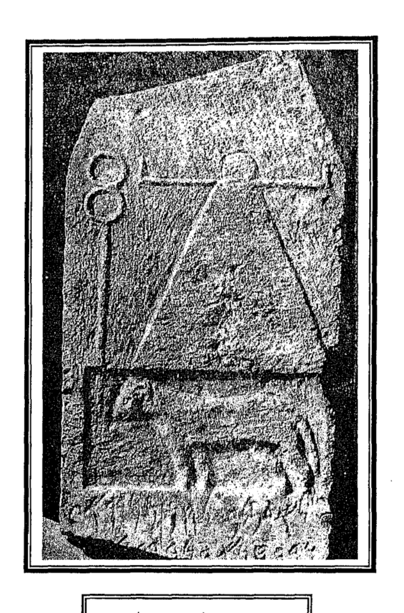
[1] المغرب ص**188-189**.

وكلها ديانات وثنية. وكانت بينهم طائفة إسرائيلية غير وثنية. ولكن نظام معابدها ـ كما قدمنا ـ مخالف لنظام يهود المشرق.

ومع انفعال البربر بديانات الأمم المجاورة لهم فهم يحافظون على روح عقائدهم الأولى ولا يرفضون منها إلا قليلا. ولا يعرف التاريخ دينا غيرَّ العقائد وابتعد بها عن الوثنية واعتمد على العقل مثل الدين الإسلامي ومع ذلك لم يطهر البربر من كل ما كانوا عليه. ولكن مادامت مصادر الدين باقية ومنابعه صافية فليس الذنب ذنب العامة، بل الوزر كل الوزر على كاهل العلماء الجبناء والمدعين للصلاح من الجهلاء.



افريقية



الحفرة (قسنطينة)

الـــبـاب الرابـع

في ذكر الفينيقيين

تمهيد:

الفينيقيون قوم منسوبون إلى وطنهم فينيقيا، وهي قطعة من الشام ضيقة مستطيلة على سيف البحر، يفصلها عن بقية الشام جبل لبنان. وهم أمة قليلة جدا ولكنها عملت في التاريخ القديم أعمالا جليلة جدا.

كانوا بطبيعة وطنهم بحريين تجاريين، فربطوا بين الأمم القديمة مواصلات ونشروا بذلك حضارات. وهم أول أمة أجنبية دخلت مصر جاؤوها قبل اليونان وكانت لهم حارة معروفة باسمهم في مدينة **منفيس**[1] قاعدة الأسر العشر الأولى من الفراعنة. وعقدوا مع أولئك الفراعنة اتفاقا تجاريا يسمح لهم بنقل البضائع من مصر للاتجار بها في جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه ليبية واسبانيا. فأصبحوا يشقون بمراكبهم هذا البحر وينقلون إلى من حوله حضارات المشرق وهم أول من أنقذ الأمم الأوروبية من الهمجية.

---

[1] سماها البكري منفيش بالشين.

كانت لهم بفينيقيا مراس عظيمة إشتهرت بالبحرية والتجارة منها عراد وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور. وأسسوا باسبانيا وليبية مراكز صارت تعظم كلما نقص عمران مدن فينيقيا بمزاحمة الأمم لهم هنالك ومحاربة الملوك إياهم.

وجد الفينيقيون بليبية ضالتهم المنشودة من البحرية والتجارة والاشتغال بوسائل العمران في سلم وأمن. فظلوا على ذلك حتى دخلوا مع اليونان في الحرب على صقلية، ثم الرومان بصيقلية وافريقية. وانتهت تلك الحروب المشؤومة بتخريب عاصمتهم قرطاجنة وذهاب ملكهم وتلاشي أمتهم. فذابوا في غيرهم وعفا رسمهم ولم يبق منهم إلا اسمهم وجلائل أعمالهم التي كلها حسنات للبشرية عامة وللبربر خاصة، وليس بهم من عيب سوى عفتهم عن الدماء وبعد طبيعتهم عن الحروب.

أصل الفينيقيين:

الفينيقيون أمة سامية من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح **عليه السلام**.

كانوا ـ كبقية الكنعانيين ـ بجزيرة العرب على الخليج الفارسي وانتقلوا إلى الشام مع أخوانهم من كنعان واختصوا بفينيقيا وصار الشام يقال له ارض كنعان.

قال ابن خلدون: ومؤرخو بني إسرائيل يقولون ان الكنعانيين الذين كانوا بالشام هم من كنعان بن حام وان العمالقة من ولد العيص ابن

إسحاق ابن ابراهيم (ص) وقال في سياق أبناء حام: ومنهم كنعان باتفاق.

فيستفاد منه ان كنعان الذي ينسبه العرب إلى عمليق غير كنعان ابن حام؟ وان الخلاف بين مؤرخي العرب والاسرائليين إنما هو في نسب كنعانيي الشام: هل هم من كنعان بن عمليق أم من كنعان ابن حام؟ ويظهر من كلامه في موضع آخر أنه يؤيد قول مؤرخي بني إسرائيل حيث قال في الكلام على أبناء كنعان بن حام: إن منه أمة كانت بالشام **«وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع إلى افريقية فاقاموابها»** ومنه أمة كانت ببيت المقدس **«وهربوا أمام داوود عليه السلام حين غلبهم عليه إلى افريقية والمغرب وأقاموا بها والظاهر ان البربر من هؤلاء المنتقلين أولا وآخرا. إلا ان المحققين من نسابتهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان، فلعل مازيغ يتنسب إلى هؤلاء»**[1].

وإذا أيد ابن خلدون قول مؤرخي بني إسرائيل في كنعانيي الشام فان الفينيقيين ليسوا منهم بل هم ساميون من غير نزاع. غير ان ما استظهره من انتساب البربر إلى تينك القبيلتين ليس بظاهر وقد مر في الباب الثاني (3،2) مايغني عن التعرض هنا لبطلان استظهاره.

والخلاصة أن الفينيقيين أخوان العرب في نسبهم وجيرانهم الأقدمين في وطنهم.

---

[1] ج2 ص12.

الفينيقيون بالجزائر:

الفينيقيون أمة تجارية لاشأن لها بالحروب. وقد كانوا أيام ازدهار مدينة صيدا متوجهين في تجارتهم إلى المشرق، واستعمروا فيه ـ استعمارا تجاريا ـ جزيرة قبرص وجزر بحر هيجاي. وخاضوا البحر الأسود وبلغوا القفقاس.

وفي القرن الثالث عشر (ق.م) سقطت مدينة صيدا بهجوم **الفلستينيين**[1] عليها لغنم ثروتها. فورثتها مدينة صور في سعة العمران وعظمة التجارة. وزاحم اليونان الفينيقيين في المشرق فالتفتوا إلى البحر الأبيض والمغرب بسفنهم التجارية وأسسوا بجزره مراكز تجارية بصقلية ومالطة وسردانيا والجزائر الشرقية[2] وبلغوا اسبانيا وأسسوا بها مدينة قادس.

صار الفينيقيون يترددون ببضائعهم بين الشام والأندلس. يقطعون مضيق جبل طارق مقتربين من سواحل ليبية حتى إذا بلغوا صقلية ابعدوا عن الساحل الإفريقي.

وكانت تجارتهم مع الليبيين مقايضة: يأخذون منهم الأنعام والأصواف والجلود وريش النعام والعاج ويدفعون لهم عوض ذلك أقمشة مصبوغة بالحمرة وأسلحة وخمرا وأواني من الزجاج والطين.

---

[1] غير الفلسطينيين. والظاهر أنهم من فلشتين الذين ذكرهم ابن خلدون في أبناء حام.

[2] ثلاث جزر شرق الأندلس وهن ميورقة، مينورقة، يابسة.

وللإتجار مع الليبيين أسسوا بسواحلهم مراكز يستريحون بها من عناء السفر ويتزودون منها ويصلحون سفنهم. وقد راعوا في موقع مراكزهم أمرين: الامتناع ممن يريدهم بسوء، والتمكن من نقل بضائعهم بسهولة. فنزلوا لذلك الجزر القريبة من الساحل الليبي، والربى الساحلية، وما قرب من مصب الأودية في البحر.

ومن هذه المراكز حضر موت (**سوسة**)، عويتقة (**بو شاطر**). وهما بايالة تونس، ومنها هبون (**بونة**)، احلجي (**جيجل**)، صلداي (**بجاية**)، وهذه بالوطن الجزائري. ومن المراكز المنسوبة لهم أيضا عوزية ويقولون أنها سور الغزلان وقد غلط اغسال القائلين بذلك مستندا إلى أنها في دواخل الوطن الجزائري، ولم يعرف في التاريخ بلوغ الفينيقيين إلى تلك النواحي.

وعليه فان صح ان عوزية هي سور الغزلان فهي من مؤسسات البربر وإن صحت نسبتها للفينيقيين لم تكن هي سور الغزلان بل مدينة أخرى على السواحل لاندري مكانها.

ويقال أن مؤسسات الفينيقيين بالساحل الليبي بلغت ثلاثمائة مركز. وهو إحصاء قريب من المعقول لأن السفن كثيرا ماتحتاج إلى الإصلاح وسيرها بطئ. فأهلها مضطرون إلى الاستراحة والاستعداد للسفر بعد السير الكثير والمسافة القليلة.

وقد يؤسسون مركز ثم يبدو لهم ماهو أوفق منه فينتقلون اليه. وبذلك تتقارب المراكز وتكثر.

وقد تحول بعض هذه المراكز من بعد إلى مدن ذات فحوص واسعة أو ضيقة. وكثير منها سقط وعفا رسمه.

قال اغسال: «**وليس بين دفتي التاريخ ما يرشدنا إلى تعيين الوقت الذي وجدت فيه تلك المؤسسات بالضبط. والظاهر أنها كانت قبل انتهاء القرن الثاني عشر (ق .م)**».

تأسيس قرطاجنة:

كانت صور (**العاصمة الثانية للفينيقيين**) بلغت مبلغا عظيما من العمران. وكان بها على عهد داوود وسليمان عليهما السلام ملك يدعى حيرام. سالم هذا الملك الملكين النبيين، وحسّن علاقاته معهما. وبعد وفاته تأسس بها حزب من عملة الشعب وأصبح يشاغب طبقة الأعيان حتى تغلب عليهم ففروا إلى ليبية وأسسوا بها مدينة قرطاجنة.

وبعد أمد قليل من تأسيسها بلغت من العظمة والقوة إن صارت تهدد صور نفسها وأصبحت هي الحامية للفينيقيين بليبية وصقلية واسبانيا. وكان اليونان قد أخذوا عن الفينيقيين التمدن فانقلبوا عليهم وقادوهم في التجارة حتى اخرجوا من بحر إيجه، وهددوا مراكزهم بالمغرب فلما تأسست قرطاجنة ثأرت منهم وطردتهم من المغرب.

أسست قرطاجنة على الخليج التونسي قريبا من البحر بحيث تصيب سورها أمواجه. ولحسن موقعها حازت السيادة التجارية، فأمها الفينيقيون

من الشام، والبربر جيرانها الأقربون، وغيرهم من الأمم، فاستبحر عمرانها وكثرت مبانيها وسكانها، واختلف في تقدير عدد السكان من **(130000)** إلى **(700000)** وبلغت أوج عزها في القرن الرابع إلى أواخر الثالث **(ق.م)** ومتوسط سكانها اذ ذاك نحو **(300000)**.

أصبحت قرطاجنة عاصمة الفينيقيين ومعقل عزهم وحصن سعادتهم ثم كانت مقبرة عظمتهم ومدفن مجدهم بما جرته عليها حروبها مع الجمهورية الرومانية التي انتهت بتخريبها سنة **(146)** ق.م.

يقال: أن اسم قرطاجنة بالفينيقية «**قرت حدشت**» ومعنى هذا العلم: القرية الحديثة.

أما تاريخ تأسيسها وتعيين مؤسسها فقضية كثر حولها الخلاف واضطربت فيها الروايات، ذكر البكري: «**إن الذي بني قرطاجنة ديدون الملك زمن داوود عليه السلام**»[1] وعليه يكون مؤسسها رجلا وتأسيسها في القرن الحادي عشر (ق.م) لأن داوود كان بين سنتي **(1055 – 1014)** وفي ابن خلدون ـ نقلا عن المؤرخ الروماني هروشيوش ـ: ان بناءها كان على يد ديدن بن أليثا، وأنه من نسل عيصو بن أسحا. ومن المؤرخين من يقول أسسها الطبقة العليا من الفينيقيين.

---

[1] المغرب ص**41**.

وأكثرهم على أن التأسيس كان سنة (**814**) وقيل سنة (**813**) وقيل سنة (**880**)، على أن المؤسس امرأة تدعى «**عليسة ديدون**» وعليسة علمها الشخصي، وديدون وصف لها معناه الفارة.

وسياقة خبرها: أنها من بيت ملك وتزوجت بكاهن مشهور، ولها أخ. ولما توفي أبوهما ورثا ملكه. فعدا أخوها على زوجها وقتله طمعا في كنوزه النفيسة وأمواله الطائلة. ولكن عليسة احتفظت بأموال زوجها وفرت بها إلى ليبية فاشترت من البربر مكان قرطاجنة وأسستها.

ممتلكات قرطاجنة بالجزائر:

عرفت أن الفينيقيين أمة تجارية بحرية، فلم يحملها على دخول المغرب الطمع في انتزاعه من يد أهله والاستبداد عليهم في وطنهم. ولذلك لم تملك منه غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها. وأسست بها مدنا لترويج بضائعها بين الأهالي. وأقامت حينا من الدهر جارة للبربر تستخدمهم في مدنها بأجور يرضونها. وتستألف أمراءهم بالأموال خوفا من غاراتهم.

ولما تأسست قرطاجنة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري قطعة استوطنها ودخل أهلها تحت طاعتهم. وأطلق على هذا القسم اسم «**ليبيا فينيقيا**» وعرف الفينيقيون الذين به باسم البونيقيين.

ومن مدن الفينيقيين بالساحل الجزائري: **هبون** (بونة)، **روسفاد** (السكيكدة)، **شولو** (القل)، **اجلجلي** (جيجل)، **صلداي** (بجاية)

روسوقورو (تاقبت أو دلس أو تقزيزن)، رسجونيا (مطيفو)، اقسيوم (الجزائر)، تباسا، يول (شرشال)، صيغة (ارشقول على الظاهر).

و لم يتجاوز البونيقيون السواحل إلى دواخل الجزائر إلا في الجهة الشرقية حيث كانت نوميديا الشرقية تحت حمايتهم ـ باشرف معنى الحماية ـ ومن مدن هذا القسم:

تغاست ـ Thagaste (سوق أهراس) **مدوروس ـMadoure ـ (مداوروش)، تيفيست ـ Thèvesté ـ «تبسة».**

ولهذا القسم الداخل تحت إشراف قرطاجنة حدود تفصله عن ليبيا فينيقيا وتلك الحدود خنادق تعرف بالخنادق الفينيقية.

وبلغت حماية قرطاجنة في الشمال الشرقي لنوميديا إلى رأس بوقرعون «**ناحية القل**» وجهة ميلة. ومن المحقق إن قرطاجنة لم تدخل تبسة «**بالجنوب الشرقي النوميدي**» إلا سنة **250** (ق.م) و لم تبق بها إلا خمسين سنة.

وبما إن الحماية القرطاجنية لم تكن مصحوبة باحتلال عسكري يفرض على المحتمين طاعة الحامي، ويعمل لا لحاقهم بمستعمراته ـ استطاع النوميديون طرد البونيقيين بعدا من وطنهم والتمتع بالاستقلال والتنفس في هواء غير مشوب بجراثيم السيادة الأجنبية.

ولا يعلم تاريخ زوال السيادة القرطاجينية عن نوميديا بالضبط. ولكن من المحقق ان مدوروس كانت أواخر القرن الثالث (ق.م) تحت

تصرف صفاقس البربري. ومنذ سنة (**149**) ق.م لم تبق لقرطاجنة يد على نوميديا وجميع السواحل والشواطئ الجزائرية. ودخلت المدن الفينيقية بتلك الجهات في حوزة ملوك البربر وبقي لها إسمها الفينيقي إلى أن خربت.

وهذا خلاف ما نراه في عصر المدنية الغربية من تغيير دولها لاسم بعض المدن التي استولت عليها، وإبداله باسم عظيم من عظمائها قد يكون لم يدخل تلك المدينة المنسوبة اليه أو لم يسمع بها فضلا عن ان يعمل بها عملا يبرر نسبتها اليه. أما تسمية الانهج والشوارع بهذا الوجه من التسمية فمن المألوف الذي ينبو الذهن عند مشاهدته عن التفكير في وجه المناسبة بين الاسم والمسمى. وهكذا يفعل الذين يحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا.

اللغة الفينيقية وخطها:

سترى في الباب التالي تأثير الفينيقيين على البربر في اللغة فمن المناسب أن نقدم هاهنا البحث عنها:

الفينبقيون أمة سامية، فلغتهم كذلك سامية، أخت العربية والعبرانية وبما أنهم تجاريون لم تكن لغتهم لغة أدب وإنما كانت لغة علم.

ولما انتقل الفينيقيون إلى ليبية دخلت لغتهم مفردات من اللغة الليبية فازدادت ثروة، ولكنها تغيرت ـ طبعا ـ عن أصلها فلقبت بالبونيقية.

وقد اضمحل الفينيقيون من بعدهم لغتهم. وما بقي منها باللسان البربري دخلت عليه العربية من بعد فتعذر تمييزه.

ولكون هذه الأمة تجارية يلزمها ان تتعلم الكتابة والحساب فتعلمت عن السريانيين الحساب وأخذت عن المصريين حروف الهجاء واستعملتها في لغتها بعدما هذبتها وقربتها للفهم.

كانت الحروف المصرية فيها صعوبة من حيث ان منها ما يدل على كلمة، ومنها مايدل على جزء كلمة، ومنها مايدل على حرف واحد. وفيها حروف مختلفة المعنى متحدة المخرج. فأزال الفينيقيون منها تلك الصعوبة وصيروها بسيطة سهلة التناول.

اختار الفينيقيون من الحروف المصرية اثنين وعشرين حرفاً لكل حرف مخرج. ثم قلدهم فيها الإغريق فمن بعدهم من الأمم. وقسموها إلى حروف هجائية وأشكال الضبط.

ولما دخل هذا الخط ليبية مع أصحابه ووجد أمامه الخط الليبي تأثر به وتغير عن أصله فسمي الخط البونيقي.

وقد ألف بهذا الخط وتلك اللغة تأليفا في الملاحة والفلاحة والأسفار منها رحلة حانون الذي إرتحل حول إفريقية وبلغ شواطئ غينيا ومنها رحلة عملاقون الذي بلغ سواحل إنكلترا، ومنها كتاب ماغون في الفلاحة الذي أخذه اليونان والرومان إلى لغتهم وإعتمدوه خصوصا في تنمية النباتات بإفريقية.

وللبونيقيين غير هذه الكتب بلغتهم وخطهم ضاعت بضياع ملكهم. ولم يبق منها إلا نتف مترجمة ومبعثرة في كتب اللطينيين وأكثرها ضاع في حريق قرطاجنة، فضاع بذلك على الباحث الخط البونيقي واللغة البونيقية معا. وتلك عاقبة ذهاب مميزات هذه الأمة ومشخصات وجودها.

الديانة الفينيقية:

كان الفينيون وثنيين يعبدون الشمس والقمر. الشمس يتخذون لها تمثالا يدعى «**بعلا**» والقمر يتخذون له تمثالا يسمونه «**أستارتي**» أو «**بعليت**» (**مؤنث بعل**). وكانوا يقيمون لهذين الآلهين تماثلين بكل مدينة من مدنهم.

والشمس عندهم اله السماء والأرض، يرونه غضوبا شد يد الانتقام فيتوسلون لرضاه بتقريب القرابيين له. وقد تكون تلك القرابين أناسي وأكثر ما تكون من أبناء الملوك وسراة الأمة.

يحضرون القربان البشري أمام التمثال ومعهم آلات الطرب يغنون عليها، ثم يلقونه في النار المقدسة التي تجعل لذلك التمثال، وقد تكون أم هذا القربان حاضرة تنظر إليه من غير جزع يلحقها.

والاله يمثلونه تارة بثور وأخرى برجل، وأخرى برجل رأسه رأس ثور.

والقمر لديهم اله الحب والجمال، يتصرف في كل ما يحدث و ما يفنى ولذلك يعبدونه تارة بالفرح وأخرى بالحزن. وكانوا يمثلون القمر بصورة امرأة بيدها حمامة وعلى رأسها من شعرها صورة هلال.

ولهم غير هذين الالهين آلهة أخرى ولها شبه قوي بآلهة الكلدان.

وقد أخذوا عن غيرهم في الديانة. ولما نزلوا ليبية تأثروا بعقائد البربر. وأخذوا الههم «**عمون**» وسموه بعلهمون وعبدوه حسب تقاليدهم، وصنعوا له تماثيل أخرى.



رسم الاله بعل همون

وكانت لهم أعياد يحتفلون فيها بآلهتهم، ويقربون لها القرابين من البشر البقر والغنم والديكة ومما يتقربون به أيضا الصيام.

وإذا كان البربر أثروا على الفينيقيين في المعتقد فإن هؤلاء اثروا عليهم في ذلك أيضا، وسترى ذلك في الباب التالي إن شاء الله.

ونحن نرى للعامة اليوم عقائد لها شبه ببعض عقائد البونيقيين ولكن يبعد ان تكون موروثة عنهم لقدم العهد جدا ووجود الدين الإسلامي. وإنما الجهل بأصول الدين يجر في كل عصر إلى التّمسك بأوهام وخيالات قد تتشابه مع تباعد الإعصار. وإذا كان مرجع الديانة إلى الخيالات كانت من قبيل الشعر، والشعر ـ كما قيل ـ ميدان والشعراء فرسان فقد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر.

نظام الدولة القرطاجينية:

الدولة بنظامها الإداري والسياسي، فقوتها وضعفها وقدرتها وعجزها على حسب ذلك النظام ودرجة أحكامه وإتقانه.

و لم يكن للفينيقيين بفينيقيا دولة تجمع تحتها مدنهم وتتخذ من بينها جيشا حربيا تهاجم به الضعفة أو تدافع به الأعداء. بل كانت مدنهم هنالك مستقلّة بعضها عن البعض يحكم تلك المدن رؤساء يعرفون بالأشفاط (**القضاة**).

ولما تأسست قرطاجنة قامت بها دولة عظيمة ذات دستور، إن لم يكن أحسن دساتير ذلك العصر فهو من أحسنها. ناهيك ان أرسطو

الفيلسوف اليوناني واضع علم المنطق أعجب به وأثنى عليه. وقد أدرك هذا الفيلسوف قرطاجنة في أيام عظمتها إذ كان في القرن الرابع (ق.م).

لم تكن قرطاجنة شاذة عن الدول المعاصرة لها في تقسيم الأمّة إلى طبقتين السراة والسوقة. بل كانت مثلها في ذلك واشتهر بها من طبقة السراة أسرتان: الماغونيون والحنونيون، ومن طبقة السوقة البرقيون.

1- **شكل الحكومة:** كانت حكومة قرطاجنة جمهورية على رأسها أسرتان تدير إحداهما الجندية وسائر الشؤون الحربية، وتقوم الأخرى والعمل والاقتصاد وسائر وجود العمران.

وللحكومة مجلسان: إحداهما مجلس القدماء أو الشيوخ به **(28)** عضوا منتخبا من طرف الأمة. ويشترط في عضو هذا المجلس أن يكون من الأسر الأصلية في البونيقية. فهو متركب من الأعيان ويؤازره أرباب رؤوس للأموال وأصحاب التجارة والصناعة والفلاحة.

وهو مجلس ارستقراطي[1] يؤيد نفوذ الطبقة العليا من الأمة على الصعاليك منها ومتوسطي الحال.

ثانيهما مجلس السوقة: يتألف من صغار الماليين تجارهم ومزارعيهم ومن العملة وأصحاب الحرف، ونفوذه ضعيف. وقد يكون وجوده صوريا. فان الحكومات الارستوقراطية لاتنظر إلى أفراد الشعب الذين قعدت بهم قلة ذات اليد عن الظهور في مظهر النعمة والترف إلا بعين

---

[1] يقال دولة ارستقراطية، وهي مركبة من كلمتين: قراطية معناها حكومة، وارست معناها النبلاء، معنى ارستقراطية حكومة النبلاء.

الاستخفاف، ولاتراهم إلا آلة مسخرة لقضاء مصالح المترفين وتوفير سعادتهم. فوجود العملة ومن في درجتهم ـ عندها ـ ليس وجودا مستقلا وإنما هو تكميل لوجود الأعيان والمثرين.

وإلى ذينك المجلسين مجلس القضاء يدعى «**مجلس المائة والأربعة**» وقضاته من الأشراف. ويعبر عنهم «**الاشفاط**» ـ وهي قريبة من الأسباط ـ وقوتهم التنفيذية مستمدة من ذينك المجلسين.

2- الجيش: اتخذت قرطاجنة جيشا ولكن لم تقصد به استعباد المستضعفين وترويع الآمنين والاستحواذ على ثروة أراضي الجانين على المدينة بكونهم عزلا من الصواعق المحرقة. بل كان قصدها هو حفظ حريتها التجارية. لأنها امة كان شغلها ركوب متون البحار لترويج البضائع وربط الصلات بين الأمم شرقا وغربا ونقل حضارات بعضها إلى بعض. وقد عارضها في سبيلها تلاميذها من اليونان والرومان. وأرادوا صدها عن وجهتها بالقوة العسكرية. فاضطرت إلى اتخاذ جيش لحماية تجارتها. فهو جيش لحفظ الحرية لالسلبها وجبر الضعيف على الرضا بالعبودية.

لم يتجاوز جيش قرطاجنة خمسين ألفا أكثرها من البربر والاسبان ويمدها زيادة على ذلك أيام الحرب بجنود كثيرة امراء البربر الذين تربطهم بها معاهدات.

وينقسم هذا الجيش إلى ثلاثة أقسام:

1- الجنود القرطاجنية وهم قليلون وغير حربيين.

2- الجنود المرتزقة: وهم من أمم مختلفة. من اسبانيا مشاة، ومن الجزائر الشرقية رماة، ومن الغاليا والكورص وايطاليا وصقلية.

3- الجنود الليبية والنوميدية. والأولون مشاة مجبورون على التجنيد. لان ليبية[1] وطنهم كانت في قبضة قرطاجنة وتحت نفوذها الفعلي. والاخيرون فرسان متطوعون. لان وطنهم نوميديا لم يكن تحت سيطرة قرطاجنة.

وكلا الجندين الليبي والنوميدي صبار على الشدائد شجاع مقدام له سلاح خفيف: نبل وخنجر وترس من جلد. وليس له سيف ولا مغفر ولادرع.

وهذا القسم الثالث هو الذي كون تاريخ قرطاجنة الحربي. خصوصا الجند النوميدي. فلولاه ما ذاقت قرطاجنة لذة الفوز والانتصار، ولا هدد حنبعل رومة ورام فتحها.

لذلك كان للنوميديين ميزة لم تكن لبقية الجيش القرطاجني. وكانوا لايسمحون لها بالتقصير في حقوقهم. وقد ثاروا عليها مرارا لعجزها عن أدء واجباتهم.

كان للجيش القرطاجيني رؤساء وقوادا من أسرة البرقيين. واشتهر منهم عدة قواد باسم هملقار. ومنهم حنبعل وصدر بعل وغيرهم ممن خلدت ذكرهم حروب صقلية والحروب البونيقية.

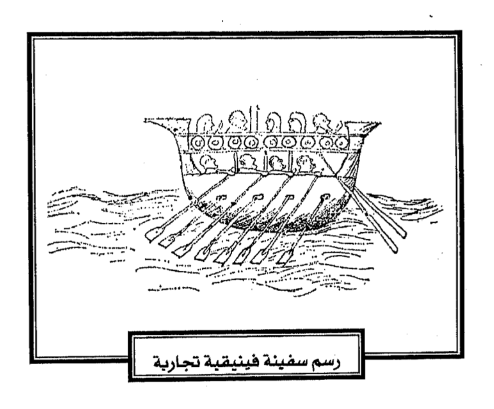
---

[1] كانت ليبية تطلق على شمال افريقية. وبعد مجيء الفينيقيين اختصت بما يلي نوميديا شرق. وليس المـراد ليبية المعروفة اليوم جنوب طرابلس.

3- **الأسطول**: كان لقرطاجنة أسطول لاتضاهيه أساطيل الدول الأخرى. والبحرية هي العمل الخاص للفينيقيين. وقد دامت لهم السيادة البحرية من غير منازع أمدا طويلا.

كانت سفنهم فلكا كبيرة. وفي كل جانب منها مقاذيف. وإذا ساعدتهم الرياح استعانوا بالشراع .

وسفنهم نوعان: تجارية وحربية. أما التجارية فحيزومها مستدير.



رسم سفينة فينيقية تجارية

وقد خاضوا بها قبل قرطاجنة وبعدها عباب البحر الأبيض على طوله، والبحر الأسود حتى بلغوا القفقاس، والمحيط الاطلانتيكي حتى بلغوا انكلترا من جهة وأغادير من أخرى.

كانوا يعبدون السير وليس لهم بوصلة لعدم اختراعها اذ ذاك. فكانوا يهتدون في سريهم ليلا بنجمة القطب الشمالي. وأكثر مسيرهم بالنهار: لايبعدون عن الشاطئ. فإذا أمسى المساء استكنوا بخليج. وقد يترلون إلى البر ويسحبون مراكبهم في الرمل. فإذا أصبح الصباح استأنفوا سيرهم محاذين للشاطئ.

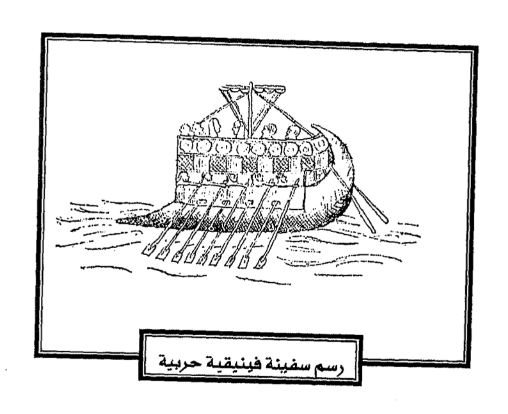
وكانوا يحملون في سفراهم إلى كل أمة البضائع التي تروج بها. يستبدلونها بما لتلك الأمة من البضائع. ويتنقلون على هذه الصفة من وطن إلى آخر. حتى إنهم أحيانا لايرجعون إلى وطنهم الابعد سنين.

وقد كان البحر الأبيض المتوسط تحت نفوذ قرطاجنة. وأسست على شواطئه المراسي من خليج طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلانتيقي غربا. وكان لها على هذا المحيط مراس أيضا إلى قرب أغادير.

وأما المراكب الحربية فهي معقربة الصدر. وكان لقرطاجنة قبل استفحال أمرها سفن ضعيفة من نوع السفينة ذات الخمسين مقذافا. ثم أخذت تترقى في سلم العظمة حتى بلغ أسطولها مائة سفينة. فيها من العملة أربعة وعشرون ألفا غير من يحمل السلاح.

وقد كانت السفن الحربية على أنواع: سفن ذات ثلاثة صفوف من المقاذيف، وذات أربعة صفوف، وذات خمسة.

وهذه الأنواع الثلاثة كثيرة. وهناك أنواع ثلاثة أخرى قليلة الاستعمال. وهي ذوات (6،7،9).


رسم سفينة فينيقية حربية

وجعلت قرطاجنة لصناعة السفن دورا يعمل فيها عملة من المحتلين والمحتمين.

العمل القرطاجني في العمران والحضارة:

علمت أن الفينيقيين أمة كثيرة الأسفار في البرور والبحار لكسب الثروة بالاتجار... فلم تكن لها حضارة خاصة بها. ولكن إليها يرجع الفضل في نقل حضارات الأمم بعضها إلى بعض بما تروجه بينها من البضائع المختلفة.

آثارهم تدل على تقليدهم للمصريين في بناء البيوت وحفر القبور. فان قبور الفينيقيين وجدت بالجبال مثل قبور قدماء المصريين. وبيوتهم

مبنية بالحجارة، ولها سوار تتصل بالسقف من غير قوس، وخطوط أساساتها مستقيمة.

وأكثر أعمال الفينيقيين في التجارة والفلاحة وبعض الصناعات. وكانوا إذا نزلوا أرضا عرفوا فوائدها الخاصة فاعتنوا باستثمارها. وأرض ليبية أرض فلاحة فاعتنوا فيها بالفلاحة علاوة على التجارة والبحرية.

وقد جعلت قرطاجنة في نظام دولتها أسرتين: أحداهما للحرب والأخرى للعمل. وكانت أسرة العمل هي أسرة ماغون.

ماغون مؤسس هذه الأسرة كان بين سنتي **550–500 (ق.م)** وألف كتابا حافلا في الفلاحة. تكلم فيه على الفلاحة وتربية الحيوان من خيل وبغال وبقر وحمام ودجاج ونحل وغير ذلك.

ولأهمية هذا الكتاب لم تستغن عنه رومة رغم عداوتها البونيقيين وتخريبها لقرطاجنة. فاهتم شيوخ رومة به واستدعوا له مترجمين ترجموه إلى اللطينية.

ومن حكمهم الفلاحية: «**يجب ان تكون الأرض اضعف من الفلاح. لأنه إذا أراد ان يقاومها فتغلبت عليه حطمته**».

وقد اتخذوا للدراس آلة وعمموا نشر الحبوب المعروفة بالوطن البربري وجلبوا له بذورا أخرى مثل الكتان لم تكن معروفة به من قبل.

وكان بليبية **(بالمعنى العام)** أشجار ذات ثمار إلى أنها طبيعية. فاعتنى البونيقيون بغراستها وجلبوا ضروبا أخرى من الأشجار منها النخيل والتين والزيتون والرمان والجوز واللوز والكرم.

وزرعوا البقول والخضر حوالي المدن. وعصروا الزيتون والخمور وهم أول من روج الخمر بين البربر. وأول من أفادهم الغراسة.

ازدهى الوطن على عهدهم. بحقول الحبوب والخضر وجنات النخيل والأعناب وبساتين التين والزيتون وضروب الفواكه.

وقد شارك في هذه الأعمال العمرانية كل الطبقات البونيقية: أرباب الأموال الواسعة يقتطعون الأراضي الشاسعة ويبنون بها القصور وليقضوا بها بعض فصول العام. وصغار الفلاحين يشتغلون بما حوالي المدن من الأراضي الصالحة فيعمرونها على نسبة مقدرتهم المالية.

وسوى عناية القرطاجنيين بالفلاحة وتربية المواشي كانوا يعتنون باستخراج المعادن من حديد ونحاس ورصاص وغيرها. ويصنعون منها الآلات وضروب الزينة من حلي وأقراط.

وكانوا ينحتون الحجارة النفيسة. واخذوا عن المصريين صناعة الزجاج فاتقنوها وصنعوا منها الأواني الرفيعة ولونوها بألوان قوس قزح.

وكانت لهم يد في الحياكة والصباغة ودباغة الجلود. وكان لهم من الصناعات الدقيقة النقش على الصخور والخشب، ونحت الدمي وغيرها من العاج والعظام. وقطروا العطور. وركبوا الأدوية.

الحروب القرطاجينية:

جاورت قرطاجنة البربر وأحسنت جوارهم بما كانت تنقل إلى وطنهم من حضارات الأمم. وما كانت تنشره بينهم من جهود أبنائها التجارية والفلاحية والصناعية وغيرها. وكان في استطاعتها أن تكون من شمال افريقية دول عظيمة ثابتة الأركان بسلاحي الترغيب والترهيب. كما فعل من بعدها الرومان. وكانت هي أقوى منهم وأقرب. ولكن الجنس السامي ـ وخصوصا الفينيقيين أسمى من أن يكون سفاكا للدماء غدارا بالوعود.

حاولت قرطاجنة ان تتوسع في وطن البربر. ولكن من غير اراقة دماء غزيرة. فتوسعت حيث لم تجد معارضة حربية قوية. واكتفت بربط الصلات حيث وجدت صلابة. وقد رأت من صلابة نوميديا أنها لا تخضع إلا بعد أهوال وحروب طوال. فلم تتعنت في فتحها تعنت الرومان من بعد. واكتفت باستجلاب مودة أهلها كي تستعين بهم عند الاقتضاء. فنظمت من فرسانهم جيشا كان له الأثر المحدود في حروبها.

وليس لقرطاجنة حروب مذكورة مع البربر إلا ما كان من ثورة الجند والانتصار لاعدائها الرومان.

والمذكور من حروب قرطاجنة هي حروبها مع اليونان بصقلية، وحروبها من بعد مع الرومان.

ولم يكن البربر بعداء عن هذه الحروب خصوصا النوميديين. بل كانوا يخوضون لججها لفائدة قرطاجنة. وقد ينقسمون إلى مناصر لها ونصير لاعدائها.

ونحن نقص خبر هذه الحروب بإيجاز لأنها لم يقع منها بالوطن الجزائري إلا القليل. فعلاقتها بتاريخ الجزائر من هذه الجهة من حيث وجود اليد النوميدية فيها ومن حيث أن عاقبتها مجيء الرومان مكان قرطاجنة واستيلاؤهم على الجزائر.

نقتصر في هذه الفصول على أهم حوادث تلك الحروب. وفي الباب التالي ـ إن شاء الله ـ نبسط ما كان منها بالوطن الجزائري.

تعرف حروب قرطاجنة مع اليومان بحروب صقلية، وحروبها مع الرومان بالحروب البونيقية.

أ- حروب صقلية (536 ـ 306) ق.م:

وقعت هذه الحروب بين اليونان وقرطاجنة. ودامت سنين كثيرة تتخللها هدنات قصيرة الأجل.

1- في سنة (**536**) وضعت قرطاجنة قدمها بصقلية بقصد فتحها. وأرسلت إليها جنودا كثيرة بقيادة عملقرض بن ماغون. فانهزم أولئك الجنود انهزاما فادحا وذلك حوالي سنة (**480**). ولكن قرطاجنة لم تفشل من هذا الإنهازم، ووالت حروبها. وفي آخر القرن الخامس فتحت نحو ثلث صقلية بقيادتي حنبل وحملقون من أسرة حنون. وختمت المعارك الأولى بعقد هدنة بين قرطاجنة ودونيس أمير سرقوسة وذلك سنة (**404**).

2- في سنة (399) هجم دونيس على بعض مستعمرات قرطاجنة بصقلية. فأرسلت إليه جيشا بحريا بقيادة حملقون. فبلغ الجيش سرقوسة. وحاصرها بحرا. وأغرق سفنها، وذلك عام (396) وفي العام التالي عاد حملقون إلى صقلية بجنود كثير. واستولى على أكثر جزرها. وانتهى إلى سرقوسة وحاصرها وأصبح النصر منه على قاب قوسين، ولكن لم يساعده القدر، فأصاب المرض جنوده، ووجد دونيس الفرصة متأتية. فانقض على جنود حملقون. وهزمهم برا وبحرا. وانتهى الدور الثاني لهذه الحروب بعد اتفاق بين المتحاربين يقضي بخروج قرطاجنة من جميع جزر صقلية. اضطرت قرطاجنة إلى هذا الإتفاق لما كان بوطنها من ثورات البربر التي صيرت قرطاجنة في أضيق حال.

3- انجلت عن قرطاجنة أزمة الثورة. فعادت إلى حرب صقلية. ووجهت إليها جيشا بقيادة ماغون. فطالت الحرب بين الفريقين. وتوفي ماغون. فخلفه إبنه ماغون. ثم توفي دونيس سنة (363) وخلفه إبنه وسميه أيضا. وأخيرا ظن ماغون الثاني أنه مغلوب ففر إلى قرطاجنة وقتل نفسه اتقاءاً من تعذيب دولته له. ولا أعجب من حال من يفر من الموت الشريف وهو مظنون ويقتل نفسه بعد ما جر لدولته عار الانهزام. وبعد ماغون في سنة (340) وجهت قرطاجنة جنودا أخرى لصقيلة بقيادتي حنبعل وهملكار. فانهزموا أيضا على كثرتهم. وتم الدور الثالث بعد اتفاق بين المتحاربين لفائدة صقلية. وذلك سنة (338).

4- كان رجل يدعى أغاثوقليس من بيت وضيع. ولكنه قوي الإرادة طموح إلى المعالي. فانتهز فرصة وجود هملكار بصقلية. واستعان به على أن يكون ملكا بسرقوسة. فأعانه بعد ما حلف له إيمانا على مسالمته لقرطاجنة. وانتصب ملكا بسرقوسة سنة (**319**).

وبعد وفاة هملكار رأى أغاثوكليس أنه في حل من إيمانه. فهجم على ما تحت يد قرطاجنة بصقلية. فوجهت إليه جيشا جرارا يقوده هملكار بن جسقون. وانتصرت عليه انتصارا غزيرا. وتقدم الجيش إلى سرقوسة فحاصرها. ورأى أغاثوقليس موقفه حرجا. فتخلص بنقل الحرب إلى افريقية. بعد ما حرض السرقوسيين على الثبات ودبر مكيدة أبعد بها سفن قرطاجنة عن مرسى سرقوسة وركب أسطوله وتوجه إلى افريقية. شعر به الأسطول القرطاجني فتبعه. ولكن لم يدركه. قضى أغاثوقليس في سيره ستة أيام. ونزل بافريقية. وأحرق أسطوله لئلا يطمع جيشه في العودة إلى صقلية. وذلك سنة (**310**) وهكذا سيفعل طارق بن زياد بعد عشرة قرون. بقي هملكار محاصرا السرقوسة وفي سنة (**309**) الزمه السرقوسيون برفع الحصار عن مدينتهم. وفي العام التالي حاول الاستيلاء على سرقوسة، فلم ينجح. وأسره الإغريقيون، ومات معذبا. أما أغاثوقليس فإنه نجح في افريقية وخضعت له مدن كثيرة، وبلغ أبواب قرطاجنة وشدد عليها الحصار.

ولما رأى أغاثوقليس أنه تمكنت قدمه بافريقية ارتحل عنها سنة (**306**) إلى صقلية. وترك ولده بافريقية. فتنفس القرطاجيون وصاروا

يحاصرون الإغريق في المدن التي احتلوها. فعاد أغاثوقليس. ولكن النصر لا يكون دائما حليف الفاتح. فذاق مرارة سوء الحظ في هذا العود. وعاد إلى صقلية يتعثر في أذيال الخيبة. ومكن سلطته بسرقوسة. وتوفي سنة (289).

وبارتحال أغاثوقليس عن افريقية للمرة الأولى انتهت حروب صقلية.

ب- الحروب البونيقية:

قرطاجنة دولة بحرية لها أسطول عظيم. وأبناؤها قليلو الغناء في الحرب. فكانت تعتمد في حروبها على الأجانب.

وروما دولة برية لا أسطول لها. ولكن لها من أبنائها جيش قوي الإيمان بمحبة الوطن. ولذلك كان النجاح في الحروب البونيقية للثانية على الأولى.

ابتداء النزاع بين هاتين الدولتين على البحر الأبيض المتوسط. وفي سنة (348) عقدتا اتفاقا يمنع روما من التجارة مع افريقية، ويحدد لها في البحر حدودا لا تتجاوزها.

ولما توفي أغاثوقليس بقيت صقلية في فوضى دامت عشر سنين. وطمعت قرطاجنة خلالها بإعادتها إليها فاستدعى السرقوسيون الملك بيروس ليحفظهم منها. فلبى طلبهم. ووقعت بينه وبين قرطاجنة معارك لم ينجح فيها. فعاد إلى ايطاليا سنة (276).

وكانت روما تخشى بيروس. فعقدت مع قرطاجنة محالفة دفاعية تستلزم إعانة إحدى الدولتين للأخرى في أي حرب دخلت فيها.

وغرضهما الاتحاد ضد بيروس. وفي سنة (272) توفي هذا الملك. فتنفست روما. ونقصت لديها أهمية المحالفة.

رجعت صقلية إلى الفوضى بعد خروج بيروس منها. وكان بها جنود مرتزقة بعضهم من عهد أغاثوقليس، وبعضهم خلفهم بها بيروس. فانقسموا أحزابا. وعين السرقوسيون منهم ييرو رئيسا عليهم. فحارب قرطاجنة سبع سنوات. وكان أعظم الأحزاب مقيما بمسينا. ولقب هذا الحزب نفسه «**جنود المريخ**» وهو إله الحرب. وبلغ من عظمته أن خشيته اليونان وصقلية والرومان والقرطاجنيون.

وفي سنة (268) ساءت حالة المريخيين. ورأوا لزوم خضوعهم لرومة أو لقرطاجنة. وافترقوا لذلك فرقتين. وقدمت الطائفة المتشيعة لرومة مطلبها لمجلس الشيوخ. فقبلوه واعتمدوه سببا للدخول في محاربة قرطاجنة التي لا ترضى بتسليم صقلية. فوقعت الحرب بين الدولتين. ودامت سنين كثيرة. وهي المعروفة بالحروب البونيقية.

ج- الحرب البونيقية الأولى (264 – 241):

للرومان رغبة شديدة في امتلاك صقلية لقربها منهم. وللقرطاجنيين حق البقاء بها لنفس تلك العلة. ويزيدون بأنهم السابقون على استعمارها، وبأنهم مهروها دماء غزيرة، وبأنهم امة بحرية. واستظهرت رومة بطلب بعض المريخيين لحمايتها. والقول الفصل في قضية الاستعمار للقوة. فدخلت الدولتان محكمة الحرب لفض هذا المشكل. ورأت رومة عجزها

البحري. فسدت هذا الخلل قبل الشروع في الحرب. وشرعت في صناعة سفن على شكل سفن قرطاجنة. وتم لها في شهرين صنع (130) سفينة.

ابتدأت الحرب على مسينا فدخلها الرومان. وكان الأمير ييرو أولا مع قرطاجنة ثم انضم للرومان سنة (263). ثم دحرت رومة قرطاجنة في حرب جرجنتي حتى فر القائد القرطاجني وأسر بعض جيشه وبيعوا بيع العبيد. وذلك سنة (262).

وفي سنة (256) وقعت معركة بحرية بين الأسطولين انجلت بانهزام الأسطول القرطاجني. ودخل الرومان اثر ذلك افريقية وحاصروا قرطاجنة.فاضطر القرطاجنيون إلى طلب الصلح. فاشترط الرومان عليهم شروطا رأوا الموت دونها. فشمروا عن ساعد الجد وأخرجوا الرومان من افريقية.

وفي سنة (242–أو–241) خضع الجيش القرطاجني للجيش الروماني. وكان كل من المتحاربين قد سئم الحرب. ولكن الماليين القرطاجنيين كانوا أسبق إلى طلب الصلح حرصا منهم على الثروة التي يرون في استمرار الحرب ضررا لها.

انعقد الصلح بين المتحاربين على شروط لفائدة رومة وهي:

1– رد الأسرى من غير فداء.

2– خروج قرطاجنة من صقلية.

3– التزامها مسالمة ييرو.

4- دفعها غرامة حربية عظمى. قدرها بعض المؤرخين بعشرين مليونا فرنكا. وهي بعضها معجل وبعضها مؤجل بآجال تنتهي بعشرين سنة.

والقائد القرطاجني في هذه الحرب هو أملقار برقة. وهو قائد عظيم أدى لدولته خدمات جليلة. وكان رئيس حزب وطني غرضه أن تكون قرطاجنة دولة ديمقراطية[1] ذات جيش وطني يحميها من رومة. وكان الماليون الذين همهم في ملء الخزائن لا في نشر الكنائن يرون في هذا القائد الحربي ضررا على ماليتهم فأبعدوه إلى اسبانيا برسم فتحها في الظاهر. ففتحها وأسس بها دولة هو رئيسها. وسمى عاصمته قرطجنة الحديثة. وتوفي سنة (228- أو-220).

د- الحرب البونيقية الثانية (218-202):

لما توفي أملقار باسبانيا ترك جيشا منظما منقادا له كل الانقياد. فورثه إبنه حنبعل في الحكم والجيش. وكان ابن سبع وعشرين سنة.

حنبعل هذا رجل عظيم اعترف له أعداؤه الرومان بالدهاء الخارق للعادة. وتعجب نابليون الأول من دهائه الحربي. ومجمل القول فيه أنه عالم متبصر في الأمور، ذو عزيمة ثابتة ووطنية نارية، محبوب من جيشه وكلاهم واثق بالآخر.

---

[1] ديمقراطية مركبة من كلمتين: قراطية معناها حكومة وديمو معناها الناس. فمعنى هذا المركب حكومة الشعب.

كان يحمل حقدا حارا لرومة، وينوي تجديد عز قرطاجنة. فتوسل لإثارة الحرب بينه وبين رومة بأن هجم على مدينة باسبانيا تحت حمايتها، كما أنها هجمت قبل ذلك أثناء الصلح على جزيرتي سردانيا والكورص، وانتزعتهما من قرطاجنة.

وبهجوم حنبعل انقضت أيام الصلح التي دامت اثنتين وعشرين سنة استعادت فيها كلتا الدولتين قوتها.

أرسلت رومة إلى قرطاجنة وفدا يطلب منها تكفير تعدي حنبعل واختيار الصلح أو الحرب. فردت إليها قرطاجنة أمر الاختيار.

اختارت رومة الحرب. فكان ذلك بردا وسلاما على قلب حنبعل. فأراد أن يحاربها في عقر دارها. فاختار من جنوده خمسين ألفا بين مشاة وفرسان. وقيل مائة ألف. وتوجه إلى إيطاليا وكان يريد أن يموت هو أو تموت رومة.

وأكثر فرسانه نوميد يون .وهم معروفون بالفروسية المبهتة. حتى أن فرسان الرومان لم يستطيعوا مقابلتهم. فترجلوا عن خيولهم.

وقعت بين الفريقين معارك في ميادين كان النصر فيها لحنبعل. وهلك من الرومان آلاف مؤلفة. وطالت إقامة حنبعل بايطاليا فقل جنده وخرج عنه كثير من الأمم التي أخضعها أولا لطاعته. وإذ ذاك استنجد قرطاجنة فلم تنجده جريا على عادة أعيانها من حب السلم لترويج التجارة. هنالك أرسل إلى أخيه صدر بعل الذي تركه باسبانيا.فاضطر صدر بعل في طريقه إلى خوض معركة قضت على أجله سنة **(207)**.

بعد ذلك تحصن حنبعل بجبال كلابر من ايطاليا. وعجز الرومان عن مقاومته بها... فنقلوا الحرب إلى افريقية بتدبير سبيون.

لما رأى **سبيون**[1] أن ينقل الحرب إلى افريقية ــ كما فعل من قبله أغاثوقلس ــ وجد نفسه في حاجة إلى استمالة النوميديين. فذهب إلى افريقية. وتمكن من عقد محالفة مع صيفاقس ملك مصيصليا ضد قرطاجنة. وبذل صدر بعل ابن جسقون جهوده لإبقاء صيفاقس على ولائه لقرطاجنة فلم يفلح أولا. ثم عاد سبيون إلى الأندلس. وبها مصينيسا مع صدر بعل على الرومان فاستماله أيضا. وكان عدو صيفاقس. فوجد صدر بعل بذلك سبيلا إلى إيغار صدر صيفاقس على الرومان. فانتزعه منهم وأعاده في صف قرطاجنة.

جمع سبيون لفتح افريقية جيشا يشتمل على ثلاثين ألفا. وكان مصينيسيا قد وقعت له حروب مع صيفاقس انهزم فيها وصار متشردا بالصحراء. فلما حل سبيون بافريقية جاءه نجدة له. وجاء صيفاقس منتصرا لصدر بعل. ووقعت بين الفريقين معركة أولى انهزم فيها سبيون مكيدة. وأظهر رغبته في الصلح. وبينما هم في المفاوضة إذ هجم سبيون على صدر بعل مصينيسا على صيفاقس ليلا وحرقوهم بالنار وعلوهم بالسيوف. فكانت على القرطاجنيين وقيعة شنعاء وذلك سنة(203)

---

[1] سبيون هذا هو قائد الجيش الروماني المحارب لقرطاجنة بالأندلس. وأبوه يقال له أيضا سبيون. وكان أيضا قائدا. وانتصر عليه جنعبل في طريقه إلى أيطاليا. ويعرف سبيون الابن بسبيون الافريقي. ولعل هذه النسبة جاءته من قبل اقامته بافريقية في هذه الحرب.

وخضعت إذ ذاك قرطاجنة لسبيون طالبة منه الصلح. كل ذلك وحنبعل بايطاليا . ولما بلغه ماحل بدولته عاد إلى وطنه سنة(**202**).

لما بلغ حنبعل قرطاجنة تقوت به القلوب بعد الضعف. ولم يقبل الصلح. وعاد إلى الحرب. فوقعت بينه وبين سبيون معركة زامة. مات فيها من الرومان عدد كبير. ولكن خيالة نوميديا كانوا مع سبيون فكان الغلب له. وعاد حنبعل إلى قرطاجنة آيساً من ربح الحرب راضيا بالصلح. وكانت معركة زامة هذه خاتمة الحرب البونيقية الثانية، عقد المتحاربان بعدها هدنة إلى ثلاثة أشهر. ثم اتفقوا سنة (**201**) على مواد الصلح الآتية:

1- سراح الأسرى الرومان من غير فداء.

2- تسليم قرطاجنة في جميع أفيالها للرومان.

3- تسليمها لهم جميع سفنها إلا عشرا.

4- يبقى لها ماتحت يدها من التراب ماعدا الجزر.

5- تدفع لهم غرامة مالية. قدرها ابن خلدون بثلاثة آلاف قنطار من الفضة[1] وقدرها غيره من مؤرخي الإفرنج بأربعة وخمسين مليونا فرنكا، وهي منجمة: قال مرسيي على عشر سنوات، وقال ماليت على خمسين سنة.

6- تعترف بسلطنة مصينيسا على مصيليا، وقاعدته قرطة، وتتعهد بأن لا تحاربه.

---

[1] ج2 ص189.

7- لاتجند جندا الا برخصة من رومة.

8- لتنفيذ هذه المواد تأخذ رومة مائة من أبناء قرطاجنة رهنا.

تم الصلح على هذا الوجه. وأخذ سبيون خمسمائة سفينة أحرقها بميناء قرطاجنة. ورد عليه أربعة آلاف أسير. وعاد إلى رومة ظافرا منصورا.

أما حنبعل فانه عاد إلى قرطاجنة وهو يرجو ان يأتي يوم تقبل فيه رومة شروطا كالتي قبلتها اليوم قرطاجنة. وظهرت طلائع الفوضى بقرطاجنة. واتهم حنبعل بالتقصير في فتح رومة فحكم عليه بالقتل. ولكنه استمال الجند وقلب النظام وأصبح هوالامر الناهي. وذلك سنة **(195)** وأخذ في رتق مافتقته الحرب. فدرب الجنود ونشط الفلاحة. ولم يرق ذلك للرومان فبعثوا إليه بالكف عن تلك النهضة التي تعيد لقرطاجنة شبابها، وتخشى منها رومة خرابها. ولم يستمع إليهم حنبعل على كثرة إلحاحهم. ولما أعياهم إعراضه عن موافقتهم عزموا على اغتياله بمساعدة أرباب الأموال التي استحوذت على قلوب أصحابها فلم تبق بها منفذا لحب الوطن. وإذ ذاك أيس حنبعل من خدمة أمته بقرطاجنة. ففر إلى الشام ونزل على ملك السريان «**انطيوكيس**» وأراد ان يشغل رومة ويخدم وطنه من الخارج. فطلب من ذلك الملك المدد لمحاربة رومة في المشرق. فأمده. وأخيرا أيس من أن تكون لهذه المحاولات ثمرة. فسم نفسه سنة**(1839)**.

وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم والقائد الكبير الذي لم يهزمه غير الخائنين من قومه عبدة المنفعة الشخصية. فمضى ولسان حاله ينشد:

انا لولا أن لي من أمتي خاذلا مابتُّ اشكو النويا

هـــ- الحرب البونيقية الثالثة (149-146):

خرجت قرطاجنة من الحرب الثانية على تلك الصفة القاضية عليها بالموت. ولكنها أمة تجارية نشيطة فتحسنت حالها وانتعشت. وكان مصينيسا يقلقها بغاراته على حدودها. وقام بها ثلاثة أحزاب: حزب مالي غرضه السلم ومداراة رومة، وحزب وطني غرضه تأييد سيادة قرطاجنة بالجيش والحرب، وحزب بربري غرضه الاحتماء من رومة بالخضوع لمصينيسا. ولو قدر لهذا الحزب الأخير النجاح ما رأى الجزائريون وجوه الرومان وفخفختهم.

لم يكف مصينيسا عن إزعاج قرطاجنة. فرفعت عقيرتها مرارا بالشكوى منه إلى رومة التي لم يخف عليها تعدي مصينيسا. وأخيرا خشيت رومة ان يستولي مصينيسا على قرطاجنة، ويقطع آمالها في امتلاك افريقية. فوجهت إلى افريقية ثلاثة من الخبراء للبحث في قضية قرطاجنة مع مصينيسا وإنصافها منه. فلما بلغوها ورأوا حسن حال قرطاجنة عدلوا عن إنصافها خشية أن تعود إلى قوتها وتحتفظ بسيادتها على وطن همهم في امتلاكه. حتى أن أحد الخبراء المدعو **قاطون CATON** لما عاد إلى رومة حمل معه تينات طرية من شجرتها ودخل بها مجلس الشيوخ قائلا: «**إن الأرض التي تنبت هذه الثمرة ليس بينها وبين رومة إلا مسير ثلاثة**

أيام» ومن كلامه أيضا: «**أن رأيي أن نهدم قرطاجنة**» ولم يزل يكرر هذا المعنى في خطبه. وبعد قليل أصبحت رومة تلفق أسبابا واهية لتبرير حرب قرطاجنة.

أدركت قرطاجنة جور أولئك الخبراء وعرفت انه لا ينصفها غير قوتها. فكانت للحزب الوطني فرصة لم يضيعها. إذ قام من رجاله جسقون ونظم جيشا جعله تحت إمارة أريو برزان حفيد صيفاقس عدو مصينيسا. وإخراج حزب مصينيسا من قرطاجنة سنة (**152**) فاحتج مصينيسا على ذلك أمام قرطاجنة ورومة. وأخيرا هجم على الحدود فخرج إليه صدر بعل في جش كثير. وانتهت المعركة بفوز مصينيسا. وذلك سنة (**150**).

بلغ خبر هذه الحرب إلى رومة فاعتمدتها سببا لحرب قرطاجنة بدعوى أنها نقضت الفصل السادس من مواد الصلح السابق. وشرعت في تجهيز جيوشها للدخول في الحرب البونيقية الثالثة. وما أجدرها أن تسمى حرب التين!

في سنة (**149**) وجهت رومة جيشا إلى افريقية. ولما نزل بصقلية جاءته رسل قرطاجنة معترفين بالجناية على الصلح مع أنهم كانوا مدافعين لا هاجمين. وقدم أولئك الرسل لضباط الجيش (**300**) من أعيان قومهم رهنا. ولكن الجيش سار لطيته وكان عدده ثمانين ألفا. ولما نزل بتراب قرطاجنة بتراب قرطاجنة طلب منها ـ تكفيرا عن جناية نقض الصلح! ـ تسليم جميع المواد الحربية وآلات الصناعة. فلبت الطلب! وكان مما استلمه الجيش الروماني مائتا ألف درع، وثلاثة آلاف مقلاع، عدا المراكب

وغيرها. وبعد استلام ما طلبه الجيش الروماني أولا طلب ثانيا منها ان تتخلى له عن خمسة عشر ميلا من ترابها. فطلبت تأجيل الجواب عن ذلك إلى شهر. ووافقها الجيش على هذا الطلب لاعتقاده أنها عاجزة عن أي مقاومة.

أثار هذا السلوك الممقوت والخداع الخبيث حمية القرطاجنيين. فهاجموا وثاروا في وجوه الذين مكنوا الرومان من قوتهم. وجمعوا عشرين ألف جندي تحت قيادة صدر بعل. وتهيأ السكان أجمعون للدفاع عن المدينة. وكان عددهم سبعمائة ألف. وخرج صدر بعل بجيشه من المدينة ليتمكن من تموينها. واستعد الباقون للحصار تحت رئاسة حفيد مصينيسا المسمى صدر بعل. ونهضوا أثناء ذلك الشهر للعمل بنشاط غريب حتى أنهم هدموا الديار ليأخذوا أخشابهم ويصنعوا منها السفن وآلاتها وحلقت النساء شعورهم ليفتل منها الحبال.

وعندما تم الامد جاء الجيش الروماني ليدخل المدينة فوجدها على غاية الحصانة. وتحرج موقفه. ثم فشا فيه المرض والعصيان. وكان القرطاجنيون بخلاف ذلك تزداد حرارتهم الوطنية بطول الحصار. ولم يجد الرومان مساعدة من مصينيسا الذي لزم الحياد رجاء أن يستفيد من ضعف الدولتين كلتيهما.

مكث القرطاجنيون في الحصار عامين. واشتد عليهم تحت رئاسة سبيون الأميلي اذ حفر خندقا أحاط بالمدينة، وأقام سدا بينها وبين المرسى، وطارد الجيش القرطاجني المقيم خارج المدينة. وبذلك انقطعت

عن المحصورين مادة التموين. وذلك سنة (147). وحاول المحصورون النفوذ إلى المرسى باتخاذ نفق تحت الجبل. فشعر بهم المحاصرون وردوهم إلى الحصار فاستمروا فيه متزودين بالصبر.

لما أحكم سبيون حصار قرطاجنة وقطع عنها المؤنة برا وبحرا عزم على فتحها. فقصد مكانا ليدخل منه على غرة من أهلها. ففطن به صدر بعل حفيد مصينيسا وصدره بإيقاد النيران في وجهه. وأخيرا دخل سبيون المدينة من ناحية المرسى. فشد عليه السكان شدة عنيفة.

وأرسلوا عليه كل ما لديهم من مهلكات ومحرقات. ولكنه صبر لها وفتك بمن ساقه القدر إليه من شيوخ ونساء وصبية واحرق كل ما مر به. ودامت الحال على شدتها ستة أيام بلياليها. والتجأ المحصورون إلى هضبة برسة. وهم مع ذلك لا يسلمون قدما إلا بحقها. وكثرت الأموات حتى صاروا يرمونها من طريقهم بالمذاري.

وكان المحصورون بجبل برسة[1] ثلاثين ألفا. فلما أيسوا من النجاة ونفذ ما لديهم من وسائل الدفاع ومعدات الحصار أسلموا أنفسهم ـ ومعهم صدر بعل ـ لسبيون على أن يحفظ لهم أرواحهم. وكانت زوج صدر بعل أقوى منه جأشا فربأت بنفسها عن أن تحتمل منه سبيون. فأوقدت النار بمعبدهم وألقت نفسها فيها. وفعل فعلها ألف قرطاجني. وذلك سنة (146).

---

[1] جبل برسة هضبة بمدينة قرطاجنة. شاد بها الفرنسيون اليوم كنيسة ومتحفا وضريحا للقديس لويس التاسع ملك فرنسا الذي هلك في حربه ضد المستنصر بالله الحفصي بالوباء سنة 669هـ-1270م.

وإنتهت الحروب البونيقية بفتح قرطاجنة التي خلد البونيقيون بدفاعهم عنها لأنفسهم كل الفخر والشرف وللرومان الغادرين كل خزي وعار. وأنه لفتح فتح على الجزائريين كل النوائب والمصائب وسد عليهم طريق الإحسان السامي فلم يروه إلا بعد ثمانية قرون عندما جاءهم العرب إخوان الفينيقيين يحملون لهم دينا فطريا وأحكاما عادلة وحضارة طاهرة.

عندما تم فتح قرطاجنة احتفلت رومة بآلهتها وقربت لها القرابين. ثم وجهت عشرة من أعيانها لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة. فحملتهم الكراهية والبغضاء لمؤسسيها رجال العمران على اختيار هدمها وتخريبها ففعلوا وبئس ما صنعوا. ولعنوا مكانها. وأخذوا من تراب حكومة قرطاجنة قطعة ضيقة أضافوها إلى مستعمراتهم وأطلقوا عليها اسم «**مملكة الرومان في افريقية**» وجعلوا لها واليا مقره عوتيقة.

الباب الخامس

في ذكر البربر
على عهد قرطاجنة
وجمهورية رومة

علاقة البربر مع القرطاجنيين:

ليس لقرطاجنة مطامع استعمارية ـ بالمعنى العصري ـ في بربر الجزائر. فلم تكن تخدعهم بالوعود الكاذبة أو تمنيهم الأماني الباطلة. فتتظاهر ـ وهي تسر حسوا في ارتغاء ـ بأنها جاءت لخيرهم، وأنها تحكمهم ريثما يصيرون قادرين على إدارة شؤونهم، رشدا في تصرفهم، ثم تقلع عنهم، وتنفض يدها من التحكم عليهم متى بلغوا تلك الغاية.

وقد عاب على قرطاجنة هذا الخلق السامي ستيفان اغسال ونقل كلامه بيروني. وهاك ترجمته:

رومة ملكت أوطانا شاسعة ومع ذلك عرفت كيف تحفظ سيادتها: فالمكان الذي تنتصر فيه تحصنه بالجنود، وتمني المحكومين بأنها تدعهم وشأنهم متى رشدوا. وقرطاجنة بعكس ذلك: متى ملكت ناحية لم تحصن مركزها فيها، ولم تعد أهلها بالإقلاع عنهم يوما ما. إلى أن قال: فلو شاءت قرطاجنة أن تكون من افريقية دولة ثابتة لسهل الأمر عليها. ولكنها فرطت في الاستثمار والاستغلال.

وإن عيب على قرطاجنة تفريطها في استغلال البربر فإنما يعيب عليها ذلك أهل المطامع الاستعمارية. أما من لم تدنس عقولهم تلك المطامع فإنهم

لا يرون عيبا على قرطاجنة إن لم تكن ذات خداع سياسي. بل يعترفون بفضل أعمالها العمرانية وما أحسنت به إلى بربر الجزائر من جلب البضائع لوطنهم وتعليمهم الحرف والصنائع.

وقد كانت تستميل الرؤساء والأمراء بالأموال وتتقرب إليهم بالمصاهرة، لا لان تخدعهم في استقلالهم بل ليكفوا عنها هجومات قومهم ورعاياهم أو تستعين بهم في حروبها.

أملقار برقة أعظم قواد قرطاجنة وعد نارفاس من رؤساء البربر بابنته لإعانته له على إخماد ثورة المرتزقة، وحنبعل الشهير كانت له إبنة أخ تزوجت من أصالساس بن نارفاس، وصفر نيسب الشهيرة بنت صدر بعل كانت تحت صيفاقس، ومصينيسا كانت له بنت تزوجت بأحد سراة قرطاجنة وكان منها صدر بعل حامل راية الدفاع عن المحصورين بقرطاجنة.

وكان لقرطاجنة منذ أواخر القرن الخامس (ق.م) جنود مرتزقة من نوميديا وموريطانيا. والنوميديون هم الذين أعانوا حنبعل بأوربا. وإليهم يرجع الفضل في انتصاراته الكثيرة الباهرة.

وكانت بين قرطاجنة وبعض امراء البربر بالوطن الجزائري معاهدات تقضي بإعانة أولئك الأمراء لقرطاجنة أيام الحرب.

فأنت ترى أن بين قرطاجنة وبربر الجزائر روابط بالمصاهرة والمعاهدة، واختلاط في الجندية.

الحضارة القرطاجنية بالجزائر:

كان البربر قد اجتازوا العصر الحجري وعرفوا الزراعة قبل تأسيس قرطاجنة. ولكنهم استفادوا من القرطاجنيين فوائد كثيرة وجليلة بحيث يصدق عليهم أنهم تلاميذهم في العمران والحضارة.

كان شجر الكروم والزيتون بأرض البربر من النباتات الطبيعية و لم يهتدوا إلى وجه استثماره. فلما جاورهم القرطاجنيون أخذوا عنهم صناعة عصر العنب للخمر وحب الزيتون للزيت. وكانوا قد عرفوا الفلاحة. فاستفادوا من القرطاجنيين ضروبا أخر من البذور لم تكن بوطنهم، وأخذوا عنهم أيضا آلة لدرس الحبوب. و لم تكن للبربر دراية بالغراسة. فاستفادوا من القرطاجنيين غراسة الأشجار على اختلافها. وتعلموا منهم تربية الحيوانات. وعرفوا منهم المعادن فاستخرجوها. من ذلك النحاس. استخرجوه قبل الفتح الروماني. ويظن بعض الباحثين أن ذلك كان بناحية تنس. وتعلموا منهم صنع الرصاص والحلي ونحت الحجارة النفيسة. و لم ترج صناعة الحديد بين البربر إلا على يد القرطاجنيين[1]. وتعلموا منهم صناعة الأواني المطلية وفنهم في البناء. فكانوا

---

[1] تأخر رواج صناعة الحديد بين البربر إلى ذلك العهد لا يدل على بعدهم عن الحضارة لأن مجيء القرطاجنيين كان لأول العصر الحديدي فيما يظهر. فقد قال تعالى في شأن داوود: (وأنزلنا له الحديد) وذلك يدل على أن عصر داوود هو بداية العصر الحديدي. وقد علمنا الخلاف في تأسيس قرطاجنة هل كان في عصر داوود أو بعده، وإن تأسيسها كان بعد تعرفهم بهذا الوطن على كل حال.

يبنون القباب على شكل الأهرام. وعرفوا الفن الإغريقي أيضا في البناء. ولكن بواسطة القرطاجنيين.

وقد عثر الباحثون في الوطن الجزائري على اطلال من بناءات البربر أطلالا حكوا فيها الفن الفينيقي. وكثيرا ما يجدون اطلال مركبة من الفنين الفينيقي والإغريقي.

وليس لقرطاجنة من حيث أنها حكومة يد في انتشار هذه الحضارة لأنها كانت في نواح لم تكن لقرطاجنة عليها سلطة. وإنما كان انتشارها ناشئا عن أسباب مرجعها إلى ما كان بين الامتين من الروابط وهاك أهمها:

1- **المدن البونيقية:** ذلك أن البربر كانوا يقصدون تلك المدن يشترون منها بضائع بونيقية ويشاهدون بها حضارة بونيقية. فينقلونها داخل وطنهم باختيارهم. وما أسرع البربري إلى الأخذ بالجميل إذا لم يكن مبغضا لأهله.

2- **الجنود المرتزقة:** ذلك أن قرطاجنة كان لها من البربر جنود مرتزقة. وهؤلاء الجنود يختلطون بالبونيقيين ويتأثرون بحضارتهم. فبعد أن يقضوا بينهم زمنا يعودون إلى أوطانهم ناشرين لتلك الحضارة.

3- **أمراء البربر:** ذلك أن لكثير من أمراء البربر ولوعا بترقية وطنهم. فكانوا يقتبسون من جيرانهم البونيقيين ما يبلغون به أمنيتهم. فيأخذون من مدنيتهم وحضارتهم أمثلة صالحة ينشرونها بين رعاياهم بهمة

وعناية، ويسيرون بها في مساكنهم وإداراتهم شوطا بعيدا. والناس ـ كما قيل ـ على دين ملوكهم.

ولكون البربر هم الذين جلبوا إلى وطنهم الحضارة القرطاجنية ونشروها بينهم باختيارهم لم تسقط هذه الحضارة بسقوط قرطاجنة بل عاشت في العصر الروماني، و لم يضرها جوار الحضارة الرومانية.

قال بيروني:

بدلا من ان يقضي الرومان على حضارة قرطاجنة نشروها ومدوا في عمرها، مع عدم المناسبة بين الفينيقيين والرومان أصلا وحضارة. ولكن طول مكث الفينيقيين بافريقية غرس حضارتهم في نفوس البربر غرسا لا يزول بزوال ملكها. حتى أن الرومان لما صاروا يملكون وينشرون حضارتهم لم يفهم ذلك البربر إلا أنها حضارة قرطاجنية. و لم يزل ذلك من أفكارهم إلى الفتح العربي. فكان عمر هذه الحضارة (17) قرنا.

هذا كلام بيروني سقناه لما فيه من الشهادات العادلة. وفيه سبب لانتشار حضارة قرطاجنة بين البربر وطول أمدها غير الأسباب التي قدمنا. ولكن ما قدمناه هي الأسباب الحقيقية أما طول المكث وحده فغير كاف. وسترى أن طول مكث الرومان لم يتسبب عنه بقاء حضارتهم بعد ذهاب سيادتهم، و لم ينتج عنه انتشارها حتى أيام سيطرتهم. بل في كلام بيروني هذا ما يغني في رد ما جعله سببا لبقاء حضارة قرطاجنة عن انتظار ما يأتي في آخر الباب التالي.

تأثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة:

كانت للبربر حروف هجائية كما كانت لهم لغة. ولكنها لم تكن لغة آداب وعلم. فلما خالطوا الفينيقيين تأثروا بلغتهم ومالوا إلى خطهم. حتى صاروا بقرطة لا يتكلمون بغير الفينيقية. وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة على عهد مصينيسا فمن بعده من الملوك. وظهر ذلك على نقودهم الدولية التي عاشت بعيش دولتهم إلى أواسط القرن الأول للميلاد.

وعلى أيدي الملوك والأمراء انتشرت هذه اللغة بين العامة خصوصا في الجهات التي تجاور مملكة قرطاجنة. ولم تزل حية بنواحي قالمة وبونة إلى أيام القديس أغسطين. غير أنها لم تكن إذ ذاك لغة مدرسية، والبلغاء يترفعون عنها ويتظاهرون بجهلها، وإنما هي لغة البوادي الذين كانوا يجهلون اللغة اللطينية إلى ذلك العهد. فكان الرومان يحتاجون في ذلك الحين إلى مترجم عارف بالفينيقية عندما يضطرون إلى مخاطبة البداة من البربر.

وقد وجدت كتابات بقالمة ونواحيها وقسنطينة وميلة على قبور بهذه اللغة. ويرجع تاريخ الكتابات إلى ما بعد سقوط قرطاجنة.

ومن اللغة الإعلام. وقد اتخذ البربر لبعض مدنهم أعلاما فينيقية. ومن ملوك نوميديا من سمى أبناءه باعلام فينيقية. فقد كان لمصينيسا ابن يدعى منستبعل وابن آخر يدعى آذر بعل. واقتفت السوقة أثر الملوك في ذلك قرونا. ويوجد بجهات سطيف وجبل أوراس وسور الغزلان كتابات

بحروف لطينية لاعلام فينيقية. منها نمفامو، صدر بعل، بريق بعل، بو ملكار، مع أن هذه الجهات لم تدخلها قرطاجنة قط.

فأنت ترى أن اللغة الفينيقية عاشت بالجزائر بعد قرطاجنة قرونا، و لم تقض عليها أو تذهب بأغلبيتها لغة الأمم التي جاءت بعد القرطاجنيين، إلى أن جاء العرب فقضت لغتهم على هذه اللغة.

قال بيروني: اتفق المؤرخون على أنه لا يمكن معرفة ما بقي من آثار هذه اللغة لأنها لغة سامية وقد دخلت عليها أختها العربية وحلت محلها.

هذا وإن إنتشار الفينيقية بتلك الدرجة ودوام عمرها قرونا لا يفيدان أن اللسان البربري حفظها كما هي. بل لابد أن تكون قد تغيرت وامتزجت بالبربرية. وهذا وجه آخر عندي لعدم إمكان معرفة مابقي من آثارها.

تأثير قرطاجنة على البربر في العقيدة:

كانت للبربر ديانتهم التي لا تختلف عن ديانات الأمم القديمة الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعهودات وأسماؤها التي هي من توابع اللغات.

ولما جاورهم القرطاجنيون تأثروا بهم في عقيدتهم وقلدوهم في كثير من طرائق عبادتهم وغيروا بعض ما ورثوه عن أسلافهم بما شاهدوه عند جيرانهم.

عبد الفينيقيون إله البربر «**أمون**» لكن حسب تقاليدهم وبعد تسميته «**بعلهمون**» وبعد صنع تماثيل له غير تمثالي التيس والكبش. فقلدهم البربر في تلك التماثيل أيضا وشادوا ـ أجلالا لبعلهمون ـ تماثيل بقرطة وميلة وقالمة. وعبدوا من آلهة الفينيقيين «**أستارتي**» و«**جليست**». ومن الآلهة التي بقي اسمها إلى ما بعد الاستيلاء الروماني «**بليدير**» ومعناه الرب العظيم. وكان معبودا بسيقوس وجوار قالمة.

قال اغسال: «**وثم آلهة فينيقية تحت حجاب اللغة الفينيقية**».

ولم تزل ديانة الفينيقيين التي أدمجها البربر مع ديانتهم حتى جاءت وثنية الرومان فتعاشر الثلاث ثم ظهر الدين المسيحي فتدثر به جانب من البربر مستبطنا لوثنيته الملفقة من الوثنيات الثلاث وبقي أكثرهم وثنيا صريحا حتى جاء الدين الإسلامي على أيدي فاتحي افريقية من العرب فقضى على الجميع. على أنه لم تزل إلى اليوم عوائد متخذة عقائد لا تتفق مع روح الدين الإسلامي، ويبعد أن تكون من بقايا الوثنية الأولى، فإن الإسلام قد تمكن من قلوب البربر حتى أن تلك العقائد الفاسدة إنما عاشت بينهم لاحتمائها بالإسلام وتسترها بجداره، فلو وجد من العلماء المخلصين لدينهم وقومهم عدد كاف لحمل العامة على الثقة بما يقولون، وأخذوا في رفع الستار عن فساد تلك العقائد لنفض مسلموا اليوم أيديهم منها، ولكن ما لم يكن اليوم فعسى أن يوجد غدا. إن رحمة الله قريب من المحسنين.

وقد اتضح لك من هذا الفصل وما قبله ان القرطاجنيين أثروا في البربر تأثيرا بعيد الأثر، لا يحوي تاريخهم نظيرا له إلا ما كان من تأثير العرب في العصر الإسلامي. وسر ذلك أن البربر يأنفون ممن يعبث باستقلالهم ويتذرع إلى ذلك بوسائل الخداع السياسي والنفاق الاستعماري. وإذا أنفوا من أمة هذه خلالها رفضوا مدنيتها وهجروا أخلاقها وعقائدها. والفينيقيون كالعرب من الجنس السامي جنس الصراحة الصادقة والكلمة الثابتة. فلذلك أثروا في البربر ذلك التأثير ونفذوا إلى قلوبهم فغيروا من أخلاقهم وعوائدهم ولغتهم وعقائدهم.

نشوء الممالك البربرية العظمى:

إذا ألقى المرء نظرة على خريطة الجزائر الطبيعية ألفاها ذات أقسام مختلفة: جبال وهضاب وحقول وصحار. ولأهل كل قسم من هذه الأقسام طبائع وعادات يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الأمكنة. ولكنهم لم يكونوا من الاختلاف بحيث لا يتعارفون ولا يتعاملون. فقد كان بالوطن الجزائري طرق تخترقه وتربط بين هاتيك الأقسام، وتسهل المواصلة بين السكان. ففي كل عام ينتقل أهل الصحراء بمواشيهم إلى التل — كما هي الحالة اليوم — وتقع المعاملة بين الفريقين: يأخذ التلي الصوف والتمر، والصحراوي الحبوب.

وبذلك تكونت علاقات بين الشعوب الجزائرية منذ أقدم العصور التاريخية، وتأسست منهم ممالك كبرى ذات نظام وعمران وحضارة.

صيفاقس من ملوك البربر استطاع ان يجند (60) ألفا لمحاربة سبيون الإفريقي، ويوبا الأول جمع لحرب قيصر (30) ألفا راجلا و (20) ألفا فارسا. وفي القرن الثاني (ق.م) كان مصينيسا ومصيبسا ويوغورطا ملوكا على ما بين طرابلس ومراكش، وقد يمتد حكم بعضهم إلى المحيط الأطلانتيقي.

وقد بلغ من عظمة ملوك البربر أن كانوا إحدى العوامل في سقوط قرطاجنة، وغصت بهم رومة رغم اتساع بلعومها لكثير من الأوطان.

وقد كان هؤلاء الملوك يحبون الاستبداد بالسلطة والاستقلال بالإرادة والإدارة، لذلك أسلموا قرطاجنة للسقوط وقاوموا رومة حينا من الدهر.

وللملوك البربر نواب في مختلف الجهات يسمون ملوكا أيضا. ويرسلون للمدن عمالا. ومن المدن ما منحوها الاستقلال، ونظمت حسب نظام المدن القرطاجنية، وكان لها قضاة كقضاة مدن قرطاجنة الذين يعرفون **بالأشفاط SUFFET**. ومنحت تلك المدن حق ضرب النقود، فكتبت عليها باللسان الفينيقي.

والحكومات البربرية وراثية محصورة في بيوت منهم سواء في ذلك الملوك ونوابهم.

وقد كان بقرطة تجار وعملة من الإغريق والإيطاليين. وكان نطاق العمران متسعا. ولكن شمال قرطة كان أوفر حظا. فكانت المدن بتلك الناحية كثيرة عامرة. وتوجد مدن عامرة أيضا وهي في الجنوب منها

تفيست، وقد بلغ من عمرانها وكثرة سكانها أنها في سنة **(250) ق.م** تمكنت من إعطاء ثلاثين ألفا من رجالها رهنا على الطاعة لقائد قرطاجني.

وانتشرت الفلاحة على يد مصينيسا. وكثيرا ما مون ملوك نوميديا جنود الرومان بالقمح والشعير في حروبهم بالمشرق أو باسبانيا أو بجزيرة سردانيا.

و لم تزل الجزائر من ذلك الحين صالحة للفلاحة وتربية الحيوانات التي تكلم عليها سالوست. والعمارة الفلاحية كانت تمتد إلى حد الجزائر الغربي. وكانت مصيصيليا أغنى من مصيليا رجالا ونتائج أرض.

وكان البربر يفتخرون بكثرة النسل. قال اغسال: «**ويرون افريقية أكثر من غيرها في ولادة التوأم**» ومراده بافريقية ما يشمل الجزائر. و لم يزل هذا الخلق إلى اليوم بزواوة. قال أبو يعلى الزواوي: ومن عادات زواوة أنهم «**يقلدون المرأة التي أذكرت نوعا من الحلي خاصا بالجبهة**»[1].

وبتقدم العمران تقدمت الحضارة. قال اغسال: «**ولم يكن جميع من تحت هؤلاء الملوك متوحشين**» فقد شيدت المباني العجيبة من منازل وصوامع وقصور وقباب ومعابد. كل ذلك على نمط الفن الفينيقي أو الفن الإفريقي المركب من الفنين الفينيقي والإغريقي.

---

[1] تاريخ الزواوة ص34.

ذكر بعض رؤساء البربر:

لم تظهر بالوطن البربري دول عظام وملوك فخام إلا عندما أخذ الطمع الأشعبي يدفع رومة لامتلاك وطنهم، واصطدمت بقرطاجنة. فحينما دب الهرم في دولة قرطاجنة ونخرت أعظمها من حروب اليونان والرومان أراد البربر ان يحفظوا استقلالهم فكان منهم ملوك سنرى أخبارهم فيما يلي هذا الفصل.

واستغناء البربر أولا عن تأسيس دولة ثم التجاؤهم ثانيا يظهر سره فيما أجاب به النعمان بن المنذر كسرى وقد عاب أمامه العرب بعيوب منها عدم انقيادهم لرجل يسوسهم. وهذا جوابه: «**وأما تركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف**».

حقا حفظ البربر استقلالهم بتأسيس تلك الممالك مدة. وقد كانوا ينجحون في إقصاء عدوهم لولا انقسامهم على رؤساء وأمراء كل يحارب الآخر. ولا أضر على الأمم من الحروب الداخلية والتهالك على الرياسة.

قبل ظهور الملوك العظام كان لعشائر البربر رؤساء هم نواة الملك الذي عظم من بعدهم. ونحن نذكر من أولئك الرؤساء ما اهتدينا إلى خبره، ثم نقفي بذكر الملوك العظام الذين قلما تجود بهم الأيام.

1- مطوس: كان زعيم العساكر المرتزقة التي ثارت على قرطاجنة سنة **238** (ق.م).

وذلك أن قرطاجنة كان لها من العساكر المرتزقة عشرون ألفا عجزت عن أداء أرزاقها بعد خروجها من الحرب البونيقية الأولى على ذلك الوجه المضر بها. فلم تعذرها تلك العساكر وثارت مطالبة بأرزاقها. فمنحت كل واحد دينارا (**صرفه مجهول**) فلم يرضهم ذلك. فوجهت لهم ضابطا يدعى حنون فعجز عن مقاومته. ثم عينت لكسر شوكتهم أملقار القائد العظيم[1].

2- نارفاس كان ملكا بمصيليا: ولما اشتدت ثورة العساكر المرتزقة وحاصروا عدة مدن منها بترت وعين أملقار لحربهم رأى انه لا يقوى عليهم إلا بمساعدة نارفاس. فاستماله ووعده بابنته. فأعانه وتمكن بذلك أملقار من محاربة الثوار. أخمد أولا ثورتهم فجددوها وبلغوا أن حاصروا قرطاجنة. فتمكن لأملقار أن يدافع طائفة منهم حتى حصرها بين جبلين. ولما ضعفت استأمنت له لكنه استأصلها عن آخرها. وبقي مطوس بمن معه محاصرا لقرطاجنة. فضاعف القرطاجنيون قوتهم حتى غلبوا مطوس وجنده.

3- غولة: هو ابن نارفاس خلف أباه على ملك مصيليا. وكانت عاصمته قرطة. فجري على سياسة والده من مصادقة قرطاجنة إلى أن توفي سنة **(206) ق.م.**

---

[1] منهم من يسميه عملكرض أو هملكار، وما أثبتناه في الأصل هو ما في ابن خلدون، غير أنه قال املقا، والظاهر أن الراء سقطت في التصنيف فقط.

4- **أصالساس:** هو ابن نارفاس أيضا. خلف أخاه على ملكه في عاصمته. وكان معه مصينيسا بصفة أمير. وبعد قليل توفي وترك ولدين هما: قولوسا، لكومسيس.

5- **قولوسا:** كان هو الأكبر سنا فانتصب مكان أبيه حسب نظامهم في أرث العرش. وثار عليه ثائر من الأسرة المالكة. لكنه ــ حسب القانون الوراثي ــ لا حق له في الولاية. ويدعى هذا الثائر مزوطيل. نشبت الحرب بين الملك والثائر وجموعهما. وانتهت بهلاك قولوسا.

6- **لكومسيس:** بعد ان فاز مزوطيل تنازل عن الملك لمن له الحق فيه وهو لكومسيس. وانتصب وكيلا عنه وكافلا له. فكان تنازل اسميا. وفي الواقع هو الملك.

كان من الواجب على قرطاجنة ان تتداخل في هذه الثورة لفائدة من له الحق في الولاية. لكنها وقفت موقف المتفرج. وكان مصينيسا ابن غولة بالأندلس مع القرطاجنيين في حرب الرومان. فلما بلغه خبر مزوطيل وأعراض قرطاجنة عن ثورته خرج من الأندلس مغاضبا للقرطاجنيين ومحالفا للرومان. قصد مصيليا ليطرد من عرشها مزوطيل ويتسلم هو مقاليد الحكم. فمر بمصيصيليا بملكة عدوة صيفاقس في شرذمة من الجند. وبلغه أن مزوطيل ذاهب لزيارة صيفاقس. فكمن له في بعض السبل وانقض عليه وعلى من معه وتقاتل حين وحكمت المعركة لمصينيسا .ففر مزوطيل بمن بقي من جنده. واستقر مصينيسا بعرش آبائه ملوك مصيليا.

7- **صيفاقس (230 ــ 202) ق.م:** صيفاقس من أعظم ملوك البربر. كان ملكا على مصيصيليا. وعاصمته صيغة، كان هذا الملك معاصر لغولة. ومن أخلاق ملوك البربر التنافس والتخاذل والاستعانة بالأجنبي. ولولا ذلك لكان الوطن البربري امنع على مريد اغتصابه من عقاب الجو.

ولهذا السبب كان هذان الملكان مختلفين: غولة حليف للقرطاجنيين، وصيفاقس حليف للرومان.

وفي سنة **(213)** أرسل إليه الرومان ضباطا يعلمون جنوده. وسار صيفاقس ضد غولة. فوقعت الحرب بينهما. وكان رئيس جيش غولة هو إبنه مصينيسا. وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة. فانتصر مصينيسا واخرج صيفاقس من عاصمته صيغة. فذهب إلى موريطانيا الغربية وجمع من أهلها جيشا ساقه لحرب مصينيسا. فعادت عليه الكرة أيضا. وذلك سنة **(212)**.

بعد انتصار مصينيسا صارت مملكة غولة تمتد إلى ملوشات غربا. فكان بذلك ملكا على مصيليا و مصيصيليا. وكان صدر بعل القرطاجني بالأندلس فجاء مددا لمصينيسا على صيفاقس. وبعد الانتصار عاد إليها بجيوش كثيرة تحت قيادة مصينيسا.

ولما توفي غولة وأعقبته ثورة مزوطيل .و لم تتداخل فيها قرطاجنة غضب مصينيسا وخالف قرطاجنة وحالف رومة.

كانت قرطاجنة تخطب ود صيفاقس وهو معرض عنها. ولعل تغافلها عن ثورة مزوطيل التي فيها فائدة صيفاقس كان بقصد استمالته. ولكنها خسرت بهذه السياسة صداقة مصينيسا. وإذا كان مصينيسا مع الرومان خالفهم القرطاجنيون إلى استمالة صيفاقس.

فكانت عليهم هذه المرة سهلة. وكان لصدر بعل بنت شهيرة تدعى «**صفو نيسب**» وعد بها مصينيسا فلما أيس من مناصرته عدل عن مصاهرته وزوجها من صيفاقس عدو مصينيسا.

اتخذ القائد القرطاجيني هذه الوسيلة شفيعا له في صداقة صيفاقس فنجح. وكيف لاينجح بمثل هذه الشفاعة التي يقول فيها الفرزدق:

ليس الشفيع الذي يأتيك متزرا

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

صدق صيفاقس في صداقته لقرطاجنة. وابتدأ عمله بمحاربة مصينيسا الذي انتصب بقرطة ملكا على مصيليا. فانتصر عليه وانتزع منه أغلب مملكته. ففر مصينيسا واعتصم ببعض الجبال. وذلك سنة **(205)** ومن معتصمه صار يغير على تراب قرطاجنة فأقلقها. وإذا ذاك رغبت من صيفاقس أن ينهي قضية مصينيسا إنهاء حاسما. فلباها وأرسل جيشا تحت قيادة بوكار. فشد الخناق على مصينيسا وفتك برجاله ولحقته هو جراحات عميقة أعجزته عن أي مقاومة. فرمى بنفسه في واد ونجا إلى الضفة الأخرى. وذلك ناحية قليبية من التراب التونسي.

بعد هذه الخيبة آوى إلى مغارة بسفح جبل ريثما يلتئم جرحه، ويستعيد قواه. وذاع أنه توفي. ولكنه كان يسعى سرا في جمع الجنود. وبعد استراحته ظهر لأهل مصيليا. فسرهم رؤيته وابتهجوا بوجوده، فانجدوه. وبعد قليل جمع (**6000**) من المشاة و(**4100**) من الفرسان.

و لم يكن صيفاقس بغافل عنه فجمع جموعه الكثيرة وقسمها جيشين أحدهما برئاسته والآخر بقيادة إبنه فرمينة. وكان مصينيسا بالجبال التي بين قرطة وهبون. فقصده صيفاقس. واصطدمت الجيوش وحمي وطيس الحرب. وأسفرت عن نجاح صيفاقس وهزيمة مصينيسا. ففر إلى بلاد السرت الاصغر (**قابس**).

إذ ذاك استقل صيفاقس بملك مصيليا ومصيصيليا بعدما كان استقل بهما غولة. وهكذا الدنيا إقبال وأدبار.

اتسع نطاق مملكة صيفاقس فاتخذ قرطة عاصمته سنة (**204**) وبينما هو متمتع بملكه العريض ومصينيسا شريد في الجبال والفيافي إذا نزل سبيون الإفريقي بجموعه في افريقية، فلاح بذلك بارق الامل لمصينيسا. وجاء بمن كان في صحبته نجدة لسبيون.

هنالك أرسل صدر بعل بن جسقون إلى صهره وحليفه صيفاقس فجاءه بستين ألفا مقاتلا ونزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل. نشبت الحرب بين القرطاجنيين والرومان. فأظهر سبيون الانهزام مكيدة وخاطب محاربيه في الصلح. وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين وحال دون اتصالهما بعضهما ببعض.

وفي الليل هجم هو مع قومه على صدر بعل، ومصينيسا في رهطه على صيفاقس. وأحرقا عساكر العدو بالنيران ومن بقي عن النار ألحقته السيوف. فكانت على القرطاجنيين وأنصارهم وقيعة كبرى وذلك سنة (**203**).

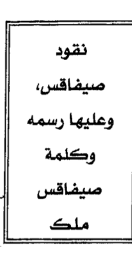
شجع هذا الانتصار سبيون على فتح قرطاجنة. ولكن لم يرد أن يورط نفسه فيه قبل استئصال أنصارها من البربر. فجهز جيشا لحرب صيفاقس بقيادة مصينيسا. فالتقى الملكان البربريان بجموعهما. فكبا بصيفاقس جواده في المعركة فأخذه مصينيسا أسيرا. وذهب به إلى قرطة واحتال لدخولها فدخلها. وأتى صفو نيسب وأراد التزوج بها. فلم يرق ذلك لسبيون خشية أن تستميله عنه إلى قومها. ولكنها أنهت الخلاف بينهما بقتل نفسها!

وبعث بصيفاقس إلى رومة. ومات بها سجينا سنة (**201**) وهكذا ختمت سعادته بالسيادة[1] وبسطته في السلطة. فمات سجينا بعيدا عن الأهل والولد. وذلك مآل سياسته في منافسته لابن وطنه، واستعانته عليه بالرومان أولا. ويسرني ــ وأيم الله ــ أن تكون هذه عاقبة كل من سعى في جلب الأجنبي إلى وطنه ليتقوى به على منافسه من أبناء جنسه .

---

[1] بالسيادة يتعلق بالسعادة.





نقود صيفاقس، وعليها رسمه وكلمة صيفاقس ملك

8- فرمينه (201–158): فرمنية هو ابن صيفاقس. قسمت رومة مملكة والده بينه وبين مصينيسا. وأعطته هو مصيصيليا مملكة والده الأصلية.

فرمينة ابن عدو الرومان ووارثه في أحقاده وضغائنه، ومع ذلك يعطونه مصيصيليا ولا يزيدونها لمصينيسا صديقهم ونصيرهم. قد يكون هذا شيئا عجابا. ولكن لاعجب مع السياسة. ولاصداقة ولاعداوة فيها. لو بسط مصينيسا نفوذه على مصيليا ومصيصيليا لكان ذلك مما يضر بنفوذ الرومان ويضعف من آمالهم في افريقية.وليس في وجود أميرين بربريين مايخشى منه ذلك. لأنهما إذا لم يكونا جميعا تحت نفوذهم فلا أقل من واحد يخلص لهم طمعا في الانتقام من الآخر.

و لم أعثر على ماينير لي حياة هذا الملك وما قام به أيام ملكه من الأعمال. ولا عثرت على نهاية ملكه سوى أن بعض المؤرخين ذكر أن

مصينيسا استقل بمصيليا ومصيصيليا سنة (**158**) فيظهر أن تلك السنة هي التي انقضى فيها ملك فرمينة إذ لايعرف بعده ملك على مصيصيليا قبل مصينيسا .

وهكذا بعدما عثر جد صيفاقس بعثار جواده وأخذ منه الدهر ما كان من طريف عزه وتلاده لم يكن لخلفه صيت ولاسمع له حسيس أو صوت.



نقود فرمينة، وعليها رسمه وكلمة فرمينة ملك

9- مصينيسا (201-149): مصينيسا بن غولة بن نار فاس. ربي بقرطاجنة. وكان سلفه حليفا لدولتها. فخاض مع القرطاجنيين حروبهم مع الرومان بالأندلس.

وقائد الرومان بالأندلس سبيون الإفريقي. وقد شاهد ما لمصينيسا من المقدرة الحربية. فصار يخاطبه في ولاء رومة. واتفق أن وقع مصيفا ابن

أخي مصينيسا أسيرا بيد سبيون سنة (207) فسرحه تقربا من عمه. كل هذا ومصينيسا محافظ على ولائه لقرطاجنة.

وفي سنة (206) توفي غولة وأعقبته ثورة مزوطيل. فلم تحافظ قرطاجنة على أمواله ومملكته. وذلك استخفافا مصينيسا الذي لولا اشتغاله بخدمتها لم يقع ما وقع بمملكته. فغضب لذلك واضطر لمحالفة الرومان.

رجع مصينيسا من الأندلس ومر بموريطانيا وطلب من ملكها بوكار شرذمة من الرجال لحمايته في طريقه. فأمده مصانعة وأغذ السير حتى دخل وطنه. فهرع اليه أنصاره.

وبدخوله وطنه دخل في حرب قريبه مزوطيل والملك الصوري لكومسيس. فكان النصر حليفه وفر ابن عمه لكومسيس إلى صيفاقس فأمده وأعاد الحرب ثانية. فعادت عليه الهزيمة. وبعد أن رأى مصينيسا عجز ابن عمه عن الحرب رق له وقربه وأشركه في الحكم. فجمع بذلك شمل أسرته وأعرب عن دهائه وحكمته.

لم يكن صيفاقس ولا القرطاجنيون ليرضوا بوجود مصينيسا على رأس حكومة مصيليا. و لم يجدوا سبيلا إلاأخذه من ناحية التفرقة والمشاغبة عليه برجل من عشيرته. لأنه سد هذا الثلم بالتساهل مع ابن عمه. فرأوا أن يبادروا اليه قبل استفحال أمره. فجمع له صيفاقس الجموع وحاربه مرارا حتى أخرجه من مصيليا والتجأ إلى السرت الاصغر.

أخرج صيفاقس من عاصمته كما أخرجه هو قبل ذلك بنحو ثماني سنوات. واشتغل بالسرت في طائفة من اصحابه بشن الغارات في تلك

الجهات إلى أن جاء سبيون إلى افريقية فانضم له وحارب معه حتى سقط صيفاقس في يده وعاد منصورا ودخل قرطة عاصمة سلفه. واعترف له الرومان بالسيادة على مصيليا. ومنحت مصيصيليا لفرمينة. وفي سنة (158) استقل بملك مصيليا ومصيصيليا كما كان والده استقل بهما قبل.

اتسعت من ذلك الحين مملكته وصارت تشمل مابين طرابلس ومراكش خلا ما كان من التراب التونسي تحت قرطاجنة. وبقي على محالفته لرومة. فكان يعنيها في حروبها خلف البحار بالرجال والأفيال والحبوب، يرسلها مع أبنائه ليتعرفوا إلى الرومان ويقفوا على طبائعهم في وطنهم وسياسيتهم في عاصمتهم. وكان شيوخ رومة يجازونه على إعاناته المادية بهدايا شرفية من تبجان ذهبية وقضبان عاجية وكراسي عاجية، وعلائل مطرزة بالذهب وحلل.

وكما كان يعنيها تلك الإعانات كان يعترف بسيادتها ويقول: **«إن رومة هي المملكة الحقيقية. وليس لي من مملكتي الا الاستغلال»**.

وكل هذا منه مصانعة وخداع اقتضته السياسة. أما غايته الحقيقية فهي الاستقلال بملك افريقية الشمالية والقضاء على القرطاجنيين وطرد المطامع الرومانية. وقد أدرك الرومان منه هذه الغاية فاستخدموه في أضعاف قرطاجنة عدوهم القوية. ولما فتحوا مقدونيا طلب مصينيسا من شيوخ رومة الإذن في زيارة عاصمتهم ليقدم قربانا للالهة **«جوبيتر»**

(**كوكب المشتري**). فلم يرضوا ذلك الطلب ـ أظن لأسرار سياسية ـ وأجابوه بوطنه آلهة فليقترب لها ان شاء.

كانت إعانة مصينيسا لرومة على ضربين: إعانات خارج افريقية غرضه بها مخادعة رومة بإبداء صداقته لها، وإعانات بافريقية غرضه بها إضعاف قرطاجنة كي يتمكن من تنفيذ برنامجه الاستقلالي.فأعانها في حرب زامة التي كانت للرومان على القرطاجنيين. ووقع بينهما ذلك الصلح الذي اشتمل على المادة السادسة لفائدة مصينيسا. ومن ذلك الحين أخذ في تنفيذ برنامجه. واستعد له بتنظيم الجيش وتنشيط الفلاحة والتجارة. وصار يتقدم نحو قرطاجنة ويختزل من أراضيها. فرفعت شكواها منه إلى رومة. وكررتها مرارا. فكانت رومة تغضي عن الإجابة أحيانا، وتعد على قرطاجنة مساعدة حنبعل لأمير الشام أخرى. وأخيرا وجهت ثلاثة من الخبراء لينظروا في قضية قرطاجنة ومصينيسا. فلم ينصفوها وأبقوا له ماملك من أراضيها.

ومازال مصينيسا على غاراته في تراب قرطاجنة. وهي تكرر شكواها منه لرومة حتى استمعت لها ووجهت ثلاثة خبراء أيضا. وكانوا يريدون تأييد قرطاجنة لأنهم يخشون من استفحال سلطان مصينيسا والقضاء على مطامعهم في افريقية اذ كانوا لاتخفى عليهم غايته. وكانوا يظنون قرطاجنة في حالة بؤس وضعف بحث لايخشون جانبها. فلما نزلوا بها وشاهدوا حسن حالتها خلاف ما كانوا يظنون رأوا أن انصافها يعزز

قوتها. وذلك مما يدفعها في المستقبل لتجديد الحرب مع دولتهم. فعدلوا عن قصدهم وتركوا ما كان على ما كان.

إذ ذاك عزمت قرطاجنة على أن تنصف نفسها بنفسها. فسعت في لم شعثها. وأخرجت من عاصمتها شيعة مصينيسا الذين كانوا يدعون إلى حماية التراب القرطاجني من الرومان بالدخول في طاعته والاستظلال برايته.

غضب مصينيسا من طرد حزبه. وأرسل إلى قرطاجنة اثنين من أولاده احتجاجا على ذلك. فقوبلا بكل ازدراء وامتهان. إذ ذاك أرسل ولده غولوسة إلى رومة مخبرا لدولتها بما صنعت قرطاجنة. فأرسلت رومة إليها تهددها بالحرب إن هي نقضت اليوم ما أبرمته بالأمس.

لم تحفل قرطاجنة بهذا التهديد. ولم يرتقب مصينيسا ما يكون من رومة. فهجم على الحدود. وخرج إليه صدر بعل بخمسة وعشرين ألفا من المشاة وأربعة آلاف فارس. فاقتتل الفريقان. وبرق لصدر بعل بارق الانتصار أولا. ثم استحر القتال. ولم يتبيّن غالب من مغلوب. فأراد صدر بعل ان يخاطب ـ وهو قوي ـ عدوه في الصلح. فأجابه مصينيسا بطلب رد الأسرى. فامتنع من ذلك. وعاد الفريقان للقتال. فانجلت معارك عن هزيمة صدر بعل. فطلب الصّلح من جديد. وتم على الصفة الآتية:

1- رد الأسرى من غير فداء.

2- إعادة المنفيين من حزبه لقرطاجنة.

3- غرامة حربية مقدارها خمسمائة حمل من الفضّة في مدة خمسين سنة.

4- وضع السلاح.

عاد القرطاجينيون بعد ذلك على عاصمتهم. وبينما هم سائرون إذ هجم عليهم غولوسة ففتك بهم فتكا ذريعا. وذلك سنة (**150**).

بلغ خبر هذه الحرب إلى رومة. فادعت على قرطاجنة أنها لم تحترم مواد الصلح الواقع بعد حرب زامة. حيث تعهدت إذ ذاك أن لا تحارب مصينيسا. ووجدت بذلك وجها لفتح حرب عليها. تلك الحرب التي انتهت بتدمير قرطاجنة وذوبان القرطاجنيين في غيرهم.

لزم مصينيسا في هذه الحرب البونيقية الأخيرة الحياد. فلم يعن الرومان. وهو الذي كان يعينهم في حروبهم خلف البحار. ذلك أنه كان يأمل ان يكون هو المالك لقرطاجنة تتميما لبرنامجه في الاستقلال بشمال إفريقية. فإن لم يحصل ذلك عاجلا فجوار قرطاجنة السلمية الضعيفة خير له ولجنسه من جوار الرومان الحربيين الأقوياء.

في سنة (**149**) أحس مصينيسا بدنو اجله. فأرسل إلى سبيون الأميلي ـ الذي سيكون فاتح قرطاجنة ـ ليوصيه على أولاده. فتوفي قبل وصوله.

كان مصينيسا ملكا عظيما ذا سياسة ودهاء وإدارة ونظام وعناية بالفلاحة والتجارة، صبورا على الشدائد ثابت العزائم، خاض غمرات الأهوال ولجج الخطوب بقوة جنان ورباطة جأش، حتى تغلّب على أعدائه

وأورث بنيه ملك ثابتا ونفوذا عريضا. كان لا يفرط في حظه من الملاذ أن ابتسم له الدهر، ولكن مع يقظة وحذر، فلا يغفل عن أحوال مملكته خوفا من تدبير ثورة. وكان له أسطور وجنود منظمة وسكة مطبوعة باسمه. وتلك آية الاستقلال. إذ لو كان تحت الرومان لكانت السكة باسمهم.

تعلم الفينيقية أيام كان بقرطاجنة في صباه. فكان ولوعا بها. واتخذها لغة الرسمية ونشرها في مملكته. ومع ذلك لم يكن أيام ملكه ميالا إلى الفينيقيين ولا متساهلا معهم في استقلاله. بل كان يراهم شامة سوداء في أديم مملكته. فلذلك حاربهم وطمع فيما تحت تصرفهم.

وهكذا فليكن حب الجنس. فلا يستبدل الحر بجنسه جنسا تعلم لغته وآدابه. وإنما عليه أن ينشر ما راق له من آداب تلك اللغة بين قومه مع المحافظة على جنسيته.

كان هذا الملك حلو الفكاهة رقيق القلب مع الصبيان مر الجد شديدا على من يمس استقلاله، متقشفا في نفسه متأنفا في مظاهر ملكه، فقد اتخذ بدار المملكة الخدم والحشم والخيل، ليبهر العامة حتى لا تطمع في خلع طاعته.

وكان قوي البنية: ولد له وهو في سن (86) وتولى رئاسة الجند والحرب وهو في سن (88) ومات بعد ما جاوز المائة. وقيل بلغ من العمر (89). وعلى رواية أنه حارب صيفاقس سنة (212) وعمره آنذاك سبع عشرة سنة فتكون ولادته سنة (228) ويكون عمره (79) فقط.

وإختلف في سنة ولايته أيضا: فقيل سنة (**201**) وقيل سنة (**207**). والظاهر ان صاحب الرواية الثانية اعتمد بما كان من ولايته قبل سقوط صيفاقس. ولكن من المتفق عليه بين صاحبي الروايتين أن مصينيسا لم يرجع من الأندلس إلا سنة (**206**). وهي السنة التي جلس فيها على عرش قرطة حتى شرده صيفاقس.

والخلاصة ان جمهور المؤرخين اتفقوا على مدحه ووصفه بالعظمة واستحقاقه للملك. قال بيروني عن فرنال: «**إن مصينيسا لم يعن الرومان إلا بقصد إسقاط قرطاجنة عدوته القريبة. ولو قدر له ان يعيش أكثر مما عاش خمسين سنة لحارب الرومان أيضا مثل ما فعل يوغورطة**».

وبالخروب قبر أحد ملوك نوميديا. ويظنّه مؤرخو الإفرنج لهذا العهد أنّه قبر مصينيسا. حدثني بذلك مرسي احد المؤرخين وأساتذة الكلية بمدينة الجزائر.



نقود الملك مصينيسا وعليها رسمه

10- مصيبسا MICIPSA (149-119): مصيبسا بن مصينيسا جلس على عرش المملكة بعد أبيه. وكان أعطاه خاتمه ترشيحا منه لخلافته. وأوصاه وبقية أبنئه بمسالمة الرومان لما يعلمه من قوتهم.

ولما وصل سبيون إلى قرطة ووجد مصينيسا قد توفي انتخب ثلاثة من أبنائه. فاجلس على كرسي المملكة مصيبسا وعين غولوسة قائدا عاما للجيش وعين **منستابعل**[1] وزيرا للقضاء. ولم يفعل سبيون بذلك سوى ما يتفق ورغبة مصينيسا. حيث أنه هو الذي رشح مصيبسا للملك وكان يعطي رئاسة الجند لولده غولوسة منذ كان حيا.

ولما سقط قرطاجنة في يد الرومان بقي مصيبسا على عرشه لم يضره ذلك السقوط ولم يزعجه جوار الرومان لحدوثه. ثم مات أخواه فاستقل بالملك سنة **(145)** وإعتاض عنهما بابنيه آذر بعل وهيمصال. وكان لأخيه منستابعل إبن تلوح عليه آيات الفطانة والشجاعة يدعى يوغورطه. فأضافه إلى ولديه ونزله مترلتهما. ووجهه مرة سفيرا عنه إلى رومة.

كان مصيبسا مسالما للرومان جريا على سياسة والده ووصيته. وكان يعين رومة في حروبها. ففي سنة **(133)** كانت مشتغلة بحرب ضروس. فأعانها بجيش جعله تحت قيادة يوغورطة. يقول بعض المؤرخين: ولعلّه كان يريد من إرسال يوغورطه إلى هذه الحرب هلاكه والاستراحة منه. لأنه كان يخشى منه مناهضة أبنائه.

---

[1] سماه اغسال والكعاك مصتنا بعل.

كانت مملكة مصيبسا تشمل ما بين ملوشات[1] غربا والسرت[2] شرقا. فهي عبارة عن وطن الجزائر اليوم وبعض تراب مراكش غربا. إن قلنا ـ كما هو الصحيح ـ إن ملوشات هو ملوية. وتمتد شرقا إلى تراب طرابلس لا ينقص منها إلا الولاية الرومانية الضيقة بعمالة تونس.

وقد سار هذا الملك بهذه الدولة الواسعة سيرة محمودة. ودبّرها تدبيرا رشيدا. فعاش البربر تحت عنايته بسعادتهم عيشا رغدا. لم يرم بهم في الحروب تلذذا بسعة النفوذ. ولا كان يعتني بشخصه ويهمل شأن أمته. فيعم الفقر ويقل الأمن. ولا كان ظلوما جائرا. فيضطر الناس إلى الثورة. بل كان سياسيا حكيما وحاكما عادلا.

كان محافظا على عاصمته قرطا وعاملا لترقيتها وتحصينها. فجلب إليها أهل العلم والفن من الأجانب. وأصبحت على عهده مدينة علم وجمال ورفاهية. قال بارس في كتابه قرطة: «**ويذكر المؤرخ ابيان ان مصيبسا حصنها تحصينا لا يمكن معه لأحد أن يفتحها عنوة وجلب لها طائفة من اليونان. وزاد في تحصينها وخصبها حتى صارت يمكنها ان تجند عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل. وبعد وفاته وانتصاب آذر بعل بها حاصرها يوغورطه ولم يتمكن من فتحها إلا بعد أن أضرت المجاعة بأهلها**».

---

[1] هو ملوية وقيل المقطع.

[2] السرت اسم لخليجين أحدهما خليج قابس وثانيهما خليج طرابلس. والثاني هو المراد حسبما تفيده عبارات المؤرخين في غير موضع.

وقد كان مصيبسا نفسه مكبا على العلم. فاشتغل بالعلوم اليونانية، والرومانية حتى برز فيها، وتصبح عالما مضطلعا بالفلسفة.وما اسعد امة يحكمها ملك عالم غير متأثر بأمة أساتذته من الأجانب ولا مقدم لها على قومه.

ولما أحس بدنو اجله جمع ابنيه وابن أخيه وأوصاهم بالإتحاد في السلم والتعاون على حفظ المملكة، حتى لا ينفرط عقد عزهم وتذهب دولتهم ضحية الشقاق.

وفي سنة (**119**) أدركه حمامه بعدما أدار دولته أحسن إدارة ثلاثين سنة. وترك مملكته الواسعة في هناء واطمئنان ذات عمران مستبحر لم تنقصه الثورات الداخلية ولا عطلته الحروب الخارجية.

11- هيمصال الأول HIEMSAL I (118): لما توفي مصيبسا لم يأخذ ابناه وابن أخيه بوصيته. فاختلفوا وتنازعوا أمرهم بينهم. ثم اصطلحوا واقتسموا الأموال وفرقوا وحدة المملكة: أخذ يوغورطه القسم الغربي منها من صلداي إلى ملوشات. واقتسم الإخوان الباقي بينهما وهو أوسع نطاقا وأوفر عمرانا.

لم يكن هذا الصلح مرضيا للمتنازعين. وإنما هو ظاهري وفي الباطن كل ينوي نقضه متى أمكنه النقض. ابنا مصيبسا يريان الحق لهما في ارث عرش أبيهما، فهما يعدان ما أخذه ابن عمهما ظلما، ويتربصان به غرة لقتله أو فرصة لحربه كي يسترجع حقهما المغصوب، ويوغورطه يرى

أنهما جارا عليه في القسمة، فهو لم يقبلها ظاهرا إلى بنية اكتساب قوة يستعملها ـ متى سنحت فرصة ـ ضد ابني عمه.

كان هيمصال أقدر من أخيه. فكان يوغورطه يخشى منه ما لا يخشى من آذر بعل. فاستعمل الحيلة للاستراحة منه: لم يكن إلا أمد قليل حتى دس يوغورطه من قتل هيمصال في مدينة ترمدة من مدن ولاية رومة الحديثة. وذلك سنة (**118**) فلم تطل مدته حتى تتعرف سيرته في رعيته، وأعماله في العمران والحضارة وسياسته مع الرومان.

12- آذر بعل ADHERBAL (118 – 112): انتصب آذر بعل ملكا بقرطة بعد وفاة ولده واقتسام مملكته.وبعد ان قتل يوغورطه أخاه هجم عليه وأخرجه من عاصمته لأول معركة وقعت بينهما.

ذهب إذ ذاك آذر بعل على الولاية الرومانية بافريقية مستنجدا بواليها على ابن عمه فلم ينجده. فسار على روما. ولما بلغها وجد بها رسلا من قبل يوغورطه. وجههم بأموال ليستميلوا إليه بعض عظماء الرومان. أبدى آذر بعل فصاحة نادرة ومنطقا محكما في الاحتجاج لنفسه واضهار جور ابن عمه وخبثه. ولكن لم تجد عليه فصاحته عطف الرومان حيث ان ابن عمه اشتراهم بالأصفر الرنان. ولما ألح على رومة في طلب النظر في قضيته عين شيوخها عشرة من الخبراء تحت رئاسة لسيوس أبميوس ليفصلوا القضية. وكان هذا الرئيس يميل على يوغورطه. نظر الخبراء القضية بمرآة الإغراض فأنتج بحثهم خلاف ما يريد آذر بعل. وذلك أنهم

أعطوه نوميديا الأصلية وأعطوا يوغورطة، نوميديا الغربية وذلك سنة (114).

صار يوغورطه بهذا الفصل أقوى منه قبله. وصار آذر بعل اضعف من حاله سابقا. وهذا لم يخفى على الخبراء ولكنهم تعمدوا إعزاز جانب يوغورطه الذي سد مجرى الحق بصرة من الدنانير.

لم يكن يوغورطه ليقنع بشيء دون الاستقلال بمملكة عمه و لم يكن هناك ما يقف في سبيله: البربر يحبونه، وأن عمه ضعيف عن مقاومته، ورومة لا يصعب عليه استمالة رجالها. ففكر في إيجاد سبيل لبلوغ أمنيته وتحقيق برنامجه. و لم يشأ أن يقدم على حرب ابن عمه لأنه لا يجهل ان رومة لا تسمح له بالاستقلال دون ابن عمه حيث ان سياستها تقضي عليها بالإكثار من الملوك البربرين وإذكاء نار المنافسة بينهم.

رأى يوغوررطه ان أحسن ما يبلغ به أمنيته التوقي من مشاغبة رومة عليه بملوك البربر. وكان يجاوره بوكوس الأول ملك موريطانيا. فسبقها إليه واستماله إليه قبل الدخول في حرب آذر بعل وتقرب منه بالمصاهرة فتزوج ابنته. وبهذه الوسيلة أمن يوغروطة ناحية بوكوس.

إذ ذاك أخذ يغير على حدود مملكة آذر بعل كي يستفزه لحربه. ويتخذ ذلك سببا لحربه يقطع به معاكسة رومة له. ولكن آذر بعل تحمل تلك الغارات واصطبر لها لعجزه عن مقامة يوغورطه وخيبته سابقا في الاستنجاد برومة. رأى يوغورطه استكانة ابن عمه فعزم على تنفيذ برنامجه

وهجم عليه. واجتاز الحدود بجنود كثيرة. هنالك رأى آذر بعل لزوم الحرب. فتهيأ لها بما لديه من الجنود وخرج لملاقاة يوغورطه.

تقابل الجيشان و لم يتبارزا. وكان آذر بعل ينوي محاربة ابن عمه من الغد. ولكن يوغورطه كان أشد حزما وأمضى عزما. فأمر جنوده بالهجوم ليلا. فدارت الحرب بين الفريقين. وبعد قتال شديد انهزم آذر بعل وفر إلى قرطة. فلحقه يوغورطه وحاصره بها. وكانت المدينة في غاية الحصانة بموقعها وعناية مصيبسا بتحصينها. وكان بها صناع وتجار ايطاليون. فتحزبوا لآذر بعل.

بلغ خبر هذه الحرب إلى رومة فلم يرق لها صنيع يوغورطه. وأرسلت إليه في رفع الحصار والكف عن محاربة ابن عمه مع ثلاثة من النواب. فقابل يوغورطه هؤلاء النواب مظهرا لهم احترامه لرومة. ولكنه لم يمتثل نهيها واستمر محاصرا لقرطة. فأرسلت إليه رومة رسلا آخرين. وتعين الاجتماع بعوتيقة. فذهب إليها. وأوعز لجنوده بتشديد الحصار. ولما اجتمع برسل رومة اكتفى بإظهار احترامها أيضا.

دام حصار قرطة عامين وبلغت المجاعة بأهلها مبلغا وعلموا خيبة رسل رومة في المفاوضة مع يوغورطه. فرأى آذر بعل أن يفتح الكلام مع ابن عمه. ففاوضه في رفع الحصار وأذعن لحكمه واستأمنه على نفسه. فأمنه ودخل المدينة. ولكن خان العهد. فقتل ابن عمه ومن فيها من شيعته حتى الإيطاليين.

وهكذا انتهت حياة هذا الملك الذي يظهر من التجائه إلى رومة في كل مايعرض له الصعوبات انه وقدته الحضارة. فأصبح لايريد الا استغلال جهود آبائه. وان وطنا كالوطن البربري جعلته دولة قوية كرومة نصب عينها لاستعماره لايصلح أن يكون على رأس حكومته إلا مثل يوغورطه شجاعة حربية ودهاء سياسيا.

13- يوغورطة JUGURTHA (118-104):

يوغورطه بن منستابعل، يقول مرسيي: أنه لغية. كان فارسا من أشهر فرسان البربر وقائدا من أعظم قوادهم. وقد عرف له عمه مصيبسا مقدرته وغناءه فقربه اليه وأشركه مع ولديه في شؤون الدولة. ثم عرف جرأته وخشيه على ابنيه فوجهه ذات مرة قائد جيش بعثه إلى رومة إعانة لها في بعض حروبها. ورجا أن يهلك في تلك الحرب ويستريح منه.

خاطر يوغورطه بنفسه في هذه الحرب وأظهر شجاعة نادرة. وعرف كيف ينجو بنفسه من الهلاك مع المحافظة على عظمته .فأعجب به الناس كلهم في هذه الحرب. وأحبه البربر حبا شديدا. ورجع إلى وطنه يحمل لقب بطل عظيم. فزاده ذلك تأثيرا على البربر. واكتسب شرفه وصيته من حيث أراد عمه حتفه.

كان هذا البطل العظيم متقمصا روح مصينيسا وعاملا على تحقيق برنامج كان ذلك السلف يعمل له. وهو الاستقلال بالوطن البربري في حدود مملكة أسلافه وطرد الرومان من افريقية نظير ما كان ينويه مصينيسا من طرد قرطاجنة. فلما توفي عمه لم ير في ابنيه أهلية لتحقيق

هذا البرنامج. لأنهما لم يعرفا رومة كما عرفها. فهما يخشيان سطوتها ويريدان التمتع بلذة الملك تحت ظلها.

ابتدأ يوغورطة في تحقيقي برنامجه الاستقلالي بمنازعة ابني عمه على الملك حتى اقتسموه بينهم. ثم اغتال هيمصال. وتخلص لحرب آذر بعل حتى قتله سنة (112) واستقل إذ ذاك بملك سلفه. وأصبح لا يد فوق يده.

لم تكن مقصد يوغورطه في الاستقلال بوطنه وطرد النفوذ الروماني منه واضحة للرومان. فانه كان يسترها أحيانا بالخداع السياسي وأخرى باشتراء ذمم رجالهم. فلما دخل قرطة واستأصل منها شيعة ابن عمه من البربر والايطاليين الذين هم في الواقع شيعة رومة اتضحت للرومان مقاصده وأدركوا أنه كان يسوسهم بالختل والمراوغة. فعزموا على المبادرة لحربه وعدم إمهاله في هدم آماله.

لما عزمت رومة على حربه أرسل إليها ولده واثنين من خواصه لعرض طاعته. فلم يأذن شيوخها بمقابلة رسله ولا قبلوا طاعته لعلمهم أن ذلك خداع سياسي فقط لاحقيقة له.

كان بوكوس مصافيا لصهره.فلما بلغه ما آل اليه أمره مع رومة خشي ان يكون له على ولائه له حظ من غضبها. فمال عنه وأظهر طاعته للرومان.

أرسلت رومة جنودها تحت قيادة بستيا. فجاء هذا القائد على طريق صقلية. ودخل في الحرب مع يوغورطه. واشتبكت القوتان بجهات

باجة. وانتصر بستيا في تلك المعارك انتصارات باهرة. فازداد خوف بوكوس من غضب رومة. وأرسل إليها يؤكد طاعته لها.

كان يوغورطة يعتقد ـ عن بصيرة ـ أن رجال رومة خربوا الذمم لايمتنعون من الرشوة. فكان إذا أعجزته القوة التجأ إلى المال. فاستمال بهذا الوجه بستيا لما أتنصر عليه. فتساهل معه هذا القائد في الصلح. واتفق معه على ان يأخذ منه أفيالا وخيل وأنعاما وأموالا. وخرج يوغورطة من ورطة هذه الحرب بسلاح الرشوة.وذلك سنة (**111**).

علمت رومة بالصلح فلم ترضه. وأرسلت إلى يوغورطة بالحضور ليشرح لدى مجلس شيوخها حقيقة هذا الصلح. ووجهت لسيوس كيوس اليه ليستصحبه معه. فذهب يوغورطة إلى رومة و لم يمتنع عن الحضور أمام مجلس شيوخها بعد ماكان محاربا لجنودها. ولما بلغها وجد حوله دسائس شتى. ولكنه أبرع رجل يحسن العوم في مثل هذه اللجج فتوصل إلى استمالة نائب من نواب الشعب. ولما مثل بين يدي مجلس الشيوخ لم يكتفي هذا النائب بالمحاماة عنه. بل أمره باحتقار التهم الموجهة إليه وعدم الإجابة عنه. وذلك لئلا يطالب بالبينة على صحة مايقول. وهو ما لايجده بحال.

لم يجد شيوخ رومة من استحضار يوغورطة أدنى فائدة. و لم يضره هو حضوره بل استفاد منه. وذلك أنه كان لعمه غولوسة ابن يدعى مصيفا ذهب إلى رومة مطالبا بحقه في المملكة، ومشاغبا عليه. فدس له من قتله بواسطة بوملكار. ونجا من تبعته أيضا. وسهل لبوملكار طريق الفرار.

بعد ذلك أمر يوغورطه بالخروج من إيطاليا. فقال عند خروجه من رومة كلمته الخالدة: «**أن رومة مدينة مباعة لمن يريد إشتراءها**»[1] وزاد بنجاته من بطش رومة بعدما مثل بين يديها جرأة وأصبح لها حدا لأقدامه.

بقيت صدور الرومان وغرة على يوغورطة. فأرسلوا إلى ألوس ـ وكان قائدا بافريقية ـ يأمرونه بالهجوم على يوغورطة، وأنهم لم يرتضوا الاتفاق الواقع بينه وبين بستيا. امتثل هذا القائد وهجم على يوغورطة. ولكن ذلك الهجوم أعقبه انهزام. فان يوغورطة هجم بجنوده على ألوس وجيوشه على حين غفلة وقد كان ألوس طامعا في فتح ستول (**قالمة**) وأخذ ما فيها من أموال يوغورطة ومؤنه وذخائره. خاب أمل ألوس وخضع ليوغورطة خضوعا شائنا لشرف رومة :إذ أجله عشرة أيام للخروج من نوميديا، وأبقى جنده تحت الذمة.وذلك سنة (**109**). واعتذر لخيبة ذلك القائد بأنه كان ضعيف الرأي والوقت وقت شتاء. وارى ضعفه إنما هو بالقياس إلى يوغورطة، وإلا فكيف تعتمده دولته لقيادة حرب ضد رجل لاتخفى عليها مهارته الحربية؟

ساء رومة انكسار قائدها وبقاء جنودها تحت ذمة من كانت ترجوا أن يكون تحت ذمتها. فعين شيوخ دولتها مكان ألوس أخاه البينوس. فلم يجد هذا القائد أيضا نفعا لعجزه أو جهله أو تقصيره.

---

[1] المباعة من أباع الشيء عرضه للبيع. وعلى هذا المعنى حمل قول الشاعر:

ورضيت آلاء الكميت فمن يبع فرسا فليس جوادنا بمباع

بعد هذه الخيبات التي كل واحدة منها تربو على ما قبلها جد جد الدولة. فاختارت من بين رجالها رجلا مخلصا لدولته نزيها عن الرشوة عارفا بمهمته الحربية من أهل الطبقة العليا. هذا الرجل هو ميتلوس. وكان يوغورطة يعرفه ويعرف منه تلك الصفات. وكانت الدولة تريد باختيارها لهذا الرجل أن تغسل عنها عار تلك الانهزمات وتحافظ على شرف عظمتها وتؤيد سمعتها الرهيبة.

نزل ميتلوس عوتيقة. فوجد الجنود قد ساءت حالتهم الأدبية وتمردوا عن الطاعة. فأخذ في تنظيمهم. وأراد يوغورطه ـ على معرفته به ـ أن يعجم عوده. فأرسل اليه يلاطفه ويداهنه. فلم تكن بضاعته هذه المرة رائجة لاخلاص ويقظة هذا الروماني. ولم يكن هو يعتقد رواجها فاستعد للحرب.

جمع يوغورطة بكل نشاط جنوده وقسمهم إلى فرسان تحت قيادته ومشاة معهم الأفيال تحت قيادة بوملكار. وكان الجيش الروماني على قسمين أيضا: أحدهما برئاسة ميتلوس ،والآخر برئاسة مريوس.

في سنة (**108**) تقابل الجيشان بشمال تبسة، بعدما إستولى ميتلوس على باجة، واشتد القتال من الجانبين. وأخيرا دارت الدائرة على يوغورطة. وشعر بعجزه عن مقاومة الرومان بالقوة. فجبر عجزه ذلك بقوة دهائه. وأخذ يتقهقر بانتظام نحو الصحراء والقفر. وعلم البربر ضربا جديدا في القتال لئلا يجر عليه تقهقره إنهزاما عاجلا: أوصاهم بعدم الكف عن إقلاق الرومان بالغارات من دون انقطاع، وان لا يصطفوا لهم بل

يكونون جماعات متفرقة تكر إذا رأت في العدو غرة وتفر ان رأت الفر خيرا. ومن هذا الحين تعلم البربر حرب الكر والفر. وبهذا الأسلوب الحربي الجديد لم يتمكن لميتلوس أن يتمادى في إنتصاراته على يوغورطة.

جبر يوغورطة انهزامه باختراع حرب الكر والفر. وصار يتأخر نحو الصحراء، كي يبعد عدوه في القفر ثم ينقلب عليه فيشتت شمله. ولكن ميتلوس شعر بذلك. فلم يتتبعه. وبقي جيشه بشمال تبسة مشتغلا بتخريب عمران البربر وإفساد فلاحتهم وحصار المدن التي لم تخضع لقوتهم. وقد ثبت أهل زامة في مقاومة الرومان حتى أدركهم يوغورطة وأجلاهم عنهم وفك حصارهم. ولم تثبت المدن التي احتلها الرومان في هذه الحرب تحت نفوذهم بل خرجت من قبضتهم.

ولما رأى ميتلوس أن قوته لا تجديه أمام دهاء يوغورطة، وإن انتصاره عليه لم يجن منه أي فائدة عدل عن الهجوم واختار ان يقابل يوغورطة بالخداع وان يأخذ بسلاح الخيانة. وكان الشتاء قد حل وحال بينه وبين أعماله التخريبية. فعاد إلى الولاية الرومانية. وتفرغ لتدبير مكيدة ليوغورطة. فأرسل إلى قائده بوملكار يطعمه في دولة ملكه أن هو أعانه على خديعته. فحدثت بوملكار نفسه بخلافة يوغورطة في عظمته. وانخدع ليتلوس. وطابت نفسه بخيانة ملكه ووطنه. فأخذ يشير على يوغورطة بترك الحرب وطلب المفاوضة في الصلح حتى أثر عليه وتفاوض مع الرومان. وتمت المفاوضة بالإتفاق على مواد الصلح واخذوا في تنفيذها. وكان منها تسليم عدد عظيم من الأفيال والأموال والأسلحة،

ورد الفارين من الجيش الروماني. ونفذت هذه المواد. ثم صار ميتلوس يلح على يوغورطه في زيادة مركزه. وإذ ذاك شعر بالمكيدة واتضحت له خيانة بوملكار. فمثل به وقتله. وهكذا فليكن سلم الخيانة: لا يبعد صاحبه فيه المرتقي حتى يسقط على أم رأسه من غير أن يفوز بأمنيته.

ولما خاب ميتلوس في هذه السياسة و لم يقع بشركه قنصه عاد إلى الحرب. واستأنف أعمال التخريب والتدمير. فذهب إلى باجة وافتتحها من جديد ومثل بأهلها.

وفي سنة (**107**) هجم ميتلوس على نوميديا وفر أمامه يوغورطة إلى قرطة. فلحقه وافتتحها. ففر يوغورطة إلى الجنوب. ثم عاد بأهله وأمواله إلى تالة. فتحصن بها. فذهب إليه ميتلوس وأخرجه منها. فلحق بلجيتولين وتحصن بهم. واخذ في تنظيمهم. وأرسل إلى صهره بوكوس ـ وكان ميالا للرومان ـ يستميله إليه. ففتل له في الذروة والغارب. وخوفه إستيلاء الرومان على مملكته ان هم جاوروه بنوميديا. فجلبه إليه. وجعلا موعدا للملاقاة. فالتقيا واتفقا على حرب الرومان. فقصدا بجنودهما قرطة. ولما بلغ الخبر ميتلوس. فخرج منها. ونزل مركزا يليق للدفاع عنها وعن سائر نوميديا.

وفي هذا الحين بلغ ميتلوس ان مريوس رفعته الأمة إلى رتبة قنصل بافريقية. وأعطي رجالا وأموالا ليتمم حرب يوغورطة. فترك الجنود على حالها. وذهب إلى رومة. ولم نزل أثناء سنة (**107**).

جاء مريوس بطائفة من العساكر. ونزل عوتيقة. وانضافت جنوده إلى الجنود التي بافريقية من قبل. فبلغ جيشه نحو خمسين ألفا. وباشر الحرب حينا.

لم يخرج ميتلوس من افريقية حتى أفسد بوكوس على يوغورطة فصار غير واثق بنصرته. فلما برز له مريوس لم يصطف له. بل استمر على حرب الكر والفر: يهجم بفرسان جيتوليا على الرومان حتى يصل إلى مراكزهم، ثم يعود إلى أماكن بعيدة قبل ان يستعدوا لمقاومته. وفي هذا الوقت كان خط الصحراء جميعه تحت طاعته. ووضع أمواله وذخائره بقفصة. فعلم بها مريوس. فذهب إليها ودخلها واخذ تلك الأموال والذخائر واحرق المدينة.

كان غرض مريوس ان يلجيئ يوغورطة إلى الناحية الغربية لتكون قرطة تحت يده ويتخذها مركزا عاما للجيش. فلما احتل قفصة نار غرضه. وانتقل يوغورطة إلى الناحية الغربية. فصار مريوس أثره وحاربه بالزاب والحضنة وجبالهما شمالا وغربا. حتى انه استولى على مدينة حصينة فوق جبل عال. وهي من قلاع البربر التي يحسنون وضعها على الكهوف الصعبة المرتقى. وكان بهذه المدينة بقية أموال يوغورطة كل هذا وبوكوس على الحياد.

لما انتقلت الحرب إلى الناحية الغربية أعاد يوغورطة خطابه لبوكوس في التعاون ضد الرومان. ووعده على نصرته ثلث نوميديا. فلباه والتقيا. واجتمع باتحادهما عدد عديد من الجنود بارزا بها جنود مريوس. واشتد

القتال يوما كاملا. وأحاط البربر ليلا بالرومان. وأوقدوا النيران يغنون ويرقصون واثقين بانتصارهم على عدوهم. وفي الغد أخذهم تعب السهر. فهجم عليهم الرومان في هذه الحال. وفتكوا بهم فتكا ذريعا. ومن نجا من الموت ركب متن الفرار.

ذهب مريوس إلى قرطة بعد هذا الانتصار. فاعترضه البربر في الطريق. وهم من جنود يوغورطة وبوكوس. وانقسموا أربعة أقسام. ودامت المعركة بشدة ثلاثة أيام. وكانت غرب سطيف. وجاء صيلة لددا لميروس. وأسفرت هذه الواقعة عن انتصار مريوس. فأتم سيره حتى دخل قرطة. كل هذا و لم تتم سنة (**107**).

لم يرى بوكوس انتصارا يشجعه وهو من رجال الاستغلال من أبطال الاستقلال. فأرسل رسله إلى مريوس في طلب الصلح. ولما بلغوا قرطة وجههم مريوس إلى روما ليقدموا مطلب أميرهم إلى مجلس الشيوخ. ووجه صيلة رسولا إلى بوكوس. وبعد مسيرة صيلة خمسة أيام التقى في الطريق بفولوكس بن بوكوس الذي وجهه والده لملاقاة رسول مريوس.

لما وصل صيلة إلى بوكوس وجد عنده رسولا من قبل يوغورطة. فأوجس في نفسه خيفة. ولكنه فاز بدهائه وجبن بوكوس على رسول بوغورطة. واتفق هذا الرسول الروماني وذلك الملك البربري على خديعة يوغورطة. وتجدد بذلك دور ميتلوس و بوملكار. وإذا كان يوغورطة قد نجا إذ ذاك فقد قدر عليه ان لا ينجو هذه المرة ولا ينفع حذر من قدر.

ابتدأ دور الخداع بمراسلة يوغورطة بطلب الاجتماع للمفاوضة في الصلح. فلم ينس دور ميتلوس وبومكار. وأراد أن يتوثق لنفسه. فأرسل إلى بوكوس يجيبه إلى المفاوضة بشرط تسليم صيلة له بصفة ضمان. فتردد بوكوس أياما بين أن يسلم صيلة ليوغورطة أو يوغورطة لصيلة. أخيرا اختار ـ وبئسما اختار ـ أن يسلم ابن جنسه وبعل ابنته للرومان ترضية لهم. فاقتطع ليوغورطة عهودا على الأمان. فانخدع له. وما كان لينخدع لمن هو أدهى منه لولا المصاهرة والجنسية.

اتفق الاثنان على الاجتماع بصيلة بشرط أن يكون الجميع مجردين من السلاح. ودس صيلة عساكر مسلحة. ولما اجتمعوا انهالت تلك العساكر على يوغورطة وأوثقوه! ثم ذهبوا به إلى مريوس. وذلك سنة (**106**).

وفي أول سنة (**104**) ذهب مريوس إلى رومة في أبهة النصر وأمامه يوغورطة بلباسه الملوكي موثقا بالاغلال. فأودع السجن إلى ان مات به من شده الجوع وكلب البرد!

وهكذا ختمت حياة بطل الحرب وداهية السياسة ورجل الاستقلال. شغل رومة مدة نحو سبع سنوات بحروب تعبت فيها تعبا شديدا. ولم تر منذ نزلت بافريقية حروبا تضاهي حروب يوغورطة التي اشتهرت في عالم التاريخ القديم حتى خصت بالتأليف. ولم تحصل من خوضها لغمرات هذه الحروب على طائل سوى أخذ شخص يوغورطة بالخديعة والخيانة.

وكما شغل هو رومة شغلته هي أيضا عن ترقية وطنه. فإن ذلك الذكاء النادر لو وجد في عصره هناء مصيبسا لأربى عليه في رفع مستوى دولته من حيث العمران والحضارة ولحصن استقلالها بأكثر مما حصن به سلفه قرطة.

ليس في انتصار رومة على يوغورطة أدنى شرف لها أو ضعة له. بل ما لها فيه إلا العار والشفار، وما له منه إلا المجد والفخار.

وقد جلب بوكوس بمصافاته للرومان تكدير حياة البربر بالقضاء على زعيم استقلالهم وتشجيع الرومان على امتلاك وطنهم. ومن نظر خاتمة يوغورطة مع صهره وجده أحق الناس بقول الشاعر العربي:

وإخوان حسبتموهم دروعا فكانوها، ولكن للأعادي
وخلتهمو سهاما صائبـات فكانوها، ولكن في فؤادي



نقود الملك يوغورطة، وعليها صورة بطل



نقود الملك يوغورطة، وعليها رسمه

14- غودا (104-102): غودا هو ابن منستابعل. وأخو يوغورطة. تولى الملك بعد اعتقال أخيه. وذلك أن رومة لم تجسر ــ بعد إلقاء القبض على يوغورطة ــ على ابتلاع مملكته خيفة العجز عن الهضم وسوء المغبة. فأرجأت تملكها إلى حين. وأخذت تمهد لذلك بتفرقة البربر على الأمراء، وإضعافهم بالفتن الداخلية التي تكثر بكثرة الأمراء.

وقد نجحت في هذه السياسة. فأصبح أمراء البربر مشاركين لرومة فيما يقع بها من الفتن الداخلية، ومنقسمين على زعمائها: كل يؤيد زعيما برجاله وأمواله. فما من هول يقع برومة إلا وكان صداه بالوطن البربري حتى أن الزعيم الروماني الذي يكتب له الفوز هو الذي يكون له النجاح بإفريقية الشمالية.

اقتضت تلك السياسة أن لاتمتلك رومة مملكة يوغورطة ولا تدعها تحت أمير واحد. فقسمتها بين غودا وبوكوس صهره. وكانت نوميديا

الأصلية نصيب غودا. وهي تنتهي غربا بصلداي. ولكنه لم يتمتع بها كثيرا إذا توفي بعد ذلك بقليل واقتسم أبناؤه مملكته.

جلس غودا على عرش نوميديا وهو شيخ كبير السن و لم تطل مدته ولا كان له في عنفوان شبابه عمل يشتهر به. ناهيك أنه لم يكن له ذكر في حروب أخيه. وهذا ماتركنا نجهل غودا ولانعلم شيئا عن أعماله .بل ان عصره كان فاتحة عصر مظلم. قال مرسيي: «**وهذا العصر كله مظلم أمام المؤرخ لفقدان الوثائق التاريخية عنه**» وغاية ماعلم عن غودا أنه كان رجلا ضعيف الرأي مسالما للرومان خادما لمطامعهم. ومثل هذا هو الذي تقدمه رومة للملك أضعافا للأحرار واخفاتا لصوت الوطنية.

15- بوكوس الأول (104-80): بوكوس الأول كان ملكا على موريطانيا الغربية **(مراكش)** حوالي سنة **(116)** ومسالما للرومان. ولما كان يوغورطة يعلم منه ذلك ويعلم من نفسه عداوته لهم أردا أن يجلبه إليه قبل الشروع في تنفيذ برنامج عداوته. وقد نجح في ذلك فحارب به الرومان بعد ماحذره إياهم ونفخ فيه نسما من روحه. ولكن «**ليس التكحل في العينين كالكحل**» فعاد أخيرا إلى نصرة الرومان وأعانهم على إلقاء القبض على يوغورطة بالخديعة والخيانة. ولولاه ما أمكن الرومان أن ينالوا شيئا من يوغورطة. وقد ترك بفعلته تلك في تاريخه نقطة سوداء بل بحيرة حمئة. ويصعب علي الاعتقاد بأنه شارك الرومان في بشاعة هذه

الخيانة. ويظهر أي انه كان قليل التدبير فانطلقت عليه حيل صيلة واغتر به فغر غيره. وحينما شاهد الخيانة أغضى عنها ضعفا وجبنا.

وعلى كل حال فان رومة منحته ـ جزاء ذلك ـ جزءا كبيرا من مملكته يوغورطة، وهو ما بين صلداي ملوشات، إضافة إلى مملكته القديمة. وأطلق على هذه الولاية الجديدة إسم «**نوميديا الغربية**» لأنها كانت تحت ملك نوميديا. وعرفت نوميديا القديمة باسم «**نوميديا الأصلية**».

وبهذه الولاية صح أن نعد **بوكوس**[1] بين ملوك الوطن الجزائري. باضافتها إلى مملكته القديمة أصبح ذا مملكة واسع تشمل ما بين صلداي شرقا. والمحيط الاطلنتيقي غربا. ورغما من هذا الانساع كله لم تكن له عزة نفس ونخوة ملك، فيترفع عن خدمة الرومان الذين لايزيده جبنه معهم وخدمته لهم إلا طمعا في الوطن البربري وخيراته.

بعد أن فعل فعلته الأولى عززها بثانية. وذلك أنه حدث برومة شقاق بين مريوس وصيلة ففر الأول إلى يرباص الذي أعناه على منافسه. فأرسل صيلة قائده **بمبيوس**[2] إلى افريقية بجنود كثيرة. وأعانه بوكوس بفيلق عظيم من فرسان موريطانيا تحت رئاسة غودا (**قيل هو ابن بوغيد بن**

---

[1] ذكر صاحب الرحلة الناصرية أنه لما نزل بمسوار الريان تلقته قبائل عدد منها بوكيس (27:1) فيستفاد منه أن بوكيس من الأعلام البربرية التي لم تزل حتى العهد الأخير.

[2] في ابن خلدون فمقيوس. وهو تصحيف مطبعي صوابه فمفيوس على قاعدة تعريب حرف P بحرف (ف). والمعمول به اليوم تعريبه باء.

بوكوس وقيل حفيد بوغيد) وكان يرباص قد فر من بمبيوس. فاعترضه غودا وشتت جموعه. وأخيرا قتله.

وهكذا لم نر لبوكوس إلا إعانة للرومان على أبطال البربر الذين يأنفون من استعباد الأجنبي لهم ولقومهم.

وبعد أن ملأ صحائف حياته بمثل هذه الأعمال توفي في حدود سنة **(80)** وترك ولدين اقتسما مملكته.

16– يرباص (102–81): اختلف في اسم هذا الملك: فمنهم من سماه يرباص، ومنهم من سماه هرتاص. وهو من أسرة يوغورطة. قال مرسيي: «**والظاهر انه ابن غودا أخي يوغورطة**».

انتصب بعد وفاة غودا على نوميديا الوسطى. وكان ـ كبقية أمراء البربر ـ تحت سيادة رومة: يذهب إليها، ويرسل أبناءه ليتعلموا بها. وتخلق بالأخلاق الرومانية. وصار يتكلم باللغة اللطينية. ويحافظ على الفنون الرومانية. ويشيد بالمدن البناءات الأنيقة. ويعتني بالفلاحة.

ومع كونه تحت سيادة رومة وآخذا من أخلاق أهلها وحضارتهم كانت غايته تهيئة الأمة البربرية للاستقلال التام وطرد النفوذ الروماني من وطنها.

وفي مدته نازع صيلة مريوس على رئاسة رومة. فرأى مريوس أنه عاجز عن مقاومة خصمه، وأراد أن يستعين بأمراء البربر. فرجه ولده إلى هيمصال الثاني من ملوكهم يعرض عليه حمايته وإعانته فلم يقبله، لأنه رأى نجاح صيلة برومة. فخشي عاقبة قبوله. إذ ذاك عاد الولد إلى والده

مريوس، وأشار عليه بالفرار. ففر إلى الولاية الرومانية بافريقية. ولكن واليها طرده. فبقي هائما بحدود نوميديا. ثم تمكن من الفرار إلى قرقنة. وأخيرا أجاره يرباص. وقضى عنده شتاء سنة **(88)**.

كانت حماية يرباص لمريوس بعد إعراض هيمصال عنها سببا في انتشاب حرب بينهما انتصر فيها يرباص وطرد هيمصال من مملكته واستولى عليها. وبذلك أصبح مريوس منتصرا بافريقية ومنهزما برومة. وكانت أتباع صيلة تأوي إلى عوتيقة. فأرسل ستة فيالق بقيادة بمبيوس لحرب مريوس. وتقابل الجيشان فانهزم مريوس، وفر يرباص بطائفة من جنوده. وكان بوكوس قد وجه كتيبة من الخيل تحت رئاسة غودا نصرة لبمبيوس. فالتقى غودا بيرباص في الطريق وشتت جنوده. ففر إلى عاصمته **بولريجيا**[1] وهجم بمبيوس على نوميديا فحال دون انجاد أهلها لملكهم يرباص. فاظطر إلى التسليم لغودا فقتله! وذلك سنة **(81)**.

قد تدرك نباهة يرباص وحذقه وإخلاصه لامته من حمايته لمريوس. ذلك أنه لم يكن يخفى عليه ضعف هذا الرجل برومة وتشرده بافريقية. فكان تحزبه له لضرب من السياسة في صالح قومه: يريد أن يشاغب به على رومة، وان أتيح له الفوز وجد غرضه معه أكثر مما يجده مع صيلة. فان الضعيف يرى الإنتصار له مزية وإحسانا، والقوي يحسبه تملقا وهوانا.

---

[1] هي حمام الدراجي جنوب طبرقة.

وإذ لم ينجح يرباص في سياسته فعندي انه يكفيه ان مات ميتة شريفة بانتصاره لحزب ضعيف من حزبي أعداء قومه ووطنه.

وبموته انقضت الفتن الداخلية بين أمراء البربر. ومدها سبع سنوات.



نقود الملك يرباص، وعليها رسمه

17- هيمصال الثاني (103 ـــ 50): هيمصال الثاني هو ابن غودا، وأخو يرباص علي الظاهر. انتصب ملكا بشرقي نوميديا بعد وفاة أبيه. ولعله كان يرى له الحق في الاستقلال بمملكة والده دون يرباص، ويترصد الفرص لضم مملكة أخيه إلى ماتحت يده.

فلما تنازع مريوس وصيلة انتصر للثاني لعلمه بقوته ورد طلب الأول وحبس الأول وحبس ولده فلم ينج الا بتدبير إحدى جواريه. ولعه كان يرجو من تحزبه لصيلة ان يعنيه على أخيه. فلما انتصر يرباص لمريوس رأى ان الوقت قد حان للاستقلال بنوميديا. فاشتهر عليه حربا انجلت عن هزيمته. وأصبح صفر الكفين من الملك، وأشبه في التدبير حنينا صاحب الخفين.

ولما قتل يرباص وسقط حزب مريوس من رومة وافريقية معا أعادت رومة لهيمصال ملكه مضافا اليه مملكة يرباص. ثم حدث بينه وبين ماصنتة (**من امراء البربر**) خلاف انهياه إلى مجلس الشيوخ برومة. وكان له ولد يدعى يوبا فوجهه إليها نائبا عنه. ففاز على خصمه ومتّن الروابط بينه وبين بمبيوس.

وقد تقدم انه بموت يرباص انتهت الحروب بين امراء البربر فبقي هيمصال بمملكته هادئا مطمئنا مستعينا بإبنه يوبا منشطا للفلاحة ناشرا للحضارة الرومانية محافظا على فنونها حتى توفي سنة (**50**).



نقود الملك هيمصال، وعليها رسمه

18- ماصنته: هو أحد ملوك البربر. كان معاصرا ليرباص هيمصال، وعاش بعد يرباص. قال مرسيي ناقلا عن المؤرخ بول **(Poulle): «ان مع هذين الملكين (يرباص هيمصال) ثالثا يدعى ماصنته. كان على ناحية سطيف. وكانوا كلهم تحت نظر رومة.**

وكانت غايتهم جميعا تهيئة الأمة لحكم نفسها بنفسها. وكان الجيتوليون مستقلين تحت سادات من عظمائهم».

وعليه فان حكومة هؤلاء الثلاثة لم تتناول جهة الصحراء. فالجيتوليون الذين كانوا خضعوا ليوغورطة، وحاربوا معه الرومان لم يخضعوا لهؤلاء الملوك الذين خلفوا يوغورطة. وسر ذلك ـ فيما أرى ـ أنهم لم يزالوا ممتنعين عن التداخل الروماني. فخضعوا ليوغورطة لما رأوه عدوا للرومان، وابتعدوا عن خلفه لما رأوا بهم سمة الانقياد لهم.

كان ماصنتة مجاورا ليرباص ولم يبلغنا شيء عن علاقتهما أكانت حسنة أم غير حسنة. وقد تقدم ان هذا الدور من التاريخ يعلوه قتام الخفاء. ومع ذلك يمكننا ان نحكم بأنهما كانا متسالمين. وذلك يدل على ضعف نفوذ رومة لديهما. لان أثر نفوذها يظهر في التفرقة بين الملوك واشغالهم بالفتن. ويؤيد حكمنا ذلك ان التاريخ قد أعلمنا بما كان بين يرباص وهيمصال من الحروب، وأعلمنا أيضا بما وقع بين هيمصال وماصنتة.

وذلك أنهما لما تجاورا بعد قتل يرباص وقع بينهما خلاف. فترافعا إلى مجلس الشيوخ. وذهب يوبا نائبا عن أبيه. وكان يوليوس قيصر مدافعا عن ماصنته. واشتد في دفاعه وتحمس حتى قبض يوبا من لحيته. وغضب يوبا من ذلك وأسرها في نفسه. هذا ما أمكننا الوقوف عليه من حديث هذا الملك.

ولم نعثر على تاريخ ولايته ولا وفاته. وغاية العلم انه كان ملكا فيما بين سنتي (88 و81) ومحقق انه عاش بعد يرباص. وتولى الملك قبل سنة (88).

19- بوكوس الثاني (80-40): كان بوكوس الأول ملكا على موريطانيا الغربية. وبعد يوغورطة أضيفت اليه موريطانيا الشرقية. وقد تسمى نوميديا الغربية. وكان له ولدان احدهما بوكوس الثاني هذا والآخر بوغيد الأول الآتي ذكره ولما توفي سنة (80) اقتسم الابنان مملكته. فأخذ بوكوس الثاني موريطانيا الشرقية. وهي مابين صلداي وملوشات. ذلك الوطن الذي أخذه أبوه بالخيانة أو الجبن والبلاهة.

اتخذ بوكوس الثاني عاصمة مملكته هاته يول (**شرشال**). وكان ـ كبقية ملوك عصره ـ غير بعيد عن المعارك التي تقع برومة بين الزعماء. اذ قد وجد أوليك الزعماء في الوطن البربري مايساعد كل واحد منهم. لان مرض المنافسة الذي كان يفتك بزعماء رومة كان يجري بدماء عظماء البربر أيضا. فكل حزب برومة يجد له عاضدا بافريقية.

أفضت الزعامة برومة إلى بمبيوس محارب يرباص. ونافسه يوليوس قيصر. وأفضت المنافسة إلى المحاربة. فانتصر قيصر برومة والأندلس.

وكان بالوطن الجزائري ثلاثة ملوك: يوبا بن هيمصال ومصانسيس وبوكوس الثاني. وكان مصانسيس متحدا مع يوبا. ويوبا هذا يبغض قيصر منذ حامى عن خصم أبيه برومة وقبضه من لحيته.فتحزب لبمبيوسّ. وهذا سبب نجاح البمبيين أولا في وطن البربر. فلما رأى قيصر أن ينقل الحرب

إلى إفريقية وعلم أن إفريقية وعلم أن البربر بها ضده كاتب بوكوس وأخاه يدعوهما لنصرته بالهجوم على مملكة يوبا. وقيصر هذا ابن أخي زوجة مريوس الذي كان بوكوس لاول اعانه على يوغورطة. فكاتب هذه القرابة داعية لتلبية بوكوس الثاني لطلب قيصر. يضاف إليها داعي المنافسة بين ملوك البربر.

وسنرى فيما يلي تفصيل هجوم بوكوس على مملكة يوبا وانتصار قيصر وانتحار يوبا.

ولما نجح قيصر بعد معركة طبسوس سنة **(46)** جازى بوكوس الثاني على اعانته له بان أضاف له موريطانيا السطيفية.

ومن غير شك ان هذا الملك كانت له دولة راقية. فقد كانت أوسمة له يمنحها لاهل الأعمال الكبيرة في دولته. يدل على ذلك ان الباحثين عن الآثار عثروا على وسام به صورة بوكوس الثاني راكبا فرسه، وهو مجد في عدوه، وبيمينه قضيب يسير به فرسه كيف شاء، وبشماله آلة الرمي[1].

مملكة بوكوس هذا كلها مشتراة من ملوك النوميديين بخيانة أبطال الاستقلال البربري. وكما ان أباه رزأ البربر يوغورطة رزأهم هو ـ ومن يشابه أبه فما ظلم ـ يوبا.

20– يوبا الأول JUBA I (50–46): يوبا الأول هو ابن هيمصال الثاني. اعتنى به والده. فأرسله إلى رومة حيث تعرف إلى

---

[1] هذه الهيئة في ركوب الخيل معروفة لفرسان نوميديا. فإما أن يكون الموريطانيون أخذوها عنهم لما بينهم من الجوار، وإما أن يكون الجميع سواء في هذه الهيئة وإنما إختص النوميديون بالشهرة فقط.

الحضارة الرومانية في منبعها. وكان له شغف بالحروب. فحفظ لذلك من السقوط في مضار الحضارة، وعاش حربيا شجاعا.

كان هذا الملك ينطوي على مثل ما انطوى عليه سلفه مصينيسا ويوغورطة من الاستقلال بالوطن البربري وطرد النفوذ الروماني منه.

فاستعد لتحقيق أمنيته بتنظيم الجيوش وتدريبها. وكان بهذا الوطن شذاذ من أمم مختلفة يؤجرون أنفسهم في الحروب، ورجال من الرومان نفتهم الأحزاب المضادة لهم المتغلبة على أحزابهم. فاتخذ منهم يوبا جيشا منظما يكون مثالا للبربر في النظام العسكري.

لم يلبث هذا الملك ـ بعد تبوء عرش مملكته ـ إلا قليلا ودخل في حروب طاحنة ختمت بانتحاره. وذلك أن بمبيوس صديق والده كان رئيس الجنود الرومانية التي لنظر بمجلس الشيوخ، وظهر يوليوس قيصر في مظهر السيد المستبد، وحاول أن يسقط الجمهورية الرومانية، فنشبت الحرب بينه وبين بمبيوس. وقد عرفت أن كل اضطراب يقع برومة يكون صداه بافريقية.

تغلب قيصر على بمبيوس وانتزع منه ايطاليا. ففر فاروس **(أحد ضباط بمبيوس)** إلى افريقية ومعه جنوده. وأعلن التشيع لبمبيوس وأخذ في اصطناع يوبا. فلم ينس هذا الملك صداقة بمبيوس لوالده ولا عداوة قيصر له أضاع عليه فرصة انشقاق الرومان لتنفيذ برنامجه الاستقلالي. ففعل فعل عمه يرباص وانتصر لحزب المغلوب بايطاليا.

وفي سنة (**49**) وجه قيصر إلى افريقية من ضباكه كريون. وكان عدوا شخصيا ليوبا. واقترح على مجلس الشيوخ أن ينتزعوا من يوبا مملكته التي ورثها من أبيه. وأعلنت شيعته برومة أن يوبا عدو لجميع الرومان.

نزل كريون بالولاية الرومانية. ودارت بينه وبين فاروس مناوشات الجأت فاروس إلى الفرار عوتيقة (**بوشاطر**) فحاصره كريون بها. وساءت حالة البمبيين. فجاء يوبا بجنود كثيرة نجدة لهم وعملا لفائدة الاستقلال البربري. ففك الحصار عن عوتيقة. وفر كريون إلى أحد المعاقل وتحصن به. ثم أشيع ـ لإخراج كريون من حصنه ـ أنه ثارت ثورة بمملكة يوبا وأنه ذاهب لإخمادها. وترويجا لهذه الإشاعات تأخر يوبا بجنوده وأفياله. ولم يترك منهم إلا قليلا تحت قيادة قائده صبورة. فتقدم هذا القائد بجنوده القليلة إلى حصن كريون. فتسلل كريون من حصنه ببعض جنده. وكان عنده أسرى نوميديون. فأيدوا له خبر ذهاب يوبا إلى مملكته. والتقى بنواحي مجردة بطلائع الجيش النوميدي. فهجم عليهم من غير احتراز بناء على اعتقاده ذهاب يوبا. وتأخر النوميديون أمامه تأخرا نظاميا: يناوشونه الحرب ثم ينهزمون. وما زالوا معه كذلك حتى قربوا مكانا كمن به يوبا. وأدرك كريون ومن معه التعب من جراء فعل النوميديين ذلك. فما هالهم إلا إحاطة جنود يوبا الكثيرة بهم من كل ناحية. وكان بجنود يوبا ألفا فارس من الأسبان والغاليين. فلم يجد كريون ـ والحالة تلك ـ غير

الاصطلاء بنار يوبا. فاشتد القتال. وانتهى باستئصال جنده واخذ رأسه إلى يوبا. وذلك في العشرين من يونيه سنة (**49**).

تعزز يوبا بهذا الانتصار ورأى انه قد أتيح له ان يعلن بسيادة البربر الوطنيين على الرومان الغرباء. فعاد على عوتيقة عاصمة الولاية الرومانية. واظهر عظمته على الرومان حتى البمبيين أنفسهم. وصار كثيرا ما يقدم نفسه للسيادة عليهم وعلى جنودهم، ويتخذ الجميع كآلة بيده. ويحتج لسيادته بأنه هو الذي قتل كريون وجنوده، ولولاه لذهب أثر البمبيين من افريقية كما ذهب من ايطاليا. وزاد في قوة حجته وتأييد سيادته أنه غني جدا وصاحب الكلمة النافذة في وطنه.

وقد بلغ من استعلائه على البمبيين أن سبيون رئيسهم جاءه يوما لابسا حملة حمراء مطرزة بالذهب ـ وهذه الجبة من شعار الملوك إذ ذاك ـ ليظهر ليوبا عظمته. فأنف منه، وأمره بانتزاعها ولبس البياض فلم يسع سبيون إلا الامتثال.

كان بمبيوس لما انهزم بايطاليا ذهب إلى مصر. ولما بلغ الإسكندرية دس إليه بوثان من قتله. ولكن شيعته لم يحل من عزمها موته حيث وجدت في يوبا أقوى عضد لها بافريقية. وتلاحق إليها من عظماء هذا الحزب ميتلوس سبيون ـ وهو صهر بمبيوس غير سبيون الإفريقي وسبيون الأميلي ـ فبلغها سنة (**48**) ثم قاطون سنة (**47**).

ولما دخل قاطون عوتيقة وجد سبيون و فاروس مختلفين على رئاسة الجند، كل يريدها لنفسه. ووجد يوبا مستعليا عليهما وجالسا بينهما كما

هي عادة الملوك. فلم تسمح له نفسه بمشاهدة هذا المنظر المزري بجنسه. فرفع الكرسي ووضعه إلى جانب سبيون بحيث يكون وسطا ويبقى يوبا طرفا. وأراد بهذا الفعل إشعار يوبا بأن السيادة للرومان. ثم وحد بين سبيون و فاروس.

بعد ذلك تفرغ البمبيون لتنظيم شؤونهم. ولم يتأخر يوبا عن إعانتهم. تفاوضوا أولا فيمن يخلف بمبيوس لرئاسة حزبهم وتدبير حربهم. واتفقت كلمتهم على تقديم سبيون لهذا المنصب فتهيأ للحرب. وجمع أربعين ألف جندي وخيلا كثيرة أركبهم العبيد و الموالي. وأمدهم يوبا بأربع فرق منظمة تنظيما رومانيا. فيها اثنا عشر ألف جندي وخيل كثيرة. وأمدهم أيضا برجال كثيرين من البوادي غير المنظمين و(**120**) فيلا. وتولى سبيون نفقات جميع جنود يوبا ودفع مرتباتهم.

يوبا ـ وإن أعان البمبيين ـ لم يكن مخلصا لهم. فأخذ يشير على سبيون بما يبغض الرومان إلى البربر لئلا يكون لأجنبي نفوذ بوطنه على قومه. فأشار عليه بجبر سكان الولاية الرومانية على تسليم حبوبهم لتموين الجند وجبر التجار منهم على تقديم الأموال. فنفذ إشارته بصرامة حتى أنه خرب لذلك مدنا كثيرة. ثم أشار عليه بتتبع المتشيعين لقيصر حتى المتهمين بالتشيع: باستئصالهم وقتل ذريتهم ونسائهم. وكان جل من بعوتيقة قيصريين. ولكن سبيون تفطن هذه المرة للدسيسة. فدافع يوبا بأن هذا عمل يغضب الرب. ولو استرسل سبيون في غفلته وعمله بإشارات يوبا لثارت عليه العاصمة (**عوتيقة**)، واشتغل الرومان بعضهم ببعض، وتفانوا.

فتبقى الولاية الرومانية ليوبا غنيمة باردة. وذلك ما كان يأمله لتحقيق غايته الاستقلالية.

بلغ الخبر على رومة بقوة سبيون ويوبا. فدخل الرعب قلوب القيصريين. ولكن قيصر رأى أن يتمم انتصاراته بنقل الحرب إلى افريقية.

وإذ قد ارتأى هذا الرأي فهو مضطر للاستنصار بملوك البربر. وقد علم ان يوبا مصانسيس ضده. فكاتب بوكوس الثاني وبوغيد الأول ليشغلا له يوبا. ووعدهما اقتسام مملكته. فكانا له على يوبا.

في منتصف أكتوبر سنة **(47)** توجه قيصر إلى افريقية على طريق صقلية. ونزل بنواحي قليبية من عمالة تونس. وعند نزوله عثر فسقط على الأرض فقبضها ونادى ـ خشية الطيرة التي تضعف من عزائم جنده ـ: «**افريقية! قد قبضتك**». ونزل معه من الجنود نحو **(3000)** مشاة و**(150)** فارس. وتأخر بقية الجند في البحر.

لما نزل قيصر جد سبيون في تجنيد بربر الولاية الرومانية. فوجد قلوبهم منحرفة عنه لعسفه وجوره وتعديه على أموالهم. ورومان هذه الولاية متشيعون لقيصر لأن عمته كانت تحت مريوس غالب يوغورطة. فلم تبق لسبيون ثقة في أهل الولاية الرومانية من بربر وروما.

هنالك اضطر لمفاوضة يوبا على الوجه الذي يهواه. فطلب منه النجدة على أن يترك له افريقية متى انتصر ويعود بالرومان إلى إيطاليا. فلم يشك يوبا في انه قد اشرف على تحقيق غايته. فأعانه بفرسان نوميديا

الذين لهم شهرة من أيام حنبعل، وبالأفيال الكثيرة. وكانت جنود يوبا هي عمدة سبيون.

في نوفمبر هذه السنة وقعت المعركة الأولى بين قيصر وضباط سبيون. وأحيط بقيصر فكاد يؤسر. ولكنه نجا بدهائه وسار نحو مركزه. فلحقته طائفة من فرسان نوميديا جاءت بعد المعركة. وعددها **(1100)** فلم يخلص منها الا بعد اللتا والتي. ورأى ان هذه المعركة على شدتها ليست من الأهمية بمكان لغيبة شخصي يوبا وسبيون عنها. فاهتم من بعدها وحصن مركزه.

كان لبمبيوس ولد صغير لحق بافريقية. فاخذ قاطون ينفخ فيه روح الغيرة، ويستثير حميته بذكر تاريخ والده وجلائل أعماله. وأشار عليه بالسير إلى بوكوس حليف قيصر. فتوجه الولد اليه في ألفي جندي تقلهم ثلاثون سفينة برسم الكف عن مملكة يوبا وعدم إشغاله عنهم. ولما نزل بالشاطئ وأخذ يتقدم نحو العاصمة أحاط به البربر وأوسعوه شتما وفتكرا بمن معه. ونجا ببعض جنوده، فركب سفنه، وعاد خائبا.

وكان قيصر في حال سيئة. فاستمال رجلا ايطاليا يدعى ستيوس إلى نصرته. وكاتب بوكوس وأخاه بوغيد يعلمهما بان يوبا سيذهب إلى حربه ويخلو لهما وجه مملكته. ويشير عليهما بالهجوم اذ ذاك.

علم يوبا بحرج موقف قيصر. وخفي عليه مادبره مع ابني بوكوس الأول. فلم يكتم سروره بضعف عدوه. ورأى انه قد قرب اليوم الذي

يتمتع فيه بوعد سبيون. فجمع جنودا كثيرة وخيلا وفيلة. واخذ يجول بها في البوادي والناس تنضاف اليه حتى كان قريبا من المنستير (**بتونس**).

وفي هذه الأثناء ذهب ستيوس إلى بوغيد مستعينا به. واتحد مع بوكوس. وهجما على مملكة يوبا. وفتحا قرطة بعد حصار لم تطل مدته. وفتحا أيضا حصنا (**غير معلوم لدى المؤرخين**) به مؤن يوبا وذخائره وأسلحته. واستأصلا سكان مدينتين من مدنه. وصارا يهددان بقية مدن نوميديا وباديتها. ولا يشاهد بها الا النار والدم.

بينما يوبا في زهوه وسكره برائحة خمرة الانتصار اذ بلغه ما حل بمملكته. فتوجه في الحين وأغذ السير لادراك أهل مملكته. واخذ معه كل ما أعان به سبيون من رجال وخيل وفيلة. ولم يترك له إلا ثلاثين فيلا غير مهذبة ولا مدربة.

ضعف سبيون بعد ذهاب يوبا عن مقاومة قيصر. فأرسل اليه يستحثه في اللحاق به. ويؤكد له وعده السابق .فلم يجبه إلى طلبه لاشتغاله بدفاع الهاجمين على مملكته. وقد يكون من غرضه ان يدع الرومان يتهالكون. ثم يرجع على الغالب منهم فيحاربه. ويطهر الوطن البربري من الرومان. ولكن سبيون ألح عليه حتى رحمه. وترك قائده صبور لمقابلة ستيوس وبوكوس.

عاد يوبا إلى سبيون بألف ماش وثمانمائة فارس وثلاثين فيلا. ونزل في العشرين من دجنبر بجيشه خلف جيش سبيون. وفي التاسع والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين.

وفي يناير سنة (46) فر إلى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين. وبلغ عددهم ألفا. وسبب ميلهم إلى قيصر ان ضباط هذه الفرقة كانت لآبائهم أراض انتزعها منهم والد يوبا هيمصال. وأعادها عليهم مريوس بعل عمة قيصر. ثم تتابعت عدة وقائع كانت خاتمتها وأشدها واقعة **طبسوس**[1] في هذه الوقعة تفاقمت الأهوال واشتد القتال. وانتهت بفوز قيصر وفرار أعيان حزب بمبيوس.

ذهب يوبا بعدها إلى مدينة زامة. وكان إتخذها عاصمته الثانية. ونقل إليها ــ لما عزم على حرب قيصر ــ نساءه وذريته وأمواله وجمع ببطحائها حطبا كثيرا. وأقسم إيمانا مغلظة: لئن غلبه قيصر ليحرقن بذلك الحطب أهل المدينة ثم أهله ونفسه. فلما بلغها أغلقوا في وجهه الأبواب مخافة ان ينفذ فيهم إيمانه.

اظلمت الدنيا في وجه يوبا. وضاقت عليه الأرض بما رحبت. فصنع وليمة أكثر فيها من الأكل وشرب الخمر. ثم تحامل على سيفه ليريح نفسه من عناء الدهر. فلم يستطع الثبات على ذبابة السيف لغلبة الخمر عليه. فأمر أحد عبيده بقتله فقتله!

---

[1] طبسوس مدينة على شاطئ البحر برأس ديماس (تونس) يليها برا بحيرة صارت لها كجزيرة إذ لم تبق إلى المدينة إلا مسلكين ضيقين وهي من تأسيس الفينيقيين. ولم تخرب إلا على عهد الفتح العربي. ومكانها اليوم موضع حرائة.

وهكذا انتهت حياة يوبا بعد ما كاد يحقق غايته ويطرد الرومان من افريقية .وعلى قلة أيامه واشتغاله بالحروب كانت له دولة عظيمة وضرب السكة باسمه. وبلغ من عظمته أن صار لايحفل بالرومان.

على أنه جاء بعد ما أنهكت وطنه الحروب الداخلية، وتقاسمه امراء متعددون. قال بعض مؤرخي الإفرنج: «**كان النوميديون اذ ذاك على غاية من الحضارة. وحالتهم أحسن من حالة الجزائر على عهد الاحتلال الفرنسي**».

بقي صبورة يحارب ستيوس وبوكوس بعد انتحار ملكه حتى قتله ستيوس في معركة من المعارك. وشاءت الأقدار ان لايبقى بعد ملكه للهوان والصغار.

21– مصانسيس MASANASSES (46–50): مصانسيس كان ملكا على قسم سطيف من نوميديا. ولاندري الوجه الذي ورث به الملك على هذا القسم بعد ماصنتة.

لما دخل يوبا في حرب قيصر كان هذا الملك معينا له على حربه وإعلاء شأن وطنه بإضعاف النفوذ الأجنبي أو إزالته.

ولما انتصر قيصر على خصومه بافريقية اقتسم مملكتي يوبا ومصانسيس على أنصاره: القسم الشرقي من نوميديا جعله مستعمرة رومانية. وأطلق عليه اسم «**افريقية الجديدة**» أو «**نوميديا الحديثة**» هذا القسم واقع شرقي قسنطينة. ويشمل قالمة وعنابة. ومملكة مصانسيس

منحت لستيوس. وهي عبارة عن قرطة وروسفاد شولو وميلوم وتوابعهن. ومن ههنا تعرف ان قول المؤرخين: مصانسيس ملك على قسم سطيف، مرادهم به ما يشمل هذا الولايات الاربع لاخصوص موريطانيا السطيفية. ووسع في مملكة بوكوس الثاني بإضافة موريطانيا السطيفية إليها. وهي مابين مساغا وصلداي. وجازى بوغيد الأول بان أعطاه القسم الغربي من نوميديا.

هكذا وزعت مملكتا يوبا ومصانسيس على ثلاثة أقسام: قسم جعل مستعمرة رومانية وقسم أضيف للملكي موريطانيا الغربيين لأنهما ليسا نوميديين ولكنهما على كل حال بربريان. وقسم جعل وسطا بينهما جغرافيا وسياسيا وهو الذي منح لستيوس. فان هذا الرجل ليس بربريا بل هو ايطالي لكنه يعمل لنفسه لا للرومان.

وسياقة خبره أنه كان جنديا وترقى إلى أن صار واليا ثم عزل. فأغضبه العزل. واخذ يسعى في جمع اللصوص والمتشردين من ايطاليا واسبانيا. فكون جيشا تحت طاعته. وصار يؤجره لمن يحتاجه من الملوك في حروبهم. وكان منصور الراية. فاشتهر ذكره وطار في الآفاق صيته. فربحت تجارته. وجمع أموالا كثيرة اشترى منها سفنا. وصار يشتغل بالقرصنة يغزو المراسي وينهبها. ولم تخف مكانته على قيصر. فراسله طالبا منه إشغال يوبا عنه. ووعده ببعض مملكته. فأجاب الطلب، وقضى له بالغلب. ونال من ذلك الأرب. فبقي أميرا بمملكة مصانسيس حتى اغتاله عرابيون كما سيأتي.

22- بوغيد الأول (46-44): بوغيد الأول هو ابن بوكوس الأول. انتصب ملكا بموريطانيا الغربية بعد وفاة أبيه سنة (80) وأعان قيصر على يوبا. فمنحه القسم الغربي من نوميديا. وبذلك دخل بوغيد ضمن ملوك البربر في الوطن الجزائري غير أنا لم نتحقق المراد بالقسم الغربي من نوميديا. وفي مرسيي: ان يوبا كان ملكا على نوميديا الشرقية والوسطى، وان مصانسيس كان على قسم سطيف من نوميديا، وان القسمين الأولين جعلتا مستعمرة رومانية، وإن مملكة مصانسيس كان على قسم سطيف من نوميديا، وإن القسمين الأولين جعلتا مستعمرة رومانية، وإن مملكة مصانسيس منحت لستيوس، وان قسم سطيف الحق بموريطانيا الشرقية، ومراده انه أضيف لبوغيد على مايفسره قوله في موضع آخر. واذن فقسم سطيف هو المراد من نوميديا الغربية. وفي غروت: ان بوكوس الثاني أخذ موريطانيا السطيفية.

في هذه الأقوال ضرب من الإجمال لم نجد ما يفسره من الانقال. ولكن إذا استعنا بالمفسر على المبهم سهل علينا فهم بعض ما لم نفهم. ذلك ان مستعمرة الرومان قد علمت أنها تشمل قللة وعنابة. فتكون هاتان العمالتان حد نوميديا الوسطى غربا، وان مستعمرة ستيوس قد علمت حدودها أيضا. فما بقي من نوميديا غربا قسم بين الأخوين بوكوس وبوغيد. وهو ماعبر عنه غروت بموريطانيا السطيفية. وعبر عنه مرسيي مرة بقسم سطيف، وأخرى بالقسم الغربي لنوميديا. ويكون قول غروت: بوكوس أخذ موريطانيا السطيفية لايعني به جميعا. هذا ما أمكننا

فهمه من ذلك الإجمال والإضراب بعد العجز عن إيجاد شرحه في أي كتاب..

كان قيصر يريد إسقاط الجمهورية. فكان الجمهوريون ضده. فبعد ما غلبوا بايطاليا ثم افريقية ذهب من بقي منهم إلى اسبانيا ومعهم من امارء البربر عرابيون ابن مصانسيس. فذهب قيصر إلى حربهم. وبقي برغيد معينا له هنالك أيضا. ووقعت حروب بينه وبين الجمهوريين من شيعة بمبيوس. وأخيرا انتصر عليهم في منده من بلاد اسبانيا سنة (45). وتوفي بوغيد سنة (44).

23– عرابيون: عرابيون هو ابن مصانسيس. لما قسم قيصر مملكتي والده ويوبا على ماسبق بيانه ذهب هو إلى الأندلس. وبها شيعة بمبيوس. فجمع هنالك جيشا من اللصوص واشتغل بالحرابة زمنا .ثم ازداد جيشه قوة وازداد هو مهابة. فقاتل قيصر هناك .

وفي سنة (44) توفي قيصر وبوغيد عدوا أبيه. فرأى أن الوقت مناسب لاسترجاع مملكة والده. فعاد إلى وطنه بمن معه من الجنود. وجمع اليه شيعته من النوميديين. وبعث منهم بطائفة إلى بمبيوس الصغير ليعلمهم حسب الأنظمة الرومانية. ومن غير شك أن النوميديين استبشروا بعوده إليهم لأنهم صاروا تحت أجانب عنهم في الوطن أو في الجنس والوطن جميعا.

خلف بوغيد إبنه بوكوس الثالث.ورأى عرابيون ماله من الجنود، فعزم على حرب بوكوس لينتزع منه نوميديا السطيفية[1]. وكان بوكوس غريبا عن محكوميه فاستنجد بوكتافيوس المستبد برومة بعد قيصر. فلم ينجده لاشتغاله بتثبيت قدمه برومة.

تحارب الملكان البربريان، فكانت الخيبة نصيب بوكوس. واسترد عرابيون منه نوميديا السطيفية. وبقي له ستيوس. فدبر له مكيدة نجح فيها فقضى على حياة هذا الايطالي المتملك على البربر. واسترجع بذلك جميع ما كان يمكله أبوه. ولكثرة الفتن برومة بين الجمهوريين والقيصريين ذهب دم ستيوس هدرا. ولم يتوجه على عرابيون من الرومان أدنى بحث أو مسؤولية.

في هذه المدة كان الوالي بافريقية القديمة كورنفسيوس. وأعطيت نوميديا الحديثة لوكتافيوس. فوجه إليها عمله سيكتيوس. وطمع في الاستلاء على افريقية القديمة أيضا. فوقعت الحرب بين الوالي والعامل. وخاطب كلاهما عرابيون مستنجدا به. فتريث في الإجابة مفكرا في أي الرجلين أوفق بسياسته. ثم رأى أن الأصلح له إجابة وكتافيوس فانضم له.

وبينما كورنفسيوس محاصر لقرطة إذ بلغه أن عرابيون انتصر لوكتافيوس. ففشل وغادر قرطة فارا إلى ولايته. ولحقه عرابيون. وتلقاه

---

[1] نوميديا السطيفية هي المعبّر عنها أحيانا بموريطانيا السطيفية؟

سيكستيون شرقا. فانحصر بين عدوين. وأمعن عرابيون في جنوده قتلا. فلم ينج منهم الا القليل.

دخل بعد هذا الانتصار سيكستيوس افريقية. وعاد عرابيون إلى مملكته بغنائم قيمة. وقد يكون توسع في نوميديا الحديثة. وفي سنة (43) اصطلح وكتافيوس روانطونيوس. وتشكلت حكومة رومة من رؤساء ثلاثة. هذان الاثنان ولبيدس. وبقيت افريقية تحت وكتافيوس ولكنه عزل سيكستيوس وعوضه بفانغو.

وفي سنة (42) اقتسم الرؤساء الثلاثة المملكة الرومانية من جديد. فأخذ انطونيوس افريقية الأصلية. واخذ وكتافيوس نوميديا والجهات الغربية. فكلف سيكتيوس بالنيابة عن انطونيوس في افريقية، وفانغو بالنيابة عن وكتافيوس في نوميديا الحديثة.

ولسوء إدارة فانغو ثار عليه البربر وأمدهم عرابيون. ولكن فانغو انتصر عليهم ففر عرابيون إلى سيكستيوس. وطلب منه فانغو تسليمه فلم يسلمه. فهجم على افريقية وعاث فيها فسادا. فدافعه سيكستيوس وأعانه عرابيون ونوميديون، فكانت الهزيمة على فانغو.

وبعد هذا خدع سيكستيوس عرابيون وقتله غيلة. فمن المؤرخين من قال: قتله لأنه كان قد أعان وكتافيوس على انطونيوس، ومنهم من قال: لأنه كان يخشى نفوذه ويغار منه. وليس الجمع بين الأمرين بمعتذر.

غضب فرسان نوميديا لقتل عرابيون .فذهبوا إلى فانغو وأغروه بسيكستيوس فتحارب هذان العاملان. ولكن فانغو غلب فقتل نفسه

.وأصبح سيكستيوس هو الوالي الوحيد بافريقية الأصلية ونوميديا الحديثة.

قال مرسيي: «**وربما ضم آليه ما كان تحت ملك عرابيون**».

كان عرابيون عاملا جريئا مفكرا داهية شجاعا مقداما صاحب آمال كبيرة: ينوي إخراج الرومان من نوميديا. ولكن لم يساعده القدر. وسلك سبيل غيره من عظماء البربر فذهب ضحية الاستقلال قبل أن يحقق تلك الامال. وهكذا اتخذ عظماء الرومان قتل أحرار سبيلا لترضية جشعهم في الاستعمار. وكان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا الذين وقفوا في وجه الاستعمار الروماني وأوقفوا سيره.

24- بوكوس الثالث (**44-33**): بوكوس الثالث هو ابن بوغيد الأول جلس على عرش الملك بعد وفاة أبيه. وانتزع منه عرابيون نوميديا السطيفية.

وفي سنة (**40**) توفي بوكوس الثاني. وورثه ابن بوغيد الثاني. وكانت الحرب بالأندلس بين وكتافيوس وانطونيوس. وكان الأول عدوا لبوكوس الثاني صديقا لبوكوس الثالث. فألح انطونيوس على بوغيد الثاني في إعانته على عدو أبيه. فذهب سنة (**38**) إلى الأندلس بجيوش كثيرة نصرة لانطونيوس. وبغيته إختل نظام مملكته وقامت بها الثورات.

شاهد بوكوس الثالث ماحل بمملكة ابن عمه، فوثب عليها وملكها.ولما عاد بوغيد من الأندلس لم يجد سبيلا لاسترجاع ملكه، فذهب إلى الإسكندرية ـ ومصر اذ ذاك تحت يد حليفه انطونيوس ـ فولاه هنالك أعمالا جليلة، وتوفي بمدينة ميطون.

أصبح بوكوس ملكا على موريطانيا الشرقية والغربية. قال اغسال: «**وهذه المملكة عبارة عما بين جيجل شرقا، والمحيط الأطلانتيقي غربا**» ولم تتدخل رومة فيما وسع به بوكوس مملكته لمكانة من وكتافيوس. وانتقل بعد هذه التوسعة إلى يول (**YOL**) وجعلها عاصمة ملكه. واستقر بها إلى أن توفي سنة (**33**) ولم يترك عقبا. قال مرسيي:

وكانت مدته ـ بصفة إجمالية ـ مدة هناء، أو تقول: ان عصره غير متضح للمؤرخ.

كان بوكوس هذا خاتمة أسرة بوكوس الأول الذي وسع مملكته على حساب ملوك نوميديا. كما كان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا.

وكهذا تقارب زمن انقراض هاتين الأسرتين اللتين تولتا ملك البربر حقبا، وقضى عليها التنافس.

25- يوبا الثاني 25ق-23م: يوبا الثاني هو ابن **يوبا الأول**[1]. أخذ إلى رومة بعد انتحار والده. ونشأ بها. وفي سنة (**30**) ق.م توفي انطونيوس. وكان متزوجا بكلابطرة أخت بطليموس الثاني عشر. وله منها بنت تدعى كليوباطر سيليني. وقام وكتافيوس بكفالة أبنائه فزوج هذا البنت من يوبا وولاه مصر.

وفي سنة (**25**) **ق.م** أو قبلها ولاه على نوميديا بصفة أمير نائب. ولايلعم نفوذه بقرطة والمدن المحالفة لها. والمظنون أنه ضعيف لان تلك

---

[1] سماه في تحفة الزائر **14:1** جوبا الروماني وليس بروماني وإنما هو روماني النزعة. وفي المغـــرب ص**82**: (وجزيرة جوبا قبل مرسي بجاية) فلعل هذه الجزيرة منسوبة إلى يوبا هذا.

المدن المتحالفة كانت لها امتيازات على باقي مستعمرات رومة. وكان نفوذه الفعلي بنوميديا الحديثة. والظاهر أنه أحسن إدارتها ووطد فيها دعائم السلم. يدل لذلك أن وكتافيوس نقله فما بعد إلى موريطانيا. وأضاف نوميديا الحديثة إلى افريقية الأصلية. ووجه الدلالة ان الرومان كانوا يخشون ثورات البربر. فلا يلحقون بمستعمراتهم التي تحت تصرفهم الفعلي الا الأوطان التي ذللها الحكم وعبدها التمدن حتى صارت عاجزة عن الثورات.

وكان الجيتوليون مستقلين تحت عظماء منهم، فتقرب إليهم الرومان اولا بالملاطفة. وعقدوا معهم معاهدات، وعدوهم حلفاء مستقلين. قال مرسيي «**وتلك خطوة أولى لإخضاعهم**» ومع ذلك فقد كانوا كثيرا مايهجمون على الجهات الشمالية. وفي سنتي **(29)** و**(21)** دافعهم ضابطان رومانيان. وقهراهم إلى القفار. ووقعت بينهم وبين يوبا عدة وقائع كانت جيوشه فيها منهزمة حتى استعان بالرومان. وإذ ذاك اهتموا بهم وحاربوهم إلى إن انتصروا عليهم وقطعوا جرثومة ثوراتهم سنة(**6**م).

في سنة **(17)** **ق.م** نقل وكتافيوس يوبا من نوميديا الحديثة. وأضافها إلى ولاية افريقية. وجمعتها تحت وال واحد إلى نظر مجلس الشيوخ. وعوضه عنها بالموريطانيتين وبعض المراكز الجيتولية. فأصبحت له مملكة مترامية الأطراف. حدها الشرقي جيجل أو بجاية، والغربي المحيط الأطلانتيقي، والجنوبي الصحراء.

نزل من مدن هذه المملكة يول، واتخذها قاعدة. وسماها قيصرية وتولى إدارتها بحسن تدبير. وكانت هذه المملكة قبل لبوكس الثالث. فلما توفي قدم إليها وكتافيوس نفسه. وأضافها إلى رومة. وبقيت تحت نفوذه مباشرة حتى نقل إليها يوبا.

يوبا أخذه يوليوس قيصر بعد واقعة طبسوس إلى رومة وعمره خمس سنوات. وبعد قتل قيصر كفله وكتافيوس، فقضى صباه تحت رعايته، ورباه على احترام رومة، وقد علم إخلاصه لها. فلما كبر جعله قنطرة لنقل الجراد الروماني إلى افريقية الشمالية: فولاه اولا على نوميديا. حتى إذا نضجت ثمرتها وسهل على الرومان اجتناؤها نقله إلى الموريطانيتين ـ وقد كانتا تحت نفوذه ولكنه عجز عن تذليلهما ـ فاضعف فيهما الروح الوطنية التي تلازم بساطة العيش: نشط الفلاحة فتقدمت خطوات، واعتنى بالعمران فاتسع نطاق المدن وكثرت عمارتها.

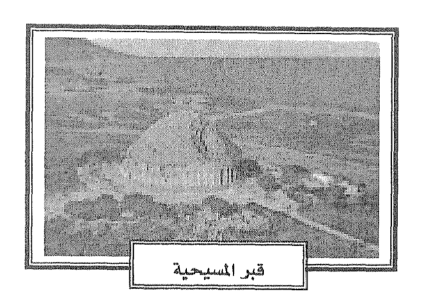
أخذ المعارف عن كبار علماء اليونان والرومان. واشتهر بالتاريخ والجغرافيا والطبيعة والنحو. وكان ذا ذوق وانتقاد للشعر والفن. وله كتب في تاريخ. منها تاريخ رومة من يوم تأسيسها إلى وفاة كافله أغسطس قيصر **(وهو وكتافيوس)**. يذكر في تلك الكتب النظم الرومانية وجزيرة العرب والسريان وليبية. ويتكلم فيها عن التصوير والتمثيل والنباتات. وكتب رسالة في أسباب فساد اللغة الإغريقية ،وألف تآليف بها. وبالغ في التشيع للإغريق حتى نسب لهم عوائد قديمة بافريقية وروما. وجازوه على ذلك بتشييد هيكل له بأثينا. ونقل الحضارة الاغريقية إلى

عاصمته قيصرية. فجلب لها علماء ورسامين وممثلين من الإغريق. وأنشأ بها بناءات فاخرة رسم عليها تماثيل من أحسن ما تنمقه يد الاغريقي.

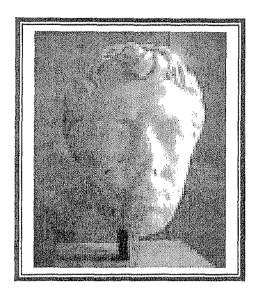
ولم يزل يؤيد السيادة الرومانية بوطنه ويخلد ذكر كافله حيث تسمى باسمه. فدعى نفسه «**كايوس يوليوس**» ونسب عاصمته يول اليه فدعاها قيصرية، وشاد بها معبدا لالهه.

والخلاصة أنه كان متشيعا للإغريق في العلوم والحضارة، وللرومان في الحكم والسياسة، عديم الغيرة الوطنية والإحساس القومي.

في سنة (6)م توفيت زوجه فدفنها شرقي قيصرية. وشاد على قبرها هيكلا ضخما. وفي سنة(22)م أو (23) م توفي ودفن مع زوجه. ولم يزل ذلك الهيكل مشاهدا إلى اليوم ويعرف بقبر المسيحية. ولكنها تسمية مخالفة للحقيقة. فان سيليني لم تدن بالمسيحية ولا كان لهذا الدين اذ ذاك ظهور في هذا الوطن.



قبر المسيحية



رسم يوبا عثر عليه بشرشال، وهو محفوظ بدار الآثار هناك



نقود الملك يويا وعليها رسمه

نقود الملك يويا، وعليها رسمه إلى اليسار ورسم زوجه إلى اليمين

26– بطليموس 23م–40م: بطليموس هو ابن يوبا الثاني. سماه بهذا الاسم الإغريقي من شغفه بالإغريق. ورث عرش أبيه بعد وفاته. وكما كان اسمه غير بربري كان هو عديم الغيرة البربرية والحماس القومي. فلم يعمل كجده يوبا الأول ومن قبله من سلفه للاستقلال البربري. بل كان كأبيه يؤيد النفوذ الأجنبي ويخدم مصلحة رومة.

لم يرث بطليموس عن أبيه غير عرشه وإخلاصه لرومة. ولم يرث عنه أذواقه العلمية وتدابيره الإدارية. فترك أمور دولته بيد الحاشية. وانهمك في الملاهي والفجور. وبذلك وجد البربر سبيلا إلى استعادة حياتهم الحربية.

كان نوميديا ثائر بربري يدعى تقفاريناص. فاستدعته حاشية بطليموس إلى موريطانيا ووعدته الإعانة. فلبى طلبها ونقل الحرب إلى تلك الناحية.

تقفار يناص هذا رجل بربري تجند بالجند الروماني وبلغ رتبة ضابط معين. ثم فر إلى القبائل البربرية المقيمة بجهات أوراس. وأثارهم على الرومان سنة (**17**)م. فهجموا على الجنود الرومانية في مراكزها. واتسعت ميادين الثورة من خليج طرابلس إلى الحضنة.

برز لمحاربته كاملوس والي افريقية فلم يقو تقفاريناص على مقابلته وفر إلى الصحراء. واشتغل فيها بتنظيم الجنود على الطريقة الرومانية. فاتخذ الفرسان والمشاة. وفي ظرف عام تم تنظيمه وتمرينه. فأعاد الكرة على الرومان. وهزمهم بوادي باجيدة (**ساحة لمبس**) فتركوا له حصونا. وغنم غنائم جليلة. فتشجع بهذا الانتصار. وذهب إلى تالة (**بعمالة تونس**) وحاصرها. فضاعف الرومان قوتهم مضاعفة أعجزت تقفاريناص عن مقابلتها. ففر أيضا إلى الصحراء وذلك سنة (**20**)م.

وبعد قليل أرسل إلى الإمبراطور طيبريوس وفدا يعرض عليه الصلح على أن يقتسم معه أراضي افريقية. فأبت للإمبراطور عظمته النزول لقبول هذا الشرط. وراءه وقاحة من تقفاريناص. فأرسل إلى الجيتوليين يعدهم بالعفو إن هم وضعوا السلاح. وجعل جعلا لمن يقتل تقفاريناص. فلم يجد من بطانة هذا الثائر خائنا.

وفي سنة (21) وجه الإمبراطور لحربه القائد بليسوس (BLOESUS) وكان ذا دراية بالحرب. فقسم جيشه أقساما وراء كل قسم حصن. فمكث في مطاردة تقفاريناص عاما. وكان يهزمه كلما التقيا. ولما أعجزت تقفاريناص الحيلة ويئس من الانتصار عاد إلى الصحراء ملجئه من قديم سنة (22).

سر الرومان بانتصار بليسوس سرورا عظيما. ولقبوه الغازي. ولكن هذا الانتصار لم يكن حاسما للثورة. فان تقفاريناص رجل لا يأبه بمعاكسة الأيام. ولا تقف أمام عزيمته العقبات. ولا يفشل للنوائب والصدمات. فمكث بعيدا عن الرومان بالصحراء حتى بلغته وفاة يوبا. فجدد عزمه وجمع جموعه. واستثار القبائل الجيتولية من جديد. وحاصر بعض المدن. فعين الرومان لحربه دولبلة (DOLABELLA). وابتدأ هذا الروماني بقتل عظماء الجيتوليين. واتخذ مراكز الجنود على حدود الصحراء. وطلب من بطليموس إمداده برجال البربر فأمده. وبلغ تقفاريناص مدينه توبوسبطوس (TUBUSUPTUS) ـ تيكلات ـ ، فحاصرها. وبرز إليه دولبلة بعد ذلك الاستعداد فأجلاه عنها. وفر أمامه كعادته إلى الصحراء. فلقيته الجنود المرابطة بحدودها.

هنالك توجه نحو موريطانيا اعتمادا على وعد حاشية بطليموس له بالإعانة. فأحاطت به الأعداء في الطريق. وما بلغ عوزية (**سور الغزلان**) حتى أدركه دولبلة. وانقض عليه ليلا فأفنى جيشه وقتله! وذلك سنة (24).

وهكذا انتهت حياة هذا البربري الذي يحمل بين جنبيه روحا استقلالية، وهو يعلم ما فيها من المصاعب، إذ ما كان يجهل قوة رومة ولا انتشار نفوذها بالوطن البربري. ولكنها العزائم الفولاذية تدفع بأربابها إلى ما وراء التأمل في العواقب. والبطولة قد تنتهي بصاحبها إلى الجنون.

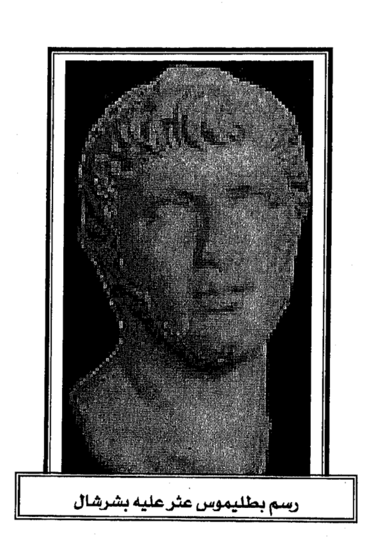
سر الرومان بالقضاء على شخص تقفاريناص الذي شغلهم مدة ثماني سنين. وجازى مجلس الشيوخ بطليموس على إعانته بقضيب من عاج وحلة مطرزة بالذهب. حمل هذه الجائزة احد الشيوخ وذهب بها إلى بطليموس مكلفا من قبل زملائه بمقابلته وتهنئته باسم «**ملك حبيب حليف**».

ما أجود بطليموس! بل بئس الجود جود بطليموس: يعين الرومان على قتل بني جنسه ليملكوا أراضيهم ونفوذهم ورقاب بقية الأمة، في مقابلة القاب والتحف! وبعد كيف كانت عاقبته معهم؟

في سنة **(39)** أرسل إليه الإمبراطور غليقلا **(CALIGULA)** يستدعيه إلى رومة ـ وكانت بينهما خؤلة ـ فلبى الدعوة حينا. وذهب في هيئة عظيمة غار لها الإمبراطور. وحضرا ذات يوم المرسح. فأعجب الحاضرون بثوب بطليموس الأرجواني. فاغتاظ لذلك الإمبراطور وزوجه في السجن وقطع عنه الطعام ولم يترك له ماء غير ماء الميازيب. وانتهى به الغيظ إلى ان قتله. يقول مرسيي: «**أما غيرة من هيئته وأما نهما في سفك الدماء واما طمعا في إلحاق مملكته برومة رأسا**» وسواء كان القتل لأحد

تلك الأغراض أو لثلاثتها فان غيرة الإمبراطور من هيئة بطليموس وبهت العامة مما يدل على تفوق الأزياء البربرية على الأزياء الرومانية.

كلن لنعي بطليموس أسوأ الأثر في نفوس البربر دفع بأحد مواليه المسمى أدمون على رفع لواء الثورة وعززه الجيتوليين. ولكن الرومان تمكنوا من إخماد ثورته. فرجع الأمر إلى نصابه، وألحقت موريطانيا برومة. وذلك سنة **(42)** م تقريبا.



رسم بطليموس عثر عليه بشرشال

انقراض الممالك البربرية:

قد رأيت كيف نشأت الممالك البربرية العظمى على عهد قرطاجنة، وكيف تعرفت إليها رومة. وقد عجمت هاتان الدولتان القويتان عود ملوك البربر. فوجدتاه صلبا لا يلين لكل غامز، ورأتا هدم استقلالهم **«دونه خرط القتاد»** فاكتفت قرطاجنة منهم بأن يكونوا معها ـ بحق الجوار ـ على رومة ذات المطامع الأشعبية. أما رومة فإنها بعدما انتصرت بمن نصرها منهم لم تنفك تتداخل في شؤونهم وإذكاء جذوة التنافس بينهم والزيادة في عددهم بتجزئة ممالكهم وشغلهم عن مهماتهم الداخلية باستنصار بهم في حروبها أو تقسيمهم على زعمائها المتحاربين. فقد رأيت أنهم ـ أيام تنازع مريوس وصيلة ـ منهم من كان مع الأول ومنهم من كان مع الثاني. وكذلك كانوا في تحارب بمبيوس وقيصر وعراك وكتافيوس وانطونيوس.

مهما أمعن الباحث في علل سقوط تلك الممالك وأمعن النظر ألفى ان علّة العلل هي تدخل روما في شؤونها بتلك الصفة التي ذكرنا. حتى أني عندما أريد من الفكر جولة في علل سقوط هاتيك الممالك يذهب إلى البحث عن أسباب بقائها وطول أمدها. فيجد السبب الوحيد هو ثروة الوطن البربري وغناه بكثرة رجاله الأحرار أولي الشجاعة وحدة الأفكار. فقضاء روما على يوغورطه لا يعجز ان يظهر مثل يرباص ويوبا الأول وعرابيون. ولكن لكل بداية نهاية ولكل شيء جدة وبلاء. فانتهى عمر الممالك البربرية بانتهاء حياة عرابيون ووفاة بوكوس الثالث. وجاء يوبا

الثاني وبطليموس بعدهما مجردين من الروح البربرية التواقة إلى الاستقلال. فكان عصرهما عصر تثبيت لقدم السلطة الرومانية شمالا وإقامة سد على الجهات الجنوبية التي ربما تنبعث منها أشعة للحياة الاستقلالية بالجهات الشمالية.

حقا أن رومة كانت تعمل لإسقاط الملك البربري، وحقا أن تداخلها هو الذي أسقطه، وحقا إن استمرار حياته ـ مع استمرار ذلك التداخل ـ أمدا غير قصير مما يدعو إلى العجب والتنقيب عن السبب. ولكن هل نعفي البربر من تبعة ذلك السقوط؟ وهل تستطيع روما أن تخرب ملكهم لو لم يخربوا أنفسهم بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم؟

نرجع إلى الصحائف السابقة نجد فيها جواب هذين السؤالين. ذلك أن تداخل روما اخذ يتزايد في عصر يوغورطه واشتد بعده. وفي هذه المدة كانت ملوك البربر من أسرتين: أسرة نوميديا قديمة أسسها نرافاس، وأخرى موريطانية مبلغ علمنا عنها أنها حديثة أسسها بوكوس الأول.

ومن الأسرة الأولى كان أبطال الاستقلال البربري. ومن وجد منها مؤيدا للرومان ـ مثل مستنابعل وهيمصال الثاني ـ على الأحرار من جنسه لم نجد له ضررا كبيرا ولا أثرا عميقا في هدم الملك البربري. أما الأسرة الثانية فقد كان مؤسسها بوكوس عاملا في القضاء على يوغورطة، وحفيده قتل يرباص، وابناه أعانا قيصر وتسببا في انتحار يوبا الأول.

وإذن نقول: أن على البربر تبعة تبعتا سقوط تلك الممالك، وهم الذين أعانوا الرومان على بلوغ غايتهم، وإن زعماء هذه الطائفة المارجة

هم بوكوس وعقبة. غير أنا لا نقول: أنهم تسببوا في السقوط قصدا، وأعانوا الرومان حبا فيهم وبغضا لجنسهم. ولكن نرى ان سياستهم مبنية على الجبن وخشية الرومان، والطمع في بسط النفوذ وسعة السلطان. أما خوفهم من الرومان ففي غير محله: لأن البربر بوطنهم ومعاقلهم الطبيعية امنع من ان تأخذهم أمة بالقهر والغلبة. وأما طمعهم في التوسع على حساب غيرهم فإنما يحققه ويستفيد منه من جمع بين القوة والدهاء والشجاعة. وهؤلاء الملوك لم يكونوا كذلك. ولذلك استغل الرومان أعداؤهم الحقيقيون جهودهم، وقضوا بهم وطرهم.

وقد جاء يوبا الثاني بعد سقوط الملك البربري ـ وهو من الأسرة الأولى ـ فكان عليه ان يعمل لتجديده وتحقيق ما كان يأمله سلفه. خصوصا وهو يعلم ان قيصر هو الذي قضى على حياة والده، وقسم مملكته بين أعدائه، وتربى في روما، ودرس تاريخها ولكنه رجل انهمك في المعارف وانقطع للعلوم ووقذته الحضارة. فلم تكن له روح مصينيسا ومصيبسا التي جمعت بين العلم والمحافظة على القومية. ولذلك صار يرى لرومة فضلا عليه أن منحته بعض ما كان يرثه من أبيه. فخدمها بإخلاص. وهيأ لها الوطن البربري كي يتولى إدارته بنوها من غير واسطة. فكان عصره ومدة إبنه خاتمة لذلك الملك وتتمة لذلك السقوط.

أقدم من عرفناه من ملوك بربر الجزائر نرافاس. وكان موجودا سنة (238) ق.م. وآخرهم بطليموس المقتول سنة (40)م. فكان عمر الممالك البربرية العظمى نحوا من ثلاثة قرون.

لم ننسب ملوك البربر إلى قبائلهم لأن الباحثين في هذا الدور من مؤرخي اليونان والرومان الذين أخذ عنهم مؤرخو الإفرنج لا عناية لهم بالبحث في القبائل. وإنما فعل ذلك مؤرخو العرب. وهم إنما عرفوا البربر ودونوا أخبارهم وفصلوا قبائلهم بعد الفتح على عهد الإسلام.

والظاهر أن القبائل التي ذكرها ابن خلدون بأسمائها وأمكنتها لم تكن قريبة العهد من الفتح العربي. بل هي كذلك من قديم. وعليه يمكننا ان نقول: أن أسرة نارفاس ـ ومنها أكثر الملوك ـ من قبيلة كتامة. أما صيفاقس وبيت بوكوس فلا يمكننا نسبتها لقبيلة من القبائل التي ذكرها ابن خلدون: لعدم تحققنا لموضع نشأتهما.

ذكر العواصم الكبرى لملوك البربر:

علمت مما سبق في هذا الباب أن من ملوك البربر من استولى على جميع التراب الجزائري بل على أغلب افريقية الشمالية، ومنهم من استولى على بعضه، ودخل الباقي في حوزة ملك آخر، وقد بلغ أحيانا أن تقاسم هذا الوطن أربعة ملوك. لا جرم تعددت عواصمهم بتعددهم. ولكن لم نعثر ـ بعد البحث ـ إلا على ما يلي من تلك العواصم:

1- قرطة (CIRTA) وكانت عاصمة نرفاس وأكثر الملوك من بعده. ولا نعلم تاريخ تأسيسها. ولكن من المحقق أن البربر أسسوها على

عهد الفينيقيين، وأطلقوا عليها ذلك العلم الفينيقي. ومعناه المدينة[1] فسرها كذلك اغسال.

هذه المدينة واقعة على جبل حجري مرتفع، يحيط به وادي مساغا (وادي الرمل) من أغلب جهاته. وقد وصفها سترابون المؤرخ الروماني بأنها قلعة ممتنعة على من رامها. وذكر المؤرخ أبيان: أن مصيبسا حصنها تحصينا لا يمكن معه لأحد أن يفتحها عنوة. وقال البكري: ليس يعرف أحصن منها. ويدل لذلك أن يوغورطة عكف على حصارها مدة عامين. ولولا المجاعة ما وجد سبيلا لفتحها. والوندال لم يتمكنوا من فتحها، وهم الذين فتحوا قرطاجنة ورومة. كما سيأتي.

استمرت هذه المدينة على عهد الملوك الأولين من البربر في تقدم ورقي من حيث التجارة والبناءات الأنيقة والمعارف. فكثر روادها واتسع عمرانها، ثم نقصت من قيمتها وعمارتها كثرة الفتن على عهد هيمصال الثاني.

ولما منحها قيصر لستيوس أخذت في النمو. وازدهرت في العصر الروماني بكثرة السكان وسعة العمران وفنون العرفان. وفي أوائل القرن الرابع للميلاد وقعت حرب بين قسطنطين ومكسنتيوس فدخلها هذا الأخير وعاث فيها فسادا بقتل السكان وسبيهم و إحراق المدينة.

---

[1] بعض الكتاب يكتبها سرتا، تبعا للنطق الافرنجي. ونحن اخترنا أن نكتبها قرطة– وان لم نر من كتبها كذلك لأن حرف © عربة العرب قافا في مثل صقلية وقيصر وقالوا أيضا: قرطاجة وهي مركبة من كلمتين أولاهما قرطا. ومعناها أيضا المدينة.

وبعد أن غلبه قسطنطين جدد بناءها، وأعاد على الناس أموالهم، ونشط الفلاحة. فعادت إليها عظمتها وعمرانها. وما زالت شمسها تبزغ وتأفل. وهي لهذا العهد كثيرة المباني واسعة العمران. كل سنة تزداد سعة. ولكن ما زالت لم تبلغ حدودها التي كانت عليها في العصر الروماني.

بقي لها اسمها الفينيقي حتى جاء ستيوس فدعيت «**مستعمرة ستيوس**» يريدون بالمستعمرة المدينة. وأطلقت عليها إعلام آخر. ولكن كلها لم تزاحم اسم قرطة ولم تبلغ شهرته. حتى جددها قسطنطين. وكانت له أخت تدعى قسطنطان. فسمى المدينة باسمها. وعلق من ذلك الحين هذا العلم بها. وجر ذيل النسيان على ما قبله. وقد خفف العرب هذا العلم فقالوا: قسنطينة. والعامة اليوم تقول قسمطينة.

قدر لهذه العاصمة الخلود. فلم تزل منذ تأسيسها إلى اليوم عاصمة مملكة أو ولاية. وذلك لحسن موقعها وأهمية مركزها. مما يدل على حذق البربر وفضل اختيارهم في وضع عواصمهم.

ولم تزل هيئتها القديمة سواء في أيام عظمتها أو في ليالي انحطاطها إلى أن جاءت الدولة الفرنسية فغيرت شوارعها. ورتبت ابنتيها على غير نسقها القديم. ولم يبق إلا موضع قصبتها فإنه كان منذ الدور البربري القديم قصبة الملوك ودار الحكم. وبذلك ذهبت قيمتها التاريخية .واحتيج في استخراج هيأتها الأولى إلى جهود كبيرة. وقد رسم تلك الهيئة بارس في كتابه قرطة.

2- صيغة: هذه المدينة كانت عاصمة صيفاقس قبل ان ينتقل إلى قرطة. وهي في ساحل تلمسان على البحر الأبيض عند مصب نهر تافنا، من المؤرخين من قال شرقية، ومنهم من قال غربية.

وهي من مؤسسات الفينيقيين استولى عليها البربر فيما استولوا عليه من المدن الفينيقية بالسواحل. ولما استولى الرومان على موريطانيا اتخذوها مرسى من المراسي التي تنقل منها الحبوب إلى رومة.

وقد خربت وعفا رسمها. وذكر البكري مدينة سماها أرشقول غربي مصب نهر تافنا. ووصفها بما يدل على سعتها وعظمتها. غير انه لم يذكر ـ كعادته في المدن القديمة ـ أنها أولية. فعلى أن صيغة شرقي تافنا تكون مدينة ارشقول غيرها، وعلى أنها غربية لا يبعد ان تكون أرشقول مؤسسة على أنقاضها. ثم وقفت في تاريخ غروت على ان أرشقول هي صيغة.

3- يول: هذه المدينة من المراسي الفينيقية. أسسها الفينيقيون. ثم دخلت أيدي البربر. وأول من اتخذها من ملوكهم عاصمة بوكوس الثاني. وعلى عهد يوبا الثاني بلغت مبلغا عظيما من العمران والحضارة. بني بها المباني الجميلة والقصور الأنيقة. وآثارها تدل على عظمتها، وعلى أن اليد التي شاد بها يوبا هذه المدينة يد إغريقية افريقية وليست رومانية. وقد اتخذت دار لحفظ تلك الآثار، وصنعت تماثيل على نمطها نقلت على متاحف أخرى من متاحف الآثار.

ولغرام يوبا بكافله أغسطس قيصر نسب هذه المدينة إليه تخليدا لذكره. فسماه قيصرية. وهذا نظير ما يفعله الأروبيون اليوم، ويكثرون

منه. فينسبون مدنا وشوارع وحارات إلى عظمائهم. يفعلون ذلك بالأوطان التي استولوا عليها إعفاء لعظماء أهلها حتى يصبح المحكومون لهم وليس بين عينهم وفي آذانهم إلا رجال غيرهم.

وتعرف هذه المدينة اليوم باسم شرشال. و لا أدري متى حدث لها هذا العلم؟ غير أن البكري ذكرها به. وهو من أهل القرن الخامس الهجري.

4- هبون: ذكر غروت أنها عاصمة يوبا الأول. وقد اتخذها جنسريق الوندالي عاصمته قبل أن ينتقل إلى قرطاجنة، ثم كانت عاصمة بعض الأمراء في العصر الإسلامي.

وهي من المؤسسات الأولى للفينيقيين التي يرجع تاريخها إلى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. وقد تصرف العرب في هذا الاسم فدعوها بونة. قال البكري: «**ومدينة بونة أولية. وهي مدينة أقشتين (القديس أغسطين) العالم بدين النصرانية. وهي على ساحل البحر في نشز من الأرض منيع مطل على مدينة سبوس. وتسمى اليوم مدينة زواي. وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال. ولها مساجد وأسواق وحمام. وهي ذات ثمر وزرع. وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة**»[1].

---

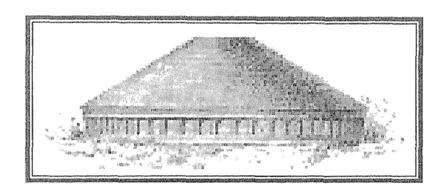
[1] المغرب ص 54-55.

ولكثرة شجر العناب بها أطلق عليها مدينة العناب حتى صارت تعرف اليوم بعنابة.

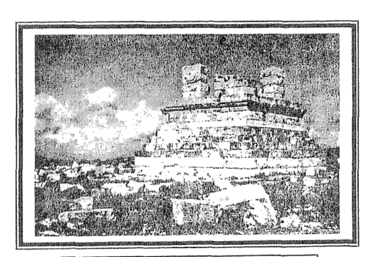
هذا ما وجدنا من عواصم ملوك البربر القدماء منصوصا عليه. وهناك مدن كثيرة منها ما يحتمل ان يكون عاصمة لبعضهم مثل بجاية وسطيف. ولكنا لم نجد من صرح بأن واحدة منهما كانت عاصمة لملك من الملوك. ومما لا ريب فيه ان هناك عواصم غير تلك الاربع. فإننا نجهل عاصمة يوغورطة قبل أن يفتح قرطة، ونجهل أيضا عاصمتي ماصنتة وعرابيون.



كليوباترا - سيلين



المدرسان: قبر بربري واسع محاط
والذي منه أخذ القبر شكل الهرم



سوما الخروب مقبرة ماسينيسيا

الباب السادس

في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائر

تمهيد:

الرومان أمة من اللطتين، ينسبون إلى عاصمة دولتهم رومة. وهي مدينة مؤسسة وسط ايطاليا. أسسها ـ على مايقول الرومان ـ روملوس سنة(753)ق.م.

وايطاليا جزيرة مستطيلة. الجهة الشرقية منها عديمة السهول والمراسي، والجهة الغربية بخلافها ذات سهول وماس. وهي التي كونت تاريخ ايطاليا. وأما جنوبها فقليل العمارة، اتخذه اليونان مركزا ينزلون به في سفراتهم البحرية.

وهي متوسطة في العالم القديم: واقعة بين عالم الشرق المتمدن، وعالم الغرب المتوحش.

وكان سكانها أهل حراثة وقيام على المواشي. ثم تعلموا الملاحة والتجارة من بعد. وكان بها أمم مختلفة لا صلة لها بعضها ببعض.

وعلى أيدي الرومان تكونت الوحدة الايطالية، حيث أسسوا حكومة ملوكية، اختلف في بدايتها. ودامت إلى سنة (509)ق.م ثم

خلفتها الجمهورية. وفي عهدها تمكن الرومان من حماية أنفسهم فمدوا أعينهم إلى غيرهم من الأمم قصدا للتوسع وسعيا وراء الثورة ولذة النفوذ.

حاربوا قرطاجنة معلمتهم المدنية حروبا طوالا يشيب لهولها الولدان، وانتصروا عليها أخيرا بما امتازوا به من نكث العهود وخيانة الشرف. وأخذوا في فتح البلدان واستعمار الأوطان ، حتى ملكوا جل المعمور في القرنين الثاني والأول (ق.م). فبسطوا نفوذهم على افريقية الشمالية تدريجا، وعلى مصر والشام واليونان ومقدونيا وجرمانية والغاليا والأندلس.

أصبحت دولتهم سيدة العالم القديم. واقتبسوا من الأمم التي استولوا عليها أصول المدنية وأساليب الحضارة وفنون العلوم. وجروا في ذلك إلى مدى بعيد، حتى أن أوروبا اليوم لم تزل تقتفي أثرهم في الاستعمار، وتستمد من نظمهم وسياستهم، وتبحث عن أسباب فوزهم وعلل خيبتهم.

ولموقع وطنهم الجغرافي دخل كبير فيما بلغوه من عظمة وسعة سلطان. وبعد الجمهورية جاءت الإمبراطورية. فتمكنت من حفظ سيادتها على العالم الروماني، حتى انقسمت أواخر القرن الرابع للميلاد. ومن ذلك الحين أخذت المملكة الغربية تضعف وتتلاشى حتى سقطت سنة(476) للميلاد. وذلك بما نال أهلها من بطر النعمة وسعة السلطان. فانغمسوا في الملاذ واشتغلوا بالملاهي. فضعفوا عن القيام بأعباء الملك. وقد قال كاتب روماني: «**ان انتصارات رومة هي علة سقوطها**».

أصل الرومان:

كانت تقطن ايطاليا في فجر التاريخ أمم مختلفة. منها الغاليا والاتروسك والاغريق واللطين. وموطن اللطين بين الإغريق والاتروسك. وكانت هذه الأمة متوحشة، وأهل الجبال منها أصحاب مواش، وأهل السهول فلاحون. ومن هؤلاء الفلاحين ظهرت الدولة الرومانية.

وذكر ابن خلدون: أن اللطين من يافث بن نوح. وذكر في أبناء يافث يونان وماغوغ. ثم اختلف نقله في نسبة اللطين إلى يونان أو ماغوغ: فنقل عن اهروشيوش مؤرخ الرومان: «**إن القوط واللطين من ماغوغ**»[1] ونقل عن الاسرائليين ان يونان «**كان من الولد أربعة. وهم: داوود بن واليشا وكيتم وترشيش. وأن كيتم من هؤولاء الأربعة هو أبو الروم: والباقي يونان**»[2] والروم عنده هم الرومان. وليس من فرق بينهما من حيث الأصل. وذكر في موضع آخر ليونان خمسة أبناء. وسماهم هكذا: «**كيتم وحجيلة وترشوش ودودانم وايشاي**»[3]. وفي النص الأول تحريف يظهر صوابه من النص الثاني. ذلك انه قال أولا: داوود بن واليشا. وقضيته أن يكون أبناء يونان ثلاثة فقط. وقال ثانيا: دودانم وايشاي. فايشاي هو اليشا، ودودانم هو صواب كلمة داوود بن. وبذلك يتم عدد الأبناء أربعة كما قال.

---

[1] ج2 ص10.

[2] ج2 ص10.

[3] ج2 ص184.

وكلمة ترشيش أو ترشوش عنده قريبة من كلمة الاتروسك عند مؤرخي الإفرنج. وهم يقولون: ان الاتروسك أمة مجهولة الأصل واللغة. فان صح حمل الكلمتين على أمة واحدة ـ كما يظهر لنا ـ كان الاتروسك إخوان اللطين. ويقربه الجوار. والله أعلم.

تأسيس دولة الرومان:

تاريخ ابتداء الدولة الرومانية غير واضح. قال ماليت: والمؤرخون يعتمدون على ما كتبه تيت ـ **ليف** **(TITE-LIVE)** الذي كان على عهد أغسطس قيصر متصلا بآخر حياة الجمهورية.

هذا المؤرخ ينسب تأسيس الدولة الرومانية إلى روملوس بأني رومة. وينسب روملوس ـ تبعا لأساطير الوثنيين ـ إلى الآلهة. ويذكر في نشأته ونشأة أخيه ريموس خرافات، أضربنا عنها صفحا لبعدها عن الخيال المستحسن، وإن لم يتفق مع الحقيقة.

وعد ماليت لرومة سبعة ملوك. خامسهم هو الذي أدخل إلى رومة شعار ملوك الأتروسك: الجبة الحمراء والتاج والكرسي وسيف المملكة، وسادسهم هو أول من تنبه إلى طبقة الصعاليك. فادخل قسما منها في الجندية. وقد كانوا كمية مهملة. وطبقة الأشراف هي التي تقوم بجميع شؤون المملكة. وسابعهم ثارث عليه الأمة. فالتجأ على المعبد، ولكنه قتل به.

وفي ابن خلدون تصريح بأن رومة أسسها روملوس. ولكن الدولة مؤسسة من قبله بكثير. وعد ملوكا تقدموا روملوس. ويظهر من كلامه ان الدولة أسست أثناء الألف الثاني (ق.م). وذكر ابن كريون مؤرخ بني إسرائيل: أنه جاء بعد روملوس خمسة ملوك. «**اغتصب خامسهم رجلا في زوجه. فقتلت نفسها. وقتله زوجها في الهيكل**»[1].

فاتفق ماليت وابن خلدون على أن آخر ملوك رومة قتل بالمعبد. وبه انتهى الدور الملوكي وذلك سنة **509** (ق.م) وصار نظام رومة جمهوريا من ذلك الحين.

قال ابن خلدون عن ابن كريون: «**واجمع أهل رومة على أن لا يولوا عليهم ملكا. وقدموا شيوخا ثلاثمائة وعشرين، يدبرون ملكهم. فاستقام أمرهم كما يجب، إلى أن تغلب قيصر**»[2]. وشكل الجمهورية يتألف من قنصلين وشيوخ.

1- القنصل: ومعناه منفذ الأحكام. وينتخب لمدة عام. وللقنصلين رئاسة الجند ومجلسي الشيوخ والشعب. ولهما النظر في القوانين وعرضها على المجلسين. وهما اللذان يقيمان الاحتفالات الدينية. فهما رئيسان في الدين والسياسة.

---

[1] ج2 ص197.

[2] ج2 ص197.

2- **الشيوخ**: يختارهم القنصل من رؤساء الأسر الشريفة. ومن اختر لهذا المنصب يبقى به مدة حياته. وبيد الشيوخ السلطة على الشؤون الداخلية والسياسة الخارجية.

ومن نظام الجمهورية أنه في أيام الشدة يسمى القنصلان متصرفا يمنحانه النفوذ المطلق. فينفذ أحكامه من غير مراجعة مجلس الشيوخ. ويسمى لمدة ستة أشهر فقط.

وقد اتسعت ممتلكات رومة على عهد الجمهورية. فبلغت ولايتها سبع عشر: عشر ولايات بأروبا، وخمس بآسيا، واثنتين بافريقية.

لم تكن تقصد الجمهورية الرومانية إلى التداخل في عوائد مستعمراتها وديانتها. وإنما تقصد منها الانقياد لدولتها وأداء الضرائب لبيت مالها.

ولقد كان نظام الجبايات مضرا بالمستعمرات. فقد كانت الجمهورية تسند استخلاص الضرائب إلى أعيان أغنياء، يؤدون لها ما تريده. وهم يستخلصون من الأمة ما شاءوا من غير مرحة ولا شفقة. حتى أن المعدم يقرضونه بالفائض ليأدي لهم ما يطلبونه منه. وبهذه الصفة انتزعت أملاك وافتقرت أسر.

فشا الجور والارتشاء في جميع ولاة الرومان. وأصبحت غايتهم الوحيدة هي الحصول على الثروة بأية وسيلة. ولم تتبق الوظائف مسندة إلى مستحقيها. وحدثت برومة نفسها أهوال من تنافس العظماء. وصارت القوانين ضعيفة أمام ذلك كله.

ساءت من ذلك حال الأمة. ولم تجد في الجمهورية ما يحسن حالها ويخفف من ويلاتها، فاجتوتها، وتواطأ على اجتوائها أهل رومة وأهالي الولايات التابعة لها.

وبينما الأمة في انتظار الفرج لهذه الأزمة إذ ظهر يوليوس قيصر. وحاول تغيير شكل الحكومة بجعلها إمبراطورية. فقام في وجه الجمهوريون، وانتصر عليهم بايطاليا ثم افريقية ثم الأندلس. ولما عاد من الأندلس سنة (45) **ق.م** سمي برومة متصرفا مستبدا مدة حياته فحارب الجمهوريين بالسياسة كما كان حاربهم بالسيف. ولضعف نفوذ مجلس الشيوخ، فصار مجلس استشارة فقط. وكان عددهم سبعين في نقل ابن خلدون عن هروشيوش أو (320) في نقله عن ابن كريون أو (300) على ما ذكر ماليت، فأضاف إليهم يوليوس قيصر شيوخا من أهل الولايات التابعة لرومة. فبلغ عددهم (900).

فرحت الأمة بيوليوس قيصر لحسن إدارته وكفاءة ولاته. ولكن الجمهوريين كانوا ناقمين عليه. وتمكنوا من قتله في مجلس الشيوخ نفسه سنة (44) **ق.م**.

وكان الجمهوريون يظنون أن في ذهاب قيصر رجوع نفوذهم ولكن الأمة كرهت سياستهم، وسئمت من الفتن التي كانت على عهدهم، واستبشرت بقيصر ووجدت فيه بغيتها، فزادها قتله نفورا من الجمهوريين.

وكان من قواد قيصر رجل يدعى انطونيوس، وله شهرة ومحبة في قلوب العامة، فقام على الجمهوريين، وهيج العامة ضدهم. وكان لقيصر ابن أخ (**أو ابن أخت**) متبنية يدعى اكتافيوس، وكان بأثينا يتعاطى المعارف، وهو حدث شديد الحماس داهية في السياسة، فتظاهر باللين للجمهوريين، حتى ظنوا أنه يكون لهم عضدا على انطونيوس، فأخذوا ينصرونه في خطبهم، ويطعنون في انطونيوس وبعد أن توصل إلى رئاسة جند كبير طلب إلى الشيوخ أن يولوه قنصلا فامتنعوا.

كان انطونيوس ينتصر لقيصر كي يحل محله، فلما ظهر اكتافيوس حسده، وكادت الحرب تقع بينهما، ولكنهما اصطلحا وضما إليهما ثالثا هو لبدوس، وكان واليا على الغاليا، اقتسم هؤلاء المملكة بينهم لمدة ثلاث سنوات، ووافقت الأمة على ذلك بالانتخاب العام، وذلك سنة(**42**)**ق.م.**

ثم أن انطونيوس ذهب إلى مصر التي كانت له، واستهوته **كليوباطر**[1] فشغل بها عن الملك. وصار ينوي إحداث مملكة شرقية يورثها أبناء عشيقته، وبذلك زالت ثقة الرومان منه، ولبدوس جعل رئيسا دينيا، فبقي اكتافيوس يدير مملكة رومة وحده، لا ينافسه الا أنطونيوس صريع تلك الغانية وفاقد ثقة الأمة.

نجح اكتافيوس في سياسته، وأراد أنطونيوس الظهور عليه بالحرب، فحاربه ولكنه لم ينجح فقتل نفسه سنة (**30**)**ق.م** وفعلت كليوباطر فعله[2]

---

[1] يسميها ابن خلدون كلابطرة.

[2] وبموتها انقرض ملك آل بطليموس من مصر. وقد كان تولاه بطليموس الأول سنة (**323**)ق.م.

فاستراح اكتافيوس من عدوه، ثم قضى على الجمهورية التي عاشت خمسة قرون، وقال ابن خلدون: عاشت سبعة قرون.

في سنة (27) **ق.م** لفظت الجمهورية النفس الأخير، وسمي اكتافيوس إمبراطورا، وتلقب أغسطس، واستمرت الدولة الرومانية من عهده إمبراطورية، ومعنى إمبراطور صاحب الأمر.

والجزائر لم يستول عليها الرومان استيلاء عسكريا إلا على عهد الإمبراطورية.

ديانة الرومان:

للرومان آلهة عظمى عامة، وآلهة صغرى خاصة بالسر أو المنازل، فكانوا يعبدون القوى الطبيعية والنار المقدسة والموتى من أسلافهم، وعبادة الموتى هي العبادة الخاصة بالأسر، ويعتبرونهم آلهة خير مانشطوا لعبادتهم، وقربوا لهم القرابين، وان هم قصروا في ذلك انقلبوا آلهة شر، ويمثلون أرواحهم في الديدان، فيطعمونها الفول الأسود.

ومن آلهتهم العظمى جوبتير (**كوكب المشتري**)، وهو إله المطر، ومنها جونون، وهي آلهة النور والزواج، ومنها منيرف، وهو إله الفطانة، ولهذه الثلاثة بروما معبد مشترك بينها، ويعتقدونها حامية رومة.

وهناك آلهة للحرب والبحر والمعادن والفلاحة والتجارة والأخلاق وغير ذلك، ويبلغ عدد آلهة الرومان مائة وستين إلها.

أولئك الآلهة يستغيثون بها ويستعينونها في جميع شؤونهم. وهم أكثر الأمم اعتناء بالآلهة، فقد كان ببعض معابدهم ثلاثين ألف تمثال، حتى قال أحدهم: «**وطننا مملوء آلهة حتى أن وجود اله أيسر علينا من وجود رجل**».

ولم يكن للديانة الرومانية حقائق وأصول للعبادة، وإنما كانت ذات أعمال مثل تقريب القرابين، وغايتهم في العبادة الاستعانة على النصر أو الاستعانة لتصريف المصائب.

ولم يكن لآلهتهم أولا تماثيل، ثم تأثروا بالإغريق، فصاروا يتخذون لها تماثيل في صور بشرية.

وعلى كثرة آلهتهم أضافوا إليها آلهة أخرى مما وجدوه لدى الأمم التي استولوا عليها، فأخذا من آلهة المصريين وأهل آسيا الصغرى، ولم يدعوا الها من آلهة الإغريق إلا عبدوه.

وكان علماء الرومان يرون أن الأرباب المختلفة باختلاف الأمم ليست الا مظاهر لأصل رباني عام. لذلك لم يأنفوا من عبادة آلهة الأمم المغلوبة لهم، ولم يلزموها بعبادة آلهتهم. وقد اشتهر الرومان بالتسامح الديني والتساهل في شأن الآلهة.

الحياة الرومانية:

كانت الحياة الرومانية ـ منذ عرف الرومان إلى القرن الأول للميلاد ـ حياة بساطة لارفاهية فيها، حتى ان من عظمائهم من كان يحرث بيده، وأكثر أثاث عظمائهم بسيط وأوانيهم من خشب.

تمكنت روح البساطة منهم فلم تتغير حالتهم حتى بعد استيلائهم على الأوطان الكثيرة الغنية بنتائجها الراقية في حضارتها. فبقوا فلاحين أو جنديين أو سياسيين لاتجارا ولا فنيين، وبقيت الصنائع والفنون بيد غيرهم من الأحرار والمماليك.

كان غرض الرومان من الحياة توسيع الثروة حبا في المال نفسه. ومن كلمات كاطون أحد عظمائهم: «**إن من مات وألفي بدفاتر حاصلاته انه ربح أكثر مما ورث فذلك ملهم من الآلهة**»[1].

ولكثرة أشغالهم وشدة عنايتهم بكسب الثروة صاروا أقل الأمم حبا في الملاهي وأبعدها عن التظاهر بالعظمة.

ملابسهم كانت خشنة: يلبس الرجل السراويل وقميصا سابغا بأكمام وبغيرها. ونساؤهم يكثرون من الحلي وضروب الزينة كصبغ الشعر وطلاء الوجه، ويخرجن سافرات، ويلبس كل من الرجل والمرأة خفافا غلاظا.

---

[1] ماليت ص330.

وللخاصة لباس يميزهم: الشيوخ لهم قمصان ذات حواش حمراء، والقضاة لهم خفاف حمر، والأحرار لهم حلة من الملف الأبيض، وهي رداء غير مربع، يبلغ طوله نحو تسعة أذرع.

ولم يزل الرومان على بساطتهم في اللباس حتى ان الإمبراطور قليغولة غار من لباس بطليموس ملك موريطانيا البربري وبهت منه العامة، وأفضت الغيرة إلى الانتقام بالسجن ثم القتل، فمات بطليموس شهيد لبسته!

ومساكنهم كانت خشبية مطينة، ثم ترقوا قليلا فبنوها بالحجارة، ولم تكن لها نوافذ لعدم معرفتهم لصناعة الزجاج. وعلى خلوها من النوافذ كانت ضيقة متقاربة، والانهج غير واسعة ولامنظمة، والنظافة قليلة، والضوء معدوم ليلا.

وكانت لهم بناءات عمومية، وهي أرفع من بناء مساكنهم لم يزل الرومان كذلك على بساطة حياتهم حتى فتحوا البلدان، واستولوا على الأمم، وأقاموا بين ظهرانيهم، وطالت معاشرتهم لهم. اذ ذاك تأثر الغالب بالمغلوب وجاراه في حياة النعيم والرفاهية. وفي الحقيقة ان المغلوب لا يؤثر في الغالب، وإنما أثرت تلك الأمم في الرومان لأنهم مغلوبون لها في العلم والحضارة.

أخذوا عن اليونان وأهل المشرق الملابس الرقيقة، وزينوا البيوت بالتماثيل والرخام والحجارة النفيسة، وفرشوها بالزرابي. وأكثر ما تأثروا في حياتهم بالإغريق، ومع ذلك لم يأخذوا عنهم فنهم في البناء. ولم تزل

آثار البناءات الرومانية دالة على فقد الذوق اللطيف للرومان، وهي تمتاز بأنها عظيمة ذات أقواس، بسيطة ليس فيها تحسين.

الرومان في افريقية:

انتهت الحرب البونيقية الثالثة بالقضاء على مملكة قرطاجنة وتخريب تلك العاصمة وحلول الرومان محل القرطاجنيين، فاستولوا استيلاء فعليا على التراب الأصلي لقرطاجنة، وأطلقوا عليه إسم «**مملكة الرومان بافريقية**» وجعلوا على هذه الممكلة أو الولاية واليا مقره عوتيقه.

وهذه الولاية عبارة عما بين وادي توسكا (**ناحية طبرقة**) شمالا، ومدينة تينة (**جنوب صفاقس**) جنوبا. وخطها الغربي من جهة نوميديا غير مستقيم فانه يمر من توسكا حتى يقترب من قفصه ثم ينحني حيث ينتهي في تينة قرب البحر. فهي عبارة عن جزء غير كبير من عمالة تونس.

و لم تكن تطمع الجمهورية الرومانية اذ ذاك في توسيع هذه الولاية وبسط نفوذها الفعلي على الشمال الإفريقي، لعلمها بشجاعة البربر وحماسهم في الدفاع عن وطنهم، وجهلها بدواخل هذا الوطن، فاكتفت باعتراف ملوك البربر بالسيادة الاسمية ريثما تلين قناتهم، وتضعف شوكتهم.

وكانت الجمهورية لما فتحت قرطاجنة بعثت عشرة من الأعيان لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة، فاتفق رأيهم على هدم ما أبقاه

الحريق منها فتركوها قاعا صفصفا كان لم تغن بالأمس، ولعنوا باسم آلهتهم موضعها، ولكنهم بعد قليل اضطروا لتجديدها.

وذلك أن ايطاليا ضاقت بأهلها بسبب استحواذ طبقة الأغنياء على أراضيها وجلب العبيد لخدمة تلك الأراضي، ويقال: أن عدد هؤلاء العبيد بلغ ثلاثة ملايين. وأصبح عدد عديد من الإيطاليين لا أراضي لهم يستغلونها ولا عمل يشغلون به، حتى أنه كان برومة أكثر من أربعمائة ألف لا عمل لهم غير الجولان بالأزقة.

وكان كايوس انتخب للمحامات عن الشعب سنة **(123)** فاقترح ـ لرفع هذه الأزمة إرسال جاليات من أولئك الفقراء من المال والعمل إلى الولايات الرومانية.

وكان روبريوس من محامي الشعب أيضا فاقترح سنة **(120) ق.م**، تجديد قرطاجنة وإرسال طائفة من فقراء الشعب لتعميرها.

قبل الشيوخ اقتراحه، وعين كايوس لتنفيذه، فجاء إلى قرطاجنة بستة آلاف ايطالي، ومكث في تجديدها ثلاثة أشهر، وحينما تم تجديدها أطلق عليها اسم «**جونونيا**» تبركا باسم جونون وجعلت هي حامية قرطاجنة.

وكما أن هدمهم لمدينة قرطاجنة لم يذهب بها وحييت من جديد كذلك تغييرهم لاسمها فإن تسميتهم لم تزاحم الاسم الفينيقي، وأبى الله إلا أن يبقي الاسم الأول هو المعروف المشتهر.

نهضت قرطاجنة من جديد وقصدها الرومان بالهجرة، وانضموا إلى بقية العساكر الرومانية التي استوطنت افريقية، وبما أنهم نسخوا القرطاجنيين وحلوا محلهم استفادوا من علاقات القرطاجنيين مع البربر، فانبثوا في مدن الولاية الإفريقية ونوميديا، وانتصبوا فيها للتجارة والصناعة، فتمكنوا بذلك في افريقية.

استيلاء الرومان على الجزائر:

بعد واقعة طبسوس سنة (46) **ق.م** استعمر الرومان شرقي نوميديا وأطلقوا عليها اسم افريقية الجديدة أو نوميديا الحديثة، ومنحت نوميديا الوسطى (**قرطة والمدن التابعة لها**) لستيوس. وأطلق عليها إسم «**مستعمرة ستيوس**».

ولعل الرومان أرادوا أن يجعلوا حكم ستيوس لنوميديا الوسطى دور انتقال يسهل عليهم إضافتها إلى مستعمراتهم من بعد، ولكن عرابيون قتل ستيوس فحرم الرومان من هذه المستعمرة. وأصبحت من بعد ذهاب المملكة البربرية ولاية رومانية لها أنظمتها وإدارتها، متمتعة بالاستقلال حتى أن من المؤرخين من يعبر عنها بالدولة ومنهم من يعبر عنها بالجمهورية.

أما نوميديا الغربية (**قسم سطيف**) فقد بقيت بيد عرابيون البطل البربري. والظاهر أن رومة إضافتها إلى مستعمراتها بعد قتله.

وأما موريطانيا الشرقية فقد بقيت بيد أمراء بربريين آخرهم بوكوس الثالث المتوفى سنة (**33**) **ق.م**. وبعد وفاته ألحقها الرومان بمستعمراتهم، وجعلت تحت نفوذ اكتافيوس مباشرة، وأراد أن يغرس بها الحضارة اللطينية، ولكنه خشي شدة شكيمة البربر، فلم يعجل بتنفيذ برنامجه، وتظاهر للموريطانيين باللطف والمجاملة حتى وجد رجلا من بني جنسهم ولكنه مخلص لرومة، فولاه على موريطانيا سنة (**17**) **ق.م**.

هذا الرجل البربري الروماني هو يوبا الثاني الذي مهد وطنه لسادته الرومان وشجعهم على امتلاكه بعد ما حاولوا ذلك منذ أزمان، واشرأبت أعناقهم إليه فلم يقووا على تحقيق آمالهم فيه.

وهكذا لولا الخيانة الجنسية من بعض الرؤساء وضعف الغيرة القومية من الأمراء ما حكم أجنبي وطنيا ولا ساد غريب أهليا.

في سنة (**42م**) بعد قتل بطليموس ألحقت موريطانية برومة نهائيا. وبذلك تم للرومان الاستيلاء على الوطن الجزائري الذي شرعوا في تحقيقه منذ سنة (**46**) **ق.م** فكانت مدة سير استيلائهم ثمانية وثمانين سنة.

ومع بطء هذا السير فإنه لم يكن ثابت القدم عاما على الوطن الجزائري فإن الرومان لم يتقدموا لهذا العهد إلى الصحراء، وخط حدودهم يقترب من البحر كلما تقدم ناحية الغرب. وتوجد داخل الحد أماكن غير خاضعة لرومة منها جمهورية المدن الخمس: قرطة، ميلوم، روسقاد، شولو، قويقلوم. ولم تدخل في فوضى الاستعمار الروماني إلا منذ انحل اتحادها

أواخر القرن الثالث. ومنها القبائل الخمس (**القبائل**) الذين كان الرومان يسمون وطنهم «**جبل الحديد**» (**MONS FERRATUS**).

ولم يتمكن الرومان من إخضاعهم إلا سنة (**297**). وأكثر البربر الساكنين بالجبال لم يخضعوا لرومة. ومن خضع منهم لا يضيع فرصة الثورة مهما سنحت.

وخلاصة الكلام أن الرومان لم يستولوا حقيقيا على كل الوطن الجزائري رغم امتداد أيامهم به. وسترى ما ينير لك الحقيقة.

حدود حكومة الرومان بالجزائر:

كان من عادة الرومان أن يحدوا ما يفتحون من البلدان أما بحدود طبيعية أو صناعية: فيحدون بالجبال والأودية أو ببناء جدران أو حفر خنادق وجعل كثبان من الرمل أو التراب خلفها. وذلك اتقاء لهجمات الهاجمين وحفظا لمستعمراتهم ان تروج بها بضائع أجنبية وهم لايشعرون.

وقد كان حد حكومة الرومان بالجزائر في القرن الأول للميلاد يمر شمال أوراس ويجتاز سهول سطيف ومجانة إلى سور الغزلان ثم يتوسع قليلا فيمر البرواقية وساحل شلف ويجتاز وادي ميناس إلى ناحية غليزان ووادي سيك. وفي غربي وهران يقترب جدا من البحر وينتهي بمصب نهر ملوية.

وبعد حين اضطر الرومان إلى تقديم الحدود جنوبا. وكانت لهم مراكز عسكرية على الحدود. وبعد سنة مائة بقليل تقدمت مراكز الحراسة

إلى الجنوب، وأحاطوا جبل أوراس الممتنع عليهم بالحصون. و لم يتم لهم فتحه الا أواخر القرن الثاني.

وفي بداية القرن الثالث كان الحد الروماني مارا جنوب أوراس وشاطئ وادي جدي الأيمن يصعد شمالا فيمر وسط جبال الزاب ويقطع وادي الشعير حيث القاهرة، والمظنون انه يمر بناحية بوسعادة ويشتمل على الحضنة من جهتها الغربية، ثم يذهب إلى قرب سور الغزلان جنوبا، ويمر ببوغار وتيهرت وتلمسان وللامغنية.

وقد يكون للحرس الروماني نقط حربية خلف الحدود، وقد تقدموا بها بعض الجهات إلى الصحراء حتى أن منها ما كان على الأغواط بثلاثين ميلا.

و لم يدخل الرومان الصحراء إلا في عمالة قسنطينة دخولها من ناحية أوراس. أما عمالتا الجزائر ووهران فليس للرومان فيهما إلا الجهات التلية المعبر عنها بموريطانيا القيصرية، وبقيت الصحراء في منجاة من تسلط الرومان. ذلك لأنهم أولا ليسوا بأمة صحراوية حتى يقدروا على فتح الصحراء أو تشتد رغبتهم في فتحها، وثانيا لم تكن الجهات التلية خالصة لهم فلم يكونوا مطمئنين منها حتى يغرروا بأنفسهم في الصحراء.

جند الاحتلال:

اعتمدت رومة في فتح الشمال الإفريقي على ثلاثة أشياء:

1- السياسة الملعونة: فقد كانت تذكي نار المنافسة بين ملوك البربر، وتعمل لتفرقة المملكة الواحدة بين الأمراء المتنافسين، وأضعاف الغيرة القومية بمحاربة أبطالها.

2- الاستعانة ببعض البربر ضد الآخر: فإن سياستها لما راجت على بعض رجال البربر من ملوك وأمراء صاروا يخدمونها ويعينونها على أعدائها أحباء الاستقلال. وكلما أرادت رومة رجلا بربريا يخدم مصالحها لم تعدمه، لأن الشعوب لا تخلو من خونة. فكان لرومة ملوك وأمراء بربريون مصافون لها أو مغترون بسياستها أو خائفون من عظمتها. وقد استفادت رومة من سياستها تلك وإعانة بعض البربر لها فوائد لا تقدر الجيوش الجرارة على تحقيقها، بيد أنها لم تفز بها إلا بعد أزمان لأن مطامعها في الجزائر ابتدأت منذ عصر مصينيسا ولم تستول عليها ذلك الاستيلاء المثقوب إلا بعد بطليموس.

3- الجند الروماني: فإن رومة مهما اضطرت للحرب جاءت بجنودها والجندي الروماني معروف بإخلاص الطاعة والصبر على الأتعاب. ولم تحتج رومة في فتح الوطن البربري إلى جيوش كثيرة لأنها لم تجد أمامها جيشا منظما تنظيم جيشها إلا في حرب زامة وحروب يوغورطة وتقفاريناص.

ولم تكن لتأمن وثورات البربر لاسيما واستيلاؤها على الوطن الجزائري غير عام ولا ثابت الأركان. فاتخذت حامية بتبسة تراقب

البروقنصلية (**تونس**) ونوميديا (**قسنطينة**)، وحامية لمراقبة موريطانيا الشرقية (**الجزائر ووهران**) وموريطانيا الغربية (**مراكش**).

أما حامية تبسة فتدعى «**الفرقة الثالثة الأغسطية**» نسبة إلى أغسطس قيصر. وكان بها ستة آلاف جندي وفي رواية (**5500**) وهذه هي الفرقة الكبرى وهناك فرق أخرى مشاة وفرسان يبلغ جميعها نحو ثلاثة عشر ألفا، وهذه الفرق مدد لتلك الفرقة.

وتلك الفرقة الثالثة رومانية من خيرة جنود رومة، وبها كثير من الغاليا، وبعد حين صار الرومان يعلمون البربر ويجندونهم. ومنذ الثلث الثاني من القرن الثاني استغنت رومة بجنود البربر عن جلب الجنود من الخارج إلى الفرقة الثالثة، فصارت هذه الفرقة متركبة من جنود البربر وأبناء قدماء الجنود الرومانية.

وأما الفرق الصغير فكانت أيضا تجلب من الخارج، وبقي الأمر كذلك حتى بعد دخول البربر في الفرقة الثالثة.

وفي سنة (**122**) نقل الإمبراطور هدريان مركز الفرقة الثالثة من تبسة إلى لمبس. وفي أيام ديوقلطيانس صارت لمبس قاعدة عسكرية للجنوب النوميدي.

وبطول عهد الفرقة ودخول البربر فيها وكثرة الاضطرابات برومة نقصت طاعتها لرومة، وقد تعارض في إمبراطورية بعض، وتؤيد بعضا. وألغيت سنة (**238**) وعوضت بالفرقة الثانية والعشرين.

وأما حامية الموريطانيين فكان عددها نحو خمسة عشر ألفا. وهي من البربر المخلصين لرومة.

فمجموع جيش الاحتلال بتونس والجزائر ومراكش نحو (**34000**) ليس به من الجنود الرومانية غير نحو (**8000**).

الجنود الرومانية تحارب وقت الحرب وتشغل بالفلاحة حين السلم. يسمح القانون الروماني للجندي بالزواج، وكانت لهم مرتبات حسنة. والمتقاعد يعطى كفايته ويسكن قرب المركز الذي كان به، ويمنح أراضي وحيوانات يقوم بخدمتها، ويعفى من الضرائب لكن بشرط أن يحل أحد من أبنائه محله.

وبهذه الطريقة أصبحت الحدود عبارة عن مستعمرات من الجند تحول دون غارات الهاجمين. وكان خط الحدود مقسما إلى أقسام كل قسم تحت حراسة ضابط.

وفي حوالي سنة (**200**) إذن الإمبراطور سبتمس سورس للجنود بالبقاء مع أزواجهم خارج المراكز العسكرية بصفة مستمرة. فصارت تلك المراكز أما مواضع لتمرين الجند وأما مختزنات للسلاح والمؤن.

ولحسن ذلك النظام في حفظ الحدود بقي الحد الروماني الذي بلغوه في القرن الثالث بحاله رغم الثورات المتعددة داخله. واستمر غير متأثر بما يجري داخل المملكة حتى سقط الحكم الروماني من الجزائر.

النظام الروماني بالجزائر:

علمت أن استيلاء الرومان على الجزائر كان تدريجيا وغير ثابت الأركان. لذلك لم يستقر النظام الروماني بالجزائر على حال.

كان ما أخذه الرومان من نوميديا ـ على عهد يوليوس قيصر ـ تحت ولاية سالوست. وبقيت نوميديا كذلك لها واليها غير والي البروقنصلية، ومن هؤلاء الولاة سكستيوس نائب اكتافيوس، وأخيرا تغلب على والي البروقنصلية وأضافها على ولايته. ثم عزل على عهد اكتافيوس نفسه وجعل مكانه فانغو على نوميديا خاصة، وولي هو على البروقنصلية، فوقعت بين هذين الواليين معارك انتهت بانتصار سكستيوس وقتل فانغو نفسه. وأصبح هذا المنتصر هو الوالي الوحيد بجميع ممتلكات رومة بافريقية.

ثم في عهد إمبراطورية اكتافيوس أيضا سمي يوبا الثاني على نوميديا. ثم نقل منها إلى موريطانيا سنة (17) وأضيفت نوميديا إلى البروقنصلية وجعلتا تحت عامل يسميه مجلس الشيوخ.

وفي سنة (37م) على عهد غليقلا تركت البروقنصلية على نظامها العتيق وجعلت نوميديا ذات وحدة إدارية يرأسها ضابط عسكري في رتبة عضو بمجلس الشيوخ. وهذا الوالي يخاطب رومة من غير واسطة. وهو تحت نظر الإمبراطور ويلقب ليغاتوس.

وفي سنة (42) قسم الإمبراطور قلوديوس الجزائر إلى قسمين:

نوميديا، من طبرقة شرقا إلى مساغا غربا، وموريطانيا القيصرية من مساغا شرقا إلى ملوشات غربا.

وجعلت موريطانيا القيصرية تحت نظر الإمبراطور يسمى بها العمال ولهم تفويض في الإدارة. وكان لنائب الإمبراطور بموريطانيا القيصرية مرتبا يقدر بنحو أربعين ألف فرنك.

وقد كان بالشمال النوميدي مدن مستقلة كما كانت جبال جرجرة ممتنعة عن الرومان. وفي سنة **(297)** بعدما انحلت الصلة بين هذه الجمهوريات، وعمت بها الفوضى، وتغلب ديوقاطيانس على جبال جرجرة حدث تغيير في نظام الحكومة الرومانية بالجزائر فقسمت إلى أربعة أقسام:

1- نوميديا القرطية (**وهي الشمال النوميدي**) قاعدتها قرطة.

2- نوميديا العسكرية (**وهي الجنوب النوميدي**) قاعدتها لمبس.

3- موريطانيا السطيفية (**ما بين مساغا وصلداي**) قاعدتها سطيف.

4- موريطانيا القيصرية (**ما بين صلداي وملوشات**) قاعدتها قيصرية.

ولما ثبتت قدم قسطنطين بإمبراطورية رومة أحدث سنة **(323)** تغييرا في الولايات الإمبراطورية، فقسمها ثلاثة أقسام كبرى:

ولاية ايطاليا، ولاية الغاليا، ولاية المشرق. وجعل تونس والجزائر تابعتين لولاية ايطاليا، وتداران من طرف واليها المقيم برومة. وهذا الوالي

تحته وزراء: وزير للمالية ووزير للأملاك الدولية ووزير للحربية، وكلهم برومة ولهم نواب يمثلونهم بافريقية: فكان للوالي يمثله قنصل افريقية، ووزير الحربية يمثله:

1- كونت افريقية، وله **16** قائدا على الجنود المرابطة بالحدود الجنوبية والفرق المنتقلة (**كونت: عين من الأعيان**).

2- دون موريطانيا القيصرية وله **8** قواد. وقد تكون بيد السلطة المدنية (**دوق: شريف**).

ولم تكن هذه التقاسيم مبنية على اعتبارات جغرافية، وإنما نظر فيها إلى المصالح الحربية، ولذلك تغيرت حسب الظروف.

وبما ان الاستيلاء الروماني لم يكن عاما فقد كانت المدن تنقسم إلى قسمين: مدن تحت السلطة الفعلية للرومان، ومدن لم تتمكن منها اليد الرومانية. والأولى كانت على ثلاث درجات:

1- **مدن رومانية:** هذه معتبرة كوطن روماني، أهلها يتمتعون بكل الحقوق الرومانية، ينتخبون ومعفون من الضرائب.

2- **مدن بلدية (MUNICIPES)**: هذه لها كل لحقوق الرومانية ما عدا الانتخاب.

3- **مدن لطينية:** لها حرية التجارة والتملك، وليس لها حق الانتخاب والإعفاء من الضرائب، وإنما هذان الحقان لخصوص المتقاعد من حكامها.

والثانية كانت على ثلاثة أقسام أيضا:

1- مدن معتبرة حليفة للرومان.

2- مدن حرة.

3- مدن معفاة من الخراج.

وهذه الأقسام للنوع الثاني من المدن تختلف إدارتها: فمنها ما هو محافظ على شكل الإدارة البونيقية لها حكام وقضاة ومجالس من الأعيان، ومنها ما هو تحت رؤساء بربريين يعينهم الإمبراطور ويمنحهم رداء يدعى «**رداء الولاية**» وقد يعطيهم إعانات ويوجب عليهم حراسة ما بجوارهم من الحدود. وقد تسمح رومة لبعض هذه المدن بانتخاب مجالس بلدية.

ورئاسة الرؤساء البربريين على بني جنسهم وراثية ويدعون أما عمالا أو أمراء، وقد يلقبون أنفسهم بلقب ملك.

أما المدن الرومانية فكانت تنتخب كل سنة حكامها. وهؤلاء الحكام يتصرفون في مالية البلدة ويقومون بإصلاح القناطر والطرق والبناءات العمومية ويقبضون المغارم ويسهرون على حفظ الأمن العام ويقضون بين الناس.

وإلى جانب الحكام مجلس بلدي يعينهم ويراقب أعمالهم ويشترط في العضو بهذا المجلس أن يبلغ ثروة محدودا أقلها قانونا، وأن يدفع للميزانية البلدية من ماله قدرا من المال. ولا مرتب له.

وأعضاء هذا المجلس ضامنون في مالية البلدة التي يتصرفون فيها. وإذن فإدارة المدن كانت بيد طبقة مثرية قليلة العدد.

وكان نطاق أكثر البلديات واسعا جدا: بلدية هبون (**بونة**) كانت تمتد غرب المدينة ثلاثين ميلا، وشرقها خمسين ميلا.

وكانت للإمبراطورية ورجال من أعيان الشيوخ أملاك واسعة مستقلة عن تراب البلديات، يقوم بحفظ تلك الأملاك وكلاء عن أربابها. والوكيل على أرض هو الحكم على من بها والقائم بحفظ الأمن فيها. ولسكان تلك الأملاك نواب يختارونهم للدفاع عن حقوقهم.

وبهذا تعلم ان الدولة الرومانية لم تكن تتداخل في إدارة شؤون الجزائر الداخلية، ولا مكثرة من المتوظفين الذين لا فائدة فيهم غير إثقال كاهل الميزانية، بل أنها تركت الدوائر البلدية وشأنها تدير أمورها بنفسها، و لم تتخذ من الموظفين إلا العدد القليل للقيام بالشؤون الهامة. وكان الوالي لا يتداخل ــ بصفة قانونية ــ في شؤون المدن الرومانية إلا في الخصومات المدنية الهامة والجرائم، فهو الحكم في ذلك، وله مراقبة المالية.

جمهورية المدن الخمس:

كانت قرطة عاصمة الملوك النوميدية منذ القرن الثالث قبل الميلاد. وقد اعتنى بها بعض أولئك الملوك فرقوها ترقية عالية.

ميلوم (**ميلة**) وروسقاد (**سكيكدة**) وشولو (**القل**) وكويكلوم (**جميلة**)، هذه المدن يقول عنها المؤرخ بلين: أنها كانت أولا قلاعا حربية، وأخذ عمرانها يتسع حتى أصبحت في عهد طرياناس إمبراطورية رومة (**98-117م**) شبيهة بقرطة.

وكانت هذه المدن تحت الملك النوميدي. وبعد واقعة طبسوس انفصلت تلك المدن الخمس عن بقية نوميديا حيث أن يوليوس قيصر منحها لستيوس يستعمرها بجيشه المتركب من الاسبان والإيطاليان. واشترط عليه ان يقطنها الرومان. وفي أوليتهم من نصره في حرب افريقية من الجنود. ومن ههنا سماها بعض مؤرخي الرومان «**مستعمرة ستيوس**».

انفصل من عهد ستيوس هذا القسم الواسع الخصب من نوميديا فلم يصر مرتبطا بها في السياسة والإدارة حتى أن يوبا لما ولي على نوميديا لم يعرف له نفوذ بهذا الشمال النوميدي .

وقد كانت قرطة هي العاصمة لهذا الشمال، وتلك المدن الأربع تابعة لها وجزء منها.

ومن القرى التي كانت تابعة لقرطة في النظام والحكم: ثيدي (**الخنق**)، ارسقال (**عين الكرمة**)، مستار (**عين بني زياد**)، وزيلي (**وجل**)، صدار (**عين الباي**)، سيلة (**سيقوس**).

وعلى القرى رؤساء منخرطون في سلك موظفي قرطة، وقد استقل بعضها على عهد سبتمس سويرس وخصوصا على عهد قراقلا.

وبعد استعمار الرومان لهذا الشمال النوميدي بقليل ظهرت تلك المدن الأربع بفضل انتشار العمران، وأصبحت تضاهي قرطة. وأخذت نظاما داخليا مستقلا مع بقائها متعلقة بقرطة.

وكانت جميلة دون بقية المدن الأربع. بل قليلا ما تضاف إليهن. وسبب امتياز هذا الوطن عن بقية نوميديا واختصاصه بنظام صار به

كمملكة مستقلة أنه كان تحت رئاسة ستيوس ناصر قيصر ومغلبه على أعدائه الأقوياء الكثيرين.

وسبب اتحاد قرطة وميلوم وروسقاد وشولو انه حدث خلاف بين سكان هذه المدن الأربع على بعض الأراضي أيام أغسطس قيصر. وكان القرطيون قد أعانوه على عدوه ومنافسة أنطونيوس، فكانت لهم بذلك عليه يد. فلما رفعت صورة الخلاف إليه لم يشأ أن ينصف أهالي المدن الثلاث من أهالي قرطة، ولكنه أصلح بينهم وعقد لهم محالفة رباعية، وجعل لكل مدينة إدارة شؤونها الداخلية على أن يكون لقرطة فضل الإشراف على الجميع. فكل مدينة تضرب الضرائب وتجبي الغرامات وتصرفها في مصالحها، ولكن رئيس قرطة هو المراقب لأعمال سائر المدن، ويساعده في بعضها مجلس بلدي، وفي بعضها مجلس من المتوظفين حيث لم يكن لها حق الانتخاب.

وتدار هذه المدن المتحالفة على أيدي رجال تنقسم وظائفهم أربعة أقسام:

1- **الرجال الثلاثة (تريومفير)**: لهم من النفوذ ما لقناصل رومة وينتخبون لمدة سنة فاتحتها يوليه. والمترشح يعلن قبل الانتخاب مباديه، ويرأس جلسة الانتخاب من الرجال الثلاثة المنتخبين سابقا أكبرهم سنا. وهذا الرئيس ينظر في المترشحين واستيفائهم للشروط. ويعلن بقبول إجراء إنتخاب المستوفي لها. ومن انتخب لايقبل تسليمه.

والرجال الثلاثة يتولون قيادة الجيوش وفصل النوازل بأنفسهم أو بمن يقيمونه نائبا عنهم، وبيدهم نظام الإدارة بأسره، وكونهم ثلاثة هو الغالب. وقد يبلغ عددهم أحيانا خمسة أوسبعة أو عشرة أو خمسة عشر أو عشرين. وهم أما من أعيان الرومان أو ممن كان قنصلا بروما.

2- **رجال الشرطة (الايديل)**: وظيفتهم الخاصة بهم مراقبة البناءات العمومية والحمامات الدولية ودخلها والمحافظة على نظافة الشوارع وجلب الحبوب إلى المدينة وتشكيل الحفلات ومراقبة الأمن بالأسواق والموازين والمكاييل وتأديب المعتدين بالجلد أو بالتغريم. ويرأس هذه الوظيفة رجلان يضع كل منهما خمسة آلاف ضمانا.

3- **وزير المالية**: يقوم باستخلاص المغارم، ويقدم لرجال الشرطة المال عند عروض داع إليه. وهو الرئيس الأعلى لإدارة المالية. ولا يوجد ما يدل على أنه كان ملزما بوضع ضمان عند توليته.

4- **العمال**: كانت وظيفتهم في بلدان الجمهورية ماعدا قرطة. وهم بمثابة الرجال الثلاثة في قرطة. والظاهر ان يكون منهم لكل مدينة واحد. وينتقل العمال في المدن الثلاث من واحدة لأخرى.

وهناك متوظف غير من سبق يلقب «**كورتور**» (**CURATUR**) يسميه الإمبراطور. وقوة نفوذه تابعة لقوة نفوذ الإمبراطور في البلد الذي سماه فيه. ولم يكن للإمبراطور قوة في هذه الجمهورية الا بعد انحلالها

ومجيء البيزنطيين. فصارت وظيفته أخيرا قبض الخراج والقيام بجل الوظائف البلدية.

وكما كان لسياسة هذه الجمهورية رجال كان لديانتها أيضا رجال، وهم أقسام:

1- القائمون على الهيكل بذبح قرابينه وتقديمه لناره وأقدارهم مختلفة باختلاف عظمة الهيكل القائمين عليه. ولا يكون القائم على الهيكل الا من بيت شريف. ويعتبر هو وذريته وماله وقفا على خدمة ذلك الهيكل.

2- المراقبون للأعمال الدينية أينما كانت ماعدا القرابين التي هي من أهم تلك الأعمال.

3- العرافون: يتولون افراخ الدجاج لزجها ومعرفة الحوادث الغيبية منها. ويتفرسون أيضا في الضحايا، نظير مايو جد اليوم في بعض الأفراد من خصوصية معرفة الحوادث بالنظر في عظام أكتاف الحيوانات. فهي من بقايا الوثنية.

4- المرشدون: يقومون بإرشاد العامة إلى وجوه عبادتها. وكل كبيرة أسرة يعتبر مرشدا لأسرته. وهذا في نفسه حسن، فقد قال (ص): «**فالرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم**».

ولعنايتهم بالسياسة عنايتهم بالدين كانت دار الإمارة حيث هيكل الاله العظيم «**جوبتير**». ومكانها بموضع القصبة اليوم. وهي بذلك الموضع من لدن الملوك النوميديين.

قال بارس: «**وهي معمورة بالذخائر. وقد وجدت قطع رخامية تشتمل على حصر تلك الذخائر، عثر عليها عندما أراد الأتراك بناء قشلتهم[1]. وقيمة هذه الذخائر مناسبة لما كانت عليه قرطة من الثروة والرفاهية**». ثم أخذ في تعدادها. ولكثرتها اكتفينا بالإشارة إليها محيلين محب الاطلاع على أشخاصها على كتاب قرطة (**CIRTA**)

وقد كان السكان في هذه الجمهورية على طبقتين: أهل الحقوق وغيرهم. الأولون هم من كانت لهم حقوق أصالة أو وراثة أو منحتهم بلديتهم ذلك تشريفا لهم أو تبناهم أهل الحقوق أصالة. والاخيرون هم الأجانب الذين استقروا بوجه نهائي بمدينة من المدن. وهناك طبقة لاحقوق لها أصلا وهم الأجانب الذين يحلون بالمدينة حلولا مؤقتا من تجار وطلبة علم وعابري سبيل.

وفي كل خمس سنوات يعاد تقييد أهل الحقوق وضبط أملاكهم وتجديد النظر في المغارم.

وكانت الطبقتان كلتاهم تتحملان الواجبات البلدية على السواء. وتختص الطبقة الأولى بأن عليها واجبات:

1– القيام بالبريد والطرق.

2– استخلاص الغرامات وأداؤها.

3– نفقات الوفود التي توجه إلى رومة.

---

[1] القشلة سكن الجنود. وليست عربية.

4- ترميم المعابد البلدية.

5- التبرع على المشاريع البلدية، مثل التمثيل. القائمون بهذه الواجبات متمتعون بالحقوق السياسية تماما. وينتخب منهم في كل عمارة عشرة. ثم يجتمع هؤلاء المنتخبون في مجلس أعلى يكون هو الممثل للأمة، فيتولى جميع شؤونها من تسمية وعزل. وأصحاب هذا المجلس أنفسهم على طبقات مرتبة حسبما يلي:

1- طبقة الديكريون. يختارهم الحكام (**الرجال الثلاثة**) من أماثل المنتخبين.

2- طبقة العظماء. وهم من كان عضوا بمجلس الشيوخ أو قائد جيش بلغ درجة تسمح له بالركوب.

3- لجنة الأعضاء الخمسة. وهم من كان له مرتبة أهل الطبقة الثانية غير انه لم يكن من العظماء السادة.

4- العرافون.

5- رجال الشرطة.

6- أمناء المال البلدي.

ويشترط فيمن يكون عضوا بهذا المجلس زيادة على كونه من أهل الحقوق:

1- أن يكون نظيف السيرة.

2- أن يكون ذا مال يختلف تقديره حسب القانون الأساسي.

3- أن يكون عمر(**30**) سنة ثم خفض إلى (**25**).

وظيفة الديكريون يمنحها صاحبها طول حياته مادام حائزا على شروطها. وعددهم غالبا مائة وقد يزيد أو ينقص. ومنهم قسم يحافظون على الأعمال الدينية وعددهم أربعة عشر.

ولكون هذه الطبقة أعلى طبقة بالمجلس لايصح شيء من أعماله الا بحضور عدد منهم. وأعمال هذا المجلس هي:

1- تسمية المتوظفين على اختلاف طبقاتهم بعد انتخاب الأمة.

2- منح لقب «**مولى**» (**السيد**) لمن كانت له أعمال جليلة اشتهر بها.

3- تهيئة أعضاء الوفود التي ترسل إلى رومة للإعراب عن جور بعض الولاة.

4- تعيين من يرأس جمعية الديانات الأجنبية.

5- تجهيز الجيوش عند الاقتضاء.

6- تعيين مقادير التبرعات الدينية.

7- تحديد مقادير الضرائب البلدية.

8- تنظيم الحالة المالية.

9- محاسبة من كلف بشأن عام من طرف المجلس.

10- تعيين لجنة تشغيل ببيان دخل المدينة وخرجها.

11- النظر في البناءات هدما وتعميرا.

12- الأمر بمطالبة من هو مدين للمدينة.

13- تعيين أيام المواسم.

14- الأمر بالألعاب العمومية مع تكليف من يتولى تنظيمها.

15- الحكم النهائي فيما يتعلق بتحرير الارقاء وأرش التعديات.

16- إمداد أهل الوظائف الخاصة بالنفوذ.

هذا نظام جمهورية المدن الخمس السياسي والديني، قال بارس (VARS) في كتاب قرطة: «**وقد كانت قرطة قرار نظام كاد يكون منفردا في إمبراطورية رومة**». وكانت علاقة هذه الجمهورية مع إمبراطورية رومة أشبه شيء بعلاقة الحامي مع المحتمي بأشراف معنى للحماية. بل عبر عنها بعضهم بمملكة. وكان مبعوثوا الإمبراطور للتجول في هذه الجمهورية واستطلاع أحوالها لايتخذون شعارا يميزهم. ولم يكن للإمبراطور يد في نظام هذه الجمهورية الداخلي مدة اتحادها.

ولحسن هذا النظام عاش السكان تحته عيشة راضية وترقى الوطن ترقيا عظيما وارتفع شأنه في الحضارة والعمران. وتقدمت به العلوم والفنون والآداب. ونحن نثبت أبياتا قالها صائغ بقرطة لتنقش على قبره وهي باللطينية، وهاك تعريبها من غير تصرف:

«أنا المستحيل علي الكلام الآن أقص عليك حياتي في هذه الأبيات:

تمتعت طويلا بالضوء النير وكنت «برسليوس» الصائغ بقرطة

صفاء طويتي يضرب به المثل وكنت دائما صادق القول

كان ما عندي للجميع ومن ذا الذي لم أشفق عليه

دائم الابتسام تمليت دواما مع أحبائي في حياة مترفة

وبعد وفاة العفيفة الصاحبة «فليريه» لم أجد مثلها
واحتفلت – بكل احترام- مائة مرة بعيد ازديادي
ولكن أتى اليوم الأخير الذي فيه تغادر الروح الجثمان البالي
وهذه الكتابة التي انت قارئها قد هيأتها اثناء حياتي لماتي
التي أتاحها لي الحظ. وطالما رافقني ولم يهملني
فأقف أثري واتل سبيلي على ما كانت عليه ثم ائتني فها ان ذا منتظرك هنا».

بلغ الناس في هذه الجمهورية مبلغا عظيما من البذخ والرفاهية حتى حدثت قرى صغرى وطلبت نوعا من الاستقلال. فأعانها على ذلك قياصرة رومة تفريقا للكلمة وحبا في النفوذ والاستبداد بالحكم وكان رجال الوظائف بعكس العامة ذهبت ثروتهم بسبب ماكان يثقل كاهلهم من النفقات البلدية.

فوجد قياصرة رومة في بذخ العامة وفقر الموظفين للتدخل في أشقاء هذه الجمهورية. فصاروا يفرقون كلمتها بتلبية طلبات القرى الطامحة إلى الاستقلال. ويضعفون نفوذ مجلس الأمة بتعيين الموظفين القيصريين مكان من عجز من أهل الوظائف البلدية عن القيام بمأموريته لفقره حتى اضمحل المجلس ووزعت أعماله على نواب القياصرة وعمالهم.

وكان انحلال الاتحاد بين المدن في القرن الثالث. فان ميلوم كانت تنازع قرطة في سيادتها وتجاريها في عظمتها حتى استقلت عنها وضمت إليها روسقاد وشولو. وآخر من تولى رئاسة هذه المدن الثلاث رجل

يدعى كمودس (**COMMODUS**) أصله من ميلة وكان أحد الرجال الثلاثة بقرطة أيام اتحاد المدن.

فلما استقلت ميلة عن قرطة وجمعت إليها تينك المدينتين تولى هذا الرجل رئاسة المدن الثلاث بميلة.

بعد انحلال ذلك الاتحاد وتداخل اليد القيصرية ساءت الأحوال ونقص العمران وارتفع الأمن. وما أصدق قوله تعالى : «**إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. وكذلك يفعلون**» وبقيت قرطة لحصانتها محافظة على عظمتها حتى أن الوندال لم يقووا على فتحها.

وكان بها كنيسة عظيمة للمسيحيين تخرج منها قسوس كثيرون منهم دنتوس الذي أحدث في المسيحية مذهبا نسب اليه وضاد به الكنيسة الكاثوليكية وفاز عليها في جميع التراب الجزائري.

بقي لقرطة اسمها واستقلالها حتى ذهب الاثنان على يد قسطنطين سنة **312**.

الحياة الرومانية بالجزائر:

كان بالوطن الجزائري على عهد رومة طائفة من الرومان الا أنها قليلة، ويوجد به عدد من الأجانب غير الرومان الا أنه قليل جدا.

قال بيروني: يوجد بافريقية في سنة (**200**) نحو **200** أو **250** ألف روماني. وفي سنة (**400**) تقريبا بلغ عدد الرومان نحو مليونين أو مليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين. وهذا أكثر إحصائية للرومان بافريقية. وإحصاء بيروني هذا يريد به رومان طرابلس وتونس والجزائر ومراكش. ومعلوم ان الاستعمار الروماني كان بطرابلس وتونس أوسع دائرة وأثبت قدما. وكلما تقدم إلى الغرب ضاق نطاقه وقل تأثيره. وإذا نقول ان حظ الجزائر من ذلك الإحصاء قليل، وهو بعمالة قسنطينة أكثر منه بعمالتي الجزائر ووهران.

قرطة كان بها عدد من الايطاليان من عهد مصيبسا. ولما استولى ستيوس عليها وما يتبعها من الشمال النوميدي ترك بتلك النواحي جنودا بعضها من ايطاليا وبعضها من اسبانيا. وقد علمت ان يوليوس قيصر اشترط عليه أن يفتح أبواب مملكته في وجه الرومان ومن كان معه في حروب افريقية. ولما اعتلى عرش رومة اكتافيوس الملقب أغسطس وجه جاليات من الرومان إلى موريطانيا: بعضها إلى قرطنه (**تنس**) وبعضها إلى رسقونيا (**مطيفو**) وبعضها إلى روصازو (**أزفون**) وبعضها إلى صلداي (**بجاية**) وإلى أجلجي (**جيجل**)

وإلى زكبار (**مليانة**) وإلى تبوسكتو (**تكلات**). ثم أرسل إلى هذه المدن عساكر أكثرهم ايطاليون.

وعلى عهد قلوديوس (**41-54**) ووسبسيان (**69-79**) أو نربا (**96-98**) تكونت جاليات أخر من قدماء الجند في «**أبدوم نفوم**» (**المدينة الحديثة وهي وادي الدفلى**) وفي مدوروس وفي سيطيفس.

وقد كان أكثر الرومان بالجزائر من أبناء قدماء الجند.

علمت سابقا أن الحياة الرومانية بايطاليا كانت في غاية البساطة والسذاجة: شظف في العيش وتقشف في الملبس وكد في العمل. وقد نقلنا لك ـ الفصل الخامس ـ كلمة كاطون منهم فيمن يوجد بتركته انه ربح أكثر مما ورث. وفيها ترى شدة عنايتهم بالثروة وعجز وطنهم عن الوفاء برغبتهم، حتى صار يرى هذا الرجل ان سعة الثروة المكتسبة ليس لها طريق يفضي إليها البشر بفكره وإنما ذلك الهام من الالهة خارج عن متناول العقول البشرية.

أن أمة هذه حالها لجدير بها أن تترامى على الأوطان الخصبة بكل ضراوة، وخليق بها أن تجد في تلك الأوطان ليل نهار لتثأر من الثروة التي عزت عليها في وطنها.

لذلك لما حل الرومان بالجزائر استولوا على كثير من الأراضي وقاموا بخدمتها أحسن قيام فمنحتهم أحسن النتائج، فراشوا بعد الفقر وبذخوا بعد الشظف وأصبحت الحياة غير الحياة.

بنوا المنازل الشاهقة ووسعوا نطاق المدن التي حلوا بها. فكانت قرطة تشتمل على مدينتين: داخلية يحيط بها سور، وخارجية وهي أوسع نطاقا. ومساحتها تمتد غربا إلى جنان الزيتون ومقبرة الإسلام، وجنوبا

غربيا إلى قشلة باردوا، وشمالا إلى ضفة وادي الرمل الشمالية. قال بارس: **«وذكر أبطات قديس ميلة: انه كان ملاصقا لقرطة حارة عظيمة تدعى «موغاي». والظاهر انه المعروف اليوم بسيدي المبروك، وتمتد هذه الحارة إلى ناحية المنصورة»**، إلى أن قال: **«وبضواحيها نزلات متقطعة. وقد عثر على آثار بعضها بناحية الحامة»**.

وقد مر أن ميلة والسكيكدة والقل وجميلة كانت قرى صغيرة، ثم أصبحت مدنا عظيمة. ومن القرى التي عظمت على عهد الرومان وصارت مدنا: باغاية، مسكولة (**خنشلة**) لمبس، تمغادي، فتيرانروم (**ديانة قدماء الجند**) لمصبة (**بالشمال الغربي من أوراس**) جميلي، باديي (**بادس**).

والمدن التي كانت بالخط الصحراوي إنما رفع عمرانها الجند، لان الجندي الروماني إذا لم تشغله الحرب فهو عامل نشيط.

والغرض من تأسيس المدن قرب مراكز الجنود المرابطة على الحدود المحافظة على تلك المراكز وتأمينها من روعات الهجمات الصحراوية.

والمدن الرومانية تنقسم خمسة أقسام:

1- المدن البحرية وهي تجارية.

2- المدن العسكرية يسكنها الجنود، ولها أزقة واسعة.

3- المدن الفلاحية، أكثر من يسكنها البربر العملة في أراضي السادة الرومانيين.

4- عواصم أولية وثانوية، سكنها كبار الولاة، وبناؤها أفخم وخيراتها أكثر وعمرانها أوسع.

5- مدن النزهة، وهي لاصطياف الأسر العظيمة. ومن هذه المدن جميلة. قال بيروني: كانت المدن الرومانية على غاية من الرقي في الحياة والعمران. تيمغادي كان بها من السكان **(35)** ألف: وأكثر المدن يبلغ عدد سكانه نحو عشرة آلاف، أو خمسة أو ستة إلى ثلاثين ألفا. كل ذلك على سبيل التخمين. ولكل مدينة هيكلها الوثني أو كنيستها المسيحية. ولها أسواق وحمامات. ومنها ما فيها المراسح للتمثيل والملاعب لمصارعة الحيوانات الضارية.



مسرح تيمغاد

والبريد سائر بين المدن. ومواقع المدن يراعي فيها وجود الماء ومناعة المكان.

المباني الرومانية ممتازة بالعظمة غير أنها خالية من الدقة وجمال الفن. وفي كل مدينة ساحة عمومية للاجتماع تدعى «**الفوروم**».

وكان من عادة الرومان إذا أرادوا تعمير مكان خطوا به خطين أحدهما من الشرق إلى الغرب والآخر من الشمال إلى الجنوب، ثم يجعلون شكلا مربعا حول نقطة التقاء الخطين، ويتخذون ذلك المربع ساحة للقرية (**فوروم**). ويحيطون هذه الساحة بدكاكين وأقواس جميلة. والساحة هي المحل الذي تقام فيه الحفلات وتجري به الانتخابات وتقرأ به على الأمة القرارات.

ومن محال الاجتماع عندهم الحمامات. ولهم عناية بها. قال بارس: «**وكان بقرطة قرب دار الإمارة التي هي المعبد العظيم حمامات عظمى. عرف آثارها سائح انكليزي ووصفها وذلك سنة 1742 وماء الحمامات معدني**».

ومن المباني التي يعتنون بشأنها المراسح والملاعب والهياكل الدينية. قال بارس: «**وكل طريق توصل إلى كنيسة محفوفة بالتماثيل يمينا وشمالا، علاوة على ما في الكنيسة**». وقد عبث الدهر بتلك المباني الرومانية على عظمتها. فلم يبق منها غير خرابات أكثرها مستور بطبقات التراب. قال غروت: «**ولم يزل الباحثون يستكشفون مدنا تدهش أهل القرن العشرين**».

الحياة البربرية تحت السلطة الرومانية:

مر بك في الباب الخامس ماينير أمامك الحياة البربرية قبل الاحتلال الروماني ويكفي للعلم بسعادة البربر اذ ذاك أن تعلم أنهم مستقلون، ورومة تخطب ود ملوكهم وأمرائهم.

أما بعد الاحتلال الروماني فان الحياة البربرية تختلف درجة سعادتها ودركة شفاوتها على نسبة النفوذ الإمبراطوري: فالجهات التي يضعف فيها ذلك النفوذ أو ينعدم تكون سعيدة، والجهات التي يتمكن منها تكون حياة البربر بها حياة العبيد.

قال بيروني: «**إن الإدارة الرومانية لم تكن متحدة في جميع المستعمرات ولا في أقسام افريقية نفسها، وذلك لاختلاف أنظار القياصرة في التشريع وفيما يناسب نفوذهم على الطائفة التي تحت حكمهم**».

انتزع الرومان البربر جل أراضيهم وأثقلوا كاهلهم بالضرائب وأدخلوهم في الجندية و لم يحفلوا بحقوقهم الطبيعية.

1- أما الأراضي البربرية فغنها في الأصل إما مملوكة لملوك البربر وأما مملوكة للشعب. فلما جاء الرومان أخذوا كل ما كان مملوكا للملوك والأمراء. فاختصت الحكومة ببعضه، ووزعت بعضه على الرومان الأصليين، ومنحت بعضه قدماء الجند. وما كان مملوكا للشعب بقي لأربابه مع ضرب الخراج عليهم.

ومن ثار عليهم منهم انتزعت أملاكه وتصرفت فيها الدولة بوجه من الوجوه السابقة. وبطول المدة استولى الماليون من الرومان على أراضي البربر. ومن الرومان من كانوا يكترون من البربر إلى آجال، ولهم ان يجددوا عند انتهائها، وبفضل العدل الروماني كان المكتري الروماني اسعد من المالك البربري. قال بيروني: «**والمالك الأهلي إنما هو عامل مجبور على العمل طبعا لا قانونا. وحالة العملة سيئة جدا لا تنصفهم الحكومة في شيء**».

ولكل أرض عدد من العملة يبتاعون معها. والرومان يعتبرون سادة لهم. وبطول الأمد أطلق عليهم لقب «**مماليك**».

وقال غروت: «**إن الرومان ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين تحت قوانين ثقيلة**».

2- وأما الضرائب فإنها من أهم مقاصد الاستعمار الروماني، وهي ـ وإن كانت مختلفة المقادير ـ متحدة في كونها فادحة. وتنقسم أربعة أقسام:

1- **الأداء الشخصي:** وهو واجب على الرجل والمرأة. ومقداره مختلف.

2- **الأداء على العقار:** وهو أما عين أو حبوب. وفي الغالب يكون العشر من حاصل الفلاحة. حتى ان الجابين يسمون العشارين.

3- **الأداء على التجارة الخارجية:** وهو واجب على السلع المنقولة من عمالة إلى أخرى.

4- **سخرة إدارية:** منها تموين الجند وإسكانهم. وقد تكون منها كسوة بعض رجال الشرطة.

وكانت الدولة الرومانية لاتتولى استخلاص الضرائب، وإنما تسندها إلى أعيان يتولونها، هؤلاء المستخلصون كانوا يسمون «**العشارين**» تتفق معهم الدولة على مقدار يؤدونه لها من مالهم، ويجبون من الأهالي ما يشاؤون. ولهم جنود يستعينون بها على قبض الضرائب حتى أنهم في خروجهم للاستخلاص أشبه شيء بالخارج للغزو.

ولقد كان ضرر العشارين بثروة الشعب فادحا حدا جدا وأشر أبطال الضرر الخراجي الإمبراطور غلاريوس. فإنه زاد في الضرائب على الأهالي. قال مرسيي: «**فصار يقيد اسماءهم ذكرانهم وأناثهم وصغارهم وكبارهم، ويضبط أموالهم. واتخذ لذلك الجواسيس حتى صارت المرأة تسعى بزوجها والولد يسعى بوالده. فتغيرت لذلك قلوب البربر عليه. ولم يبق له صديق غير الجنود لكونهم معفيين من الضرائب**».

3- وأما التجنيد فقد كانت رومة تجند من البربر وتنقلهم خارج وطنهم: تنقل فرسان نوميديا إلى أوروبا الشمالية (**المجر، جرمانيا، بلجيكا**)، وتنقل المشاة إلى ضفاف النيل. ترسل جنود البربر إلى الخارج وتأتي إلى الوطن البربري بجنود أجنبية. ومنذ أواخر القرن الثاني استغنت

بجنود البربر المقيمين في افريقية عن الجلب من الخارج. وعندما تدعو الضرورة إلى الاستزاد في الجيش تطلب الحكومة من رؤساء البطون البربرية مددا نظير ما يعرف اليوم «**بالقوم**».

4- وأما الحقوق فقد كان الرومان ـ سواء القادمون من ايطاليا أو من مستعمرات أخرى ـ لهم التفوق المطلق على جميع السكان، والبربر عندهم متساوون في فرض طاعة رومة عليهم واعتبارهم ـ كوطنهم ـ أداة لسعادتهم: يستغلون أرضهم الخصبة وأبدانهم القوية. فكل ما كان للرومان من خدمة الأراضي للفلاحة وضخامة البناء للفخفخة والترهة فهو على حساب الجهود البربرية.

وكانت حالة البربر على عهد الجمهورية أتعس منها على عهد الإمبراطورية. ذلك بان الجمهورية كانت في آخر دورها، فالولاة إنما كانوا يعملون لأنفسهم لاللدولة، فتضاعفت جورهم وكثر تعديهم.

وفي عهد الإمبراطور طرياناس (**98-117**) كان الولاة بافريقية يبيعون الحق بالاثمان وفشا فيهم الجور، ذلك بان هذا الإمبراطور كان مشتغلا بحروب بعيدة عن افريقية. ضج الأهالي من سوء سيرة الولاة ورفعوا عقيرتهم بالشكوى إلى رومة. وكان بها علماء أهل انصاف فأيدوهم وحكموا بأحقية مطالبهم. ولكن الحكومة لم تقض بغير عزل والي افريقية مريوس برسكوس.

وفي سنة (**193**) تولى سبتموس سويرس إمبراطورية رومة. وهو بربري أصله من طرابلس. فاعتنى بافريقية كثيرا وترك بها آثارا لم تزل إلى

اليوم. وكانت حاشيته وحرسه أكثرهم إفريقيون وبالغ في الإحسان إلى أبناء جنسه حتى أنهم ربما تحدثوا بلغتهم في مجلسه الإمبراطوري. قال مرسيي:

«وترقى الإفريقيون على عهده وظهرت مواهبهم المدهشة بروءة في الجندية والمحاماة. ولم يهمل البربر هذا الإحسان بل اعترفوا به، وأحبوا الإمبراطور حبا جما بحيث لم تقع ثورة أيامه. ولما مات اتخذوه الها».

وبعد سويرس جاء إبنه قراقلا وسار وقابله البربر بالمعروف وبقي اسمه منقوشا على الأحجار.

قال مرسيي: **«وفي سنة (216) أصدر قانونا بحرية البربر ومنحهم كل الحقوق التي للرومان. فصارت افريقية ذات طبقتين فقط: الأحرار والعبيد. ولكن هذا القانون لم ينفذ. فلم يستفد منه البربر بل أضر بهم واستفادت منه الدولة الرومانية. بهذا القانون التحق البربر بالرومان في الواجبات الدولية من خراج وتجنيد، وبقوا كذي قبل في الحقوق السياسية»**. وهكذا القانون العادل إذا لم يجد ولاة عادلين ينفذونه انقلب أداة شر على الشعب. فعلى الأمة التي ساقها القدر إلى أن تكون تحت رحمة أمة أخرى ـ إذا رأت منها قوانين غير ملائمة لحياتها واستصدرت قوانين عادلة ـ ان تستصدر ولاة عادلين، ولا تكتفي بمراقبة الأحكام عن مراقبة الحكام.

وإذا كان لبعض الأباطرة إحسان إلى البربر فان أكثرهم أساءوا إليهم. ولم يكن لإساءتهم من مصدر سوى التخلق بالجور أو وحب الانتقام من قوم نصروا مترشحا إلى الإمبراطورية رجاء عدله، فتغلب عليه منافسه.

وإذا أجملنا لك في هذا الفصل سيآت الرومان أباطرتهم وولاتهم وملاكهم فان البربر يفصلون لك ذلك بما تقرأه عن ثوراتهم وما كانوا يقتحمونه لها من خسارة الأنفس والأموال.

الثورات بالوطن البربري:

إن التاريخ الجزائري على عهد الرومان مملوء ثورات وحروبا، وذلك لعدم ملائمة العنصرين: الحاكم والمحكوم بعضهما لبعض في العوائد والأخلاق، مع ما للعنصر الحاكم من التفوق والاستبداد على ابن البلاد رضع الحرية من إسلاف أمجاد.

لقد كان للأمن وجود في العصر الروماني غير أن عمره قصير، ولم يستمر سنين طوالا إلا في شمال نوميديا بفضل نظامها الخاص على الاتحاد القرطي.

ومنذ انحل هذا الاتحاد صار الوطن الجزائري متشابها في قلة الأمن وكثرة الفتن. ويمكننا ان نقسم الفتن بهذا الوطن إلى ثلاثة أقسام: قسم كان بيد ولاة رومانيين تطلعا إلى الإمبراطورية أو تحزبا لبعض الأباطرة على بعض، وقسم كان على أيدي الغائرين من البربر الذين لم تنلهم عاهة

الاحتلال سواء خارج الحدود أو داخلها، وقسم كان على أيدي البربر الذين لم يرتضوا الحكم الروماني تطلعا للاستقلال أو تطلبا للعدل.

1- أما القسم الأول فمنه ثورة قلديوس مصير. كان واليا على افريقية وثار على نيرون،ن وقطع على رومة حبوب افريقية، وبعد وفاة الإمبراطور نيرون (**68**) خلفه غلبا فبادر بقتل هذا الوالي واستعان عليه بوالي موريطانيا ألبنوس. وبعد تسعة أشهر من إمبراطوريته قتل فخلفه أتون فكانت مدته نحو ثلاثة أشهر ثم تولى الإمبراطورية ويتليوس، فثار عليه ألبنوس المتقدم وجمع جنوده وقصد بها الأندلس، ولكنه قتل وخضعت جنوده للإمبراطور ويتليوس.

ومنه ثورة كابليان والي موريطانيا. وذلك أنه في سنة (**235**) قتل مكسمينس الإمبراطور الكسندر سويرس وانتصب مكانه فلم يرتضى ذلك رومان قرطاجنة وأعلنوا بإمبراطورية واليهم غرديانوس وانضمت إليهم الفرقة الثالثة. فسار والي موريطانيا ضد غرديانوس لفائدة مكسمينس، وهجم على نوميديا بعساكر كثيرة ومنظمة غاية النظام، ودخل قرطاجنة فنهبها وعاث في افريقية فسادا.

ومنه ثورة سبيانوس والي افريقية. وذلك أنه بعد قتل مكسمينس سنة (**238**) نصب مجلس الشيوخ مكانه غرديانوس الثالث حفيد الأول. فثار عليه هذا الوالي سنة (**240**) ولقب نفسه إمبراطورا. فكان والي موريطانيا من حزب غرديانوس. فتحارب هاذان الواليان وأمد غرديانوس

تابعه. فانتصر والي موريطانيا وبلغ ان حاصر قرطاجنة، ولم تسلم منه إلا بتسليم سبيانوس إليه.

وقد قاست رومة أهوالا شديدة من جراء التنافس على العرش الإمبراطوري وقضت قرنا في الفوضى (**192–270**). والجزائر مرتبطة بها فكان لها نصيبها من تلك الأهوال والحروب في عصر الفوضى وغيره.

2– وأما القسم الثاني فمنه غارة برابرة المغرب على عهد أنطونان (**138–161**). هجم هؤلاء المغاربة على المستعمرات الرومانية وعاثوا فيها فسادا. فأهم ذلك الرومان وضعفوا عن مقاومة الغائرين حتى قدم الإمبراطور انطونان نفسه إلى افريقية وتولى رآسة الجيش. وبذلك تمكنوا من رد هذه الغارة الكبرى.

ومنه غارتهم على عهد كمودس (**178–192**) إذ تجدد سنة (**188**) وعجز رومان افريقية عن رد تيارهم فاستغاثوا برومة. وكان هذا الإمبراطور من عشاق الملاهي. فطلب من الشيوخ أن يمدوه بالمال ليذهب هو نفسه إلى افريقية. فلما أمدوه استعان به على ملاهيه، وأرسل إلى افريقية عوضه ضباطا. وفي سنة (**190**) انتهت هذه الغارة.

ولولا تحصين الحدود بإنشاء المدن ومرابطة الجنود لم تسترح رومة ولا يوم واحد من غارة الغربيين والصحراويين. على ان الصحراويين (**الجيتوليين**) كانت رومة ـ علاوة على تحصين حدودها منهم ـ تستميلهم بأساليب سياسة. وقد تستعين بهم لذلك في بعض المهام.

وكانت تحيط المدن بأسوار امتناعا من أهل موريطانيا الغربية، وتتخذ الحصون بالأكمات.

3- وأما القسم الثالث فمنه ثورة لسيوس كيبتوس، وهو رجل بربري تسمى باسم روماني. وتقلب في الجيش الروماني. حتى منحه الإمبراطور طريانس الرئاسة على جند. ثم ولاه على يهود فلسطين. فخدم رومة خدمات جليلة. ثم عاد إلى افريقية فثار بها. واهتمت رومة لثورته لما تعلمه من مقدرته الحربية. ولكن دارت عليه الدائرة فقبض وقتل. وبقيت الثورة من بعده ملتهبة نارها. و لم تستطع رومة إخمادها الا بعد عناء كثير.

ومنه ثورة سكان جبال أوراس والجبال التي بين قرطة وسطيف، وجبل جرجرة. وكانت هذه الثورة في عصر الفوضى سنة **(265)** وامتدت في كامل الوطن الجزائري. هجم هؤلاء الثائرون على المستعمرين الرومان خصوصا بجهات ميلة. واهلكوا الحرث والنسل. و لم يتمكن الرومان من إيقافهم عند حد لكثرة الهرج برومة، اذ كانت الجنود تبيع منصب الإمبراطورية لمن أغلى لها في المرتبات وقضى لها ما تبتغي من شهوات.

ومنه ثورة أرديون في سنة **(270)** سمي بروبس واليا عاما لجنود افريقية فنزل قرطاجنة. وفي تلك الأثناء أثار أرديون النوميديين ونوجه بهم إلى البروقنصلية قاصدا قرطاجنة. فقابله بروبس وتبارزا. فقتل ذلك الوالي أرديون وحفر له قبرا كبيرا عرضه مائتا قدم تفخيما له. قال مرسيي: «**والظاهر أن هذه المبارزة كانت بنواحي شق بنارية**». وانهزمت جموع

أرديون. ولكن الثورة لم تمت بموته. وحقد البربر على بروبس حتى أنه لما ارتقى إمبراطورا (276-282) وكان له أضداد كان البربر عليه مع الأضداد.

وقد اشتدت ثورة القبائل الخمس سنة (288) على عهد الإمبراطور ديوقلطيانس فجعلت رومة جائزة لاورليوس على حربهم. فتمكن من إخضاعهم ولكن خضوع هؤلاء القبائل لم يكن نهائيا. وبعد أمد قصير أعادوا الثورة وهجموا على نوميديا وانتشرت ثورتهم في الجهات الشرقية. وكان ديوقلطيانس قد قسم مملكة رومة على ولاة، منهم مكسميانس وجعله على إيطاليا وإفريقيا. فلما اشتدت الثورة وتفاقم هولها قدم هذا الوالي بنفسه إلى إفريقية ليتولى إدارة الحرب. أرجع هذه الوالي القبائل الخمس إلى مقرها بجبال جرجرة، ثم تتبعهم في رؤوس تلك الجبال ونالوا منه أشد النكال. وأخيرا انتصر عليهم ونقل بعضهم خارج وطنهم، وذلك عام (297). وقبل هذا الحين لم يكن الرومان مستولين على وطن القبائل. ولما استولوا عليه جعلوا عاصمته بيدة (**جمعة صهريج**).

وبعد استيلاء الرومان على وطن القبائل لم ينقطع منه رجال الاستقلال مثل فرموس وجلدون. وسترى في فصل آخر ما لهذين الزعيمين وغيرهما من عظيم الأعمال في سبيل الاستقلال.

العمران الروماني بالجزائر:

علمت من الفصل الثاني عشر أن الحياة الرومانية بالوطن الجزائري كانت راقية. وذلك يرجع إلى عناية الرومان بالثروة ومظاهر العظمة. وقد حلوا أرضا خصبة وحكموا أمة عاملة حاذقة نشيطة. فلا جرم كانت آثارهم في العمران عظيمة.

وأهم موارد الثورة بالوطن البربري الفلاحة ثم التجارة. أما الصنائع فلم تكن من موارد الثورة، وإن كان الوطن لا يخلو منها.

وكانت مراس معتمدة للتجارة، منها اجلجلي، صلداي، قيصرية صيغة. وصنعت الطرق داخل الوطن، وأجادوا في إتقانها وتوسيعها، إلا فيما بين القرى. فقد كان بها شيء من الضيق. كانت الطرق تخترق الوطن البربري، والقوافل تقطعها للتجارة. واكبر طريق هي التي تصل بين برقة والمحيط الأطلانطيقي. وقد كان لبعض الأباطرة يد في جعل الطرق والقناطر، منهم أدريانس والكسندر سويرس.

والوطن البربري لم يكن في العصر الروماني أخصب منه اليوم وأكثر ماء. قال غسال: «**بل الظاهر أن الحالة من حيث المطر مماثلة لما هي عليه اليوم، فلم تكن البحيرات التي بوسط عمالة قسنطينة أوسع منها اليوم. يدل لذلك وجود الآثار البرية بشواطئ هذه البحيرات. ولم تكن الأودية أكثر ماء منها اليوم. وفي الكتب الإغريقية روايات عن تكرر اليبس بالجزائر حتى وقعت مجاعات**». وذهب بعضهم خلاف هذا ورأى

أن هذا الوطن كان على عهد الرومان أخصب تربة وأغزر ماء. ونحن نرى أن دعوى المماثلة غير صحيحة، وإن الفرق لم يكن بعيدا جدا أما من حيث الري فمن المحقق أن غابات الوطن كانت إذ ذاك أكثر من اليوم. وهي من أسباب الري لأنها تمسك الماء عن الجريان فتروي الأرض وتؤثر في الهواء برودة ما. وأما من حيث طبيعة الأرض فإن كثرة استغلالها تضعف من قوة ترابها. وقد ذكر غسال نفسه: «**إن شمال نوميديا كان من أخصب الأراضي لكثرة حجر الجير به**». قال: «**وقد نقص الحجر منه تدريجيا ونقص معه حجم الحبوب**».

ومما يوضح لك تقارب حالة الأرض في ذلك العهد وفي هذا العصر شدة العناية بجلب الماء حسبما دلت عليه آثار بأماكن متعددة. قال غسال: «**وكثير من تلك الآثار وقع قبل الرومان. وإنما هم حافظوا عليها وأنشأوا غيرها**».

وهذه الآثار منها تفجير العيون، ومنها حفر الآبار، ومنها اتخاذ المآجل، ومنها بناء السواقي ذات الحنايا، ومنها سد الأودية. قال بيروني: «**ومنها بالحضنة ثلاثة سدود بواد واحد. الكبير منها يحمل نحو (1200000) لترا**». قال غسال: «**ولم يزل إلى اليوم مئات من الآبار بجنوب سطيف وشمال أوراس**».

ولهم قوانين دقيقة لتوزيع المياه على السكان. عثر على قانون لتوزيع المياه على سكان لمصبه (**مروانة**) ينص على عدد أشجار كل فلاح من زيتون وغيره، وعلى عدد ساعات السقي.

ونفقة تلك الخدمات المائية أما على البلديات أو شركات أو أفراد.

قال غسال: «**والغرض من جلب المياه أما الشرب أو سقي أشجار الزيتون والبساتين. ولم يعتنوا بجلب المياه إلى الأراضي الزراعية على احتياجها إلى ذلك**».

وكانت آلة الفلاحة بسيطة. وهي مثل ما للجزائريين اليوم. وللفلاحين معرفة بتوزيع الحبوب على الأرض حسب الصلاحية.

وكان شجر الزيتون وغيره من ذوات الأثمار والفواكه كثيرا يظنه الرائي غابات. وتوجد آثار معاصر الزيت بجهات كثيرة.

ولقد تشارك الأغنياء والأباطرة في تنشيط الفلاحة. فكان المشتغلون بغراسة الزيتون والكروم يعفون من الضرائب سنين. ومن الأباطرة الذين اعتنوا بتنشيط الفلاحة قسطنطين. فقد أعفى آلات الفلاحة من الأداء على التجارة الخارجية، وأعفى العملة بأرض الفلاحين من الخدمات التي كانت تلزمهم بها الدولة عند العجز عن أداء الخراج، واشتد على الأغنياء الذين يريدون أن يبتلعوا بقروضهم صغار الفلاحين حتى صار يحكم بالقتل على كل مالي يريد أن يفتك من الفلاح الصغير عند العجز عن أداء الدين أرضه أو عبيده أو حيوانات أو آلاته. وقبله كان الإمبراطور ادريانس

(117–138) اعتنى بافريقية وقدم إليها بنفسه سنة (122) فنشط الاستعمار. وادخل على الوطن البربري إصلاحات جمة. واقتدى به بعض البلديات في ذلك. فأنفقت قرطة من ماليتها على جعل طريق منها إلى رسقاد. وأحبته العامة. ولكثرة حسناته على افريقية دعي «**مصلح افريقية**» **RESTAURATEUR DE l'AFRIQUE**، وطبع هذا اللقب على صفحات النقود.

وعلى نتائج الوطن البربري كانت رومة تعتمد في حياتها، حتى أن الوالي الذي يثور بهذا الوطن على رومة يسرع قبل كل شيء إلى قطع إصدار الحبوب إلى رومة.

كانت رومة تجلب من إفريقية الشمالية الحبوب والزيتون والعنب والتمر والفواكه والتوابل. وتجلب أيضا الرخام والأخشاب والخيل والغزال وبعض الحيوانات المفترسة لترويضها في الملاعب والنحاس والرصاص والحديد وسبائك الفضة والتبر والعبيد السود والصوف والجلود والبقر والغنم وشمع النحل وكل مواد الحياة والرفاهية.

مواد حياة رومة كانت تأتيها من افريقية الشمالية لمدة ثمانية أشهر (**شتنبر ـــ ابريل**)، ومن مصر لمدة أربعة أشهر. ولما اتخذ قسطنطين بيزنطة عاصمة لمملكته اختصت افريقية بتموين رومة، ومصر بتموين بيزنطة.

ويبلغ في بعض السنين ما تأخذه رومة من شمال افريقية (**348000**)**طن**.

واتخذت رومة سفنا خاصة لنقل حبوب افريقية، ومراكز لجمعها ووكلاء للقيام على إصدارها، وأعفتها من أداء التجارة الخارجية.

ومن المراكز التي كانت تجمع بها الحبوب لتصدر إلى رومة: وادي مجردة، تغاست، مدوروس، تفيست، لمبس، ناحية سيطيفس. قال بيروني: «**يحمل من هذه المراكز كل عام ما يقرب من مليوني قنطار قمحا**».

وما تأخذه رومة من افريقية بصفة خراج تبيعه هنالك لأبنائها ثم صارت تقسمه مجانا على أهل الحضارة والبادية. وكان عدد الذين تمونهم الجمهورية برومة (**320000**). ولما جاء يوليوس قيصر نقص من هذا العدد نصفه. وبعده جاء أغسطس فبلغ عددهم (**200000**) وفي سنة **64**م احترقت رومة فكان نيرون الإمبراطور محتاجا إلى تعزيز مالية الدولة فقطع هذا المعاش عن أهله. وبعد وفاته أعاده خلفه.

وكان لتوزيع القمح قوانين خاصة مشتقة من اسمه

(**FRUMENTAIRE**) والإيطاليون اذ ذاك يستعملون القمح في معاشهم أكثر مما يستعمل اليوم. ولشدة ارتباط حياتهم بافريقية كان عظماء رومة إذا اجتمعوا في ساحة المدينة (**الفوروم**) يقرن أحدهم سلامة على صاحبه بقوله: «**ما حدث بإفريقية؟**» **QUID NORD AFRICA**

وإذا كنى الرومان عن رجل بسعة ماله قال: في مخازنه قمح افريقية. وكانوا يقولون: افريقية مخزن رومة **GRENIER DE ROME**.

قد يتعجب المرء من كثرة هذه النتائج على قلة أيام السلم. وقد يعجب أيضا بفضل الرومان في العمران. ونحن لا نقف إزاء هاتين النقطتين موقف الدهش بل نعطي رأينا فيهما وللقارئ حق التعقيب:

1- أما النقطة الأولى فنقول بإزائها: حقيقة أن الاضطراب لم ينقطع مدة العصر الروماني، خصوصا بعد ظهور الديانة المسيحية، ذلك أن الفتن كانت سياسة ثم تولدت مع هذا الدين فتن دينية. غير أن الاضطراب لم يكن مستمرا بصفة تمنع أيدي العاملين في التعمير. فما وقعت فتنة شغلت رجال العمران إلا أعقبها سلم يمكنهم من مباشرة أعمالهم. على أن أكثر الفتن إنما كانت بموريطانيا حيث تضيق المملكة الرومانية وتنحصر على البحر. ونتائج الأرض بهذا القسم كانت قليلة. وتلك النتائج المدهشة من زروع وأشجار إنما كانت بالجهات التي تمكن منها الحكم الروماني فقلت ثوراتها. والخلاصة أنه لا منافاة بين وجود الثورات وكثرة الثمرات.

2- وأما النقطة الثانية فنقول عنها ان ذلك العمران لا يزيد في فضل الرومان بل هو عندي بعكس ذلك: يدل على جور الرومان وضعف إنسانيتهم. وذلك أن تلك النتائج أن لم تكن كلها من أراض مملوكة للرومان فجلها لهم من غير شك. والأراضي الرومانية إنما كان العامل فيها يد البربر أما بصفة عملة مملوكين وأما بصفة فلاحين مكترين وكلاهما تحت الضغط الشديد. فأي فضل للرومان في هذا العمران؟ الأرض المنتجة بربرية الأصل واليد المستنتجة بربرية والرومان إنما يأكلون

ويتمتعون ويمونون أهل وطنهم. وإذن ففضل الرومان إنما هو في جورهم بسلبهم أراضي البربر وضعف إنسانيتهم بجبر صاحب الأرض على العمل بها لفائدتهم.

اللغة والآداب الرومانية بالجزائر:

الرومان إخوان اليونان في النسب، وتلاميذهم في العلم. فلغتهم أخت اليونانية، وأدبهم وليد الأدب الإغريقي. فكان للرومان أدبهم اللطيني، وهو لا يقصر في روعته عن آداب الأمم الراقية لذلك الحين. وإذا نظرت إلى سعة السلطان الروماني وتحكك أبناء رومة بالأمم الشرقية الراقية وتواردهم على منهل أثينا تصورت إجماليا رقي الأدب اللطيني.

ولما حل الرومان بالجزائر ووجدوا أمة لها لغتها وأدبها وهي نافرة منهم سعوا في نشر لغتهم وآدابهم بما أقاموه من المراسح والنوادي وما شادوه من المدارس الابتدائية والثانوية بالقرى والمدن.

وكانت قرطة ومدوروس من أشهر المدن التي يؤمها طلبة التعليم الثانوي ولكي تحمل رومة على البربر لغتها جعلتها هي اللغة الرسمية ومنعت الكتابة بغيرها. وذلك في القرن الثاني للميلاد.

ومع حرص رومة على تعميم لغتها وآدابها لما في ذلك من تثبيت سلطانها لم تر من البربر إقبالا يفي بحرصها. العامة بقيت بعيدة عن اللطينية، والمتعلمون كانوا يجدون فيها صعوبة حملتهم على تغييرها بما يقرب من لهجتهم، حتى أصبحت لطينية افريقية متميزة عن لطينية رومة.

وهذا لا ينافي أن هناك رجالا من البربر نبغوا في الآداب اللطينية وكانت لهم فيها شهرة خلدت ذكرهم.

كان الأدب اللطيني أرقى من الأدب الليبي والفينيقي، واللغة اللطينية أوسع من اللغتين الأخريين، ومع ذلك فقد عاش الثلاثة بالوطن البربري، ولم تستطع اللطينية ـ على اتساعها ورقي أدبها ـ ان تتغلب على تينك اللغتين، بل كانت أقل منها رواجا بين الطبقة السفلى من الأمة وأقل ذكرا في بعض الجهات التي لم يوقدها الاستعمار الروماني. قال بيروني: «**وفي أيام القديس أغسطين ـ التي هي بعد الاستيلاء الحقيقي بقرون ـ كان الولاة الإداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون إلى ترجمان بينهم وبين البربر البادين. وكانت اللغة الفينيقية لغة الأكثرية البربرية. حتى أن العظماء الذين تخلقوا بالأخلاق الرومانية كانوا يتكلمون بها**».

ومما تقدم تتضح لك نقطتان:

1- إن الرومان لم يؤثروا على البربر في اللغة والآداب مثل تأثير القرطاجنيين ولا قريبا منه. وذلك للفرق بين مقاصد الامتين في الشعب الجزائري. اذ القرطاجنيون مقاصدهم تجارية، والرومان مقاصدهم استعمارية بالمعنى العصري. فالبربر أقبلوا على من كانت مقاصدهم معهم حسنة، ونفروا من أصحاب المقاصد السيئة.

2- الذين تعلموا اللطينية صبغوها بصبغة وطنهم وغيروها عن أصلها. وذلك دأب البربر في كل ما أخذوه عن غيرهم. وبذلك حافظوا على

جنسيتهم، وابتلعوا الأمم التي احتلتهم وأرادت أن تبتلعهم وتكثر بهم سوادها. وهي مزية لا تعرف لسواهم من الأمم غير العرب.

ديانة الرومان بالجزائر:

قدمنا لك ما للرومان من كثرة الآلهة، وما لهم من عناية بها، وأنهم اخذوا من الأمم التي استولوا عليها بعض آلهتهم. وقد كان علماء رومة يرون ان الأرباب لمختلفة باختلاف الأمم ليست إلا مظاهر لأصل رباني عام. ومن ههنا نشأ التسامح الديني عند الرومان، فلم يضغطوا على أي شعب استولوا عليه في ديانته ولا ألزموه بديانتهم. وإنما كانوا يلزمون من تحت رايتهم بعبادة قيصر. وظاهر ان هذه العبادة سياسة لا دينية. ولذلك لم تكن لها هيئة خاصة تتحد الشعوب المحكومة لرومة على أدائها، بل كانت كل أمة أو قرية تبده على الوجه الذي تراه عبادة.

وأنت تعلم إن البربر ما أتوا بشيء من باب الإختيار إلا قبلوه وأخذوا منه. فكان للبربر آلهة رومانية إلى جنب آلهتهم البربرية وما أخذوه عن الفينيقيين. وهكذا عاشت الديانات الثلاث بين ظهراني البربر متآخية. غير أنه لا بد أن يكون ـ بمقتضى طبيعة البربر ـ طابع البربرية على ... بيع.

بقيت هذه الديانات في ظل التسامح المتبادل بين البربر والرومان حتى ظهرت الديانة المسيحية فتضادت معها، ولم يتسع التسامح الديني

الروماني لها فعارضها، لأن الأباطرة والعظماء رأوا في انتشار هذه الديانة ما يضعف عظمتهم وينقص من غلوائهم.

في سنة (**303**) أحدث إمبراطور رومة قانونا باتخاذ بعض الأيام لعبادة الآلهة الرومانية. لا يتخلف أحد عن حضور هذا اليوم المعلوم. ومراد الإمبراطور مضاد المسيحية التي تنظره وأحقر إنسان في إمبراطورية بعين واحدة. وتراهما في مترلة واحدة، بل تفضله لحقارته وفقره عليه لجلالته وغناه.

قام بتنفيذ هذا القانون والي نوميديا فلريوس، ولم يتمثل له كثير ممن تمكنت المسيحية من قلوبهم فقضى عليهم بالقتل. ولكثرة المقتولين دعى هذا العصر عصر الشهداء.

الديانة المسيحية:

الديانة المسيحية هي الديانة التي جاء بها عيسى المسيح عليه السلام، وهو عيسى بن مريم ابنة عمران. وعمران اختلف المؤرخون في سياقة نسبه، ولكنهم اتفقوا على أنه يتصل بسليمان بن داود عليهما السلام. وأم مريم اسمهما حنة. وأختها ايشاع (**أو خالتها**) كانت تحت زكريا عليه السلام. ومنها يحي الذي قال فيه القرآن: «**وآتيناه الحكم صبيا**». عمران كان كبير كهنوتية بيت المقدس. وحنة زوجه كانت من العابدات. أقاما ثلاثين سنة لا يولد لهما. فدعوا الله ونذرت حنة: إن ولدت لتجعلن

ولدها حبيسا ببيت المقدس يقوم بخدمته. فولد لها مريم، ووفت بنذرها. فدفعتها إلى عباد بيت المقدس. وقام بكفالتها هناك زكريا حتى كبرت، وصارت تقوم بقسطها من خدمة البيت، واشتهرت بالتقى والفضيلة، وظهرت على يدها الخوارق كما قص ذلك القرآن في آية آل عمران: **«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله. ان الله يرزق من يشاء بغير حساب».**

وما زالت على عبادتها وورعها حتى بشرتها الملائكة بأنها ستلد إبنا من غير أب يكون نبيا رسولا. فعجبت من ذلك. وأجابها بأن الله يخلق ما يشاء.

قدر الله ان تحمل مريم من غير زوج فأرسل إليها جبريل ونفخ فيها، فحملت بعيسى. ولما ظهر بها الحمل خشيت أن تتهم في عرضها. فخرجت من بلدها وأخذها المخاض في الطريق ووضعت شرقي بيت لحم قريبا من بيت المقدس.

كانت ولادة عيسى في زمن أغسطس قيصر. قال ابن خلون لاثنتين وأربعين من ولايته. وهو صحيح إذا قدرنا ولايته منذ كان أحد الرجال الثلاثة.

ولادة عيسى من غير أب أمر خارق للعادة حقيقة ولكن الله على كل شيء قدير. وقد أزال القرآن الغرابة في ولادة عيسى بأن آدم أغرب

منه. وذلك قوله تعالى : «**إنما مثل عيسى عند الله كمثل آدم: خلقه من تراب ثم قال له كن**».

كبر عيسى وظهرت على يده الخوارق منذ صباه ـ كما في القرآن ـ من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وخلق الطير من الطين. ونزل عليه الإنجيل ودعا إلى طاعة الله واشتهر ذكره.

هنالك خافه رؤساء اليهود على دينهم فتآمروا على قتله. وبحثوا عنه فدلهم عليه أحد أصحابه. فقصدوا موضعه. وألقى الله شبهه على أحد اليهود فقتلوه وصلبوه معتقدين أنه عيسى عليه السلام.

وكان لعيسى من الحواريين (**الأصحاب**) اثنا عشر وهم: سمعان بطرس، أخوه أنداورس، يعقوب بن زيدي، أخوه يوحنا، فليبس، برتلوماوس، توما، متى العشار، يعقوب بن حلفا، تداوس، سمعان القناني، يهوذا الاسخريوطي.

ذهب الحواريون بعد رفع عيسى وافترقوا في النواحي لبث دينه. وكان منهم بطرس برومة، وهنالك كتب الإنجيل بالرومية ونسبه إلى تلميذه مرقس. وكتب متى أنجيله بالعمرانية في بيت المقدس. ونقله يوحنا بن زيدي إلى الرومية وكتب لوقا أنجليه بالرومية. كل ذلك على عهد قلوديوس. وكان نقل يوحنا ببعض جزر ايطاليا على عهد طريانس.

وكان بين هذه الأناجيل اختلاف بالزيادة والنقص، وقد يقع بينها التناقص. وذلك من عدم جمع الإنجيل في أيام من أنزل عليه وتدوينه باللغة التي أنزل بها. فكتب كل من الحواريين ما حضره من غير أن يجتمعوا.

وبطرس كبيرهم كتب أنجيله بالرومية. ومعلوم أن ذلك ترجمة قد يخطئ صاحبها.

ومن ههنا اشتمل الدين المسيحي على أصول تخالف الدين الإسلامي مع أن مصدرهما واحد. وعقيدتنا أن دين الله واحد لا يختلف في روحه وحقيقته باختلاف الأزمان، وإنما تختلف صوره ومظاهره.

وقد ذكر الأستاذ الإمام محمد عبده أصول الدين المسيحي ملخصا لها في ستة:

1- الخوارق.

2- سلطة الرؤساء الدينيين.

3- ترك الدنيا.

4- الإيمان بغير المعقول.

5- إن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد.

6- التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين.

وقد شرح هذه الأصول مستشهدا عليها بكلام الأناجيل. ثم بين سوء نتائجها. ونحن نكتفي بالإشارة إلى ذلك محيلين محب البسط والبيان على كتاب الأستاذ: «**الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**».

وقد ذكر ابن خلدون طبقات الرؤساء الدينيين الذين لهم السلطة على العامة، ولقب كل طبقة وهاك بيانها:

1- **البترك:** رئيس الملة وخليفة المسيح. والأساقفة يسمونه أبا. والقسوس يسمون الأساقفة أبا. فوقع الاشتراك في اسم الأب، فأطلق على البترك اسم البابا. ومعناه أبو الآبار. وكان البابا يطلق على بترك الإسكندرية. ثم صار يطلق على بترك رومة إلى يومنا هذا. واختص صاحب رومة بهذا اللقب لأنها مركز بطرس كبير الحواريين.

2- **الأسقف:** نائب البترك.

3- **القسيس:** القراء.

4- **الجاثليق:** صاحب الصلاة.

5- **الشمامسة:** قومة المسجد.

6- **الراهب:** المنقطع للعبادة بدير (**خلوة**).

7- **المطران:** القاضي.

وقد لقيت المسيحية في طريقها اضطهادات: وحدث بين رؤسائها اختلافات. ولبثت على ذلك حتى تعززت بتمسيح قسطنطين في القرن الرابع للميلاد. هنالك ارتفع عنها الاضطهاد وقل الخلاف. لأنه مهما ظهرت قولة إلا اجتمع الأساقفة والبتاركة عليها وتناظروا في شأنها وقرروا رأي الأغلبية ولعنوا خلافه.

ومن مذاهب النصرانية مذهب دوناتوس بنوميديا في بداية القرن الرابع.

ومنها مذهب أريوس. وكان أيضا في القرن الرابع لعهد قسطنطين. قال ابن خلدون: واستقرت الكنائس أخيرا على ثلاثة مذاهب: يعقوبية وملكية ونسطورية. وليس من غرضنا شرح هذه المذاهب. فلنقتصر على الإشارة إليها.

الديانة المسيحية بالجزائر:

تأسست الكنيسة المسيحية بقرطاجنة أوان تأسست برومة. وذلك بعد رفع عيسى (ص) وتفرق أصحابه في الجهات.

واختلف هل كان تأسيسها على يد أحد الحواريين؟ فمن المؤرخين من جزم بنفي دخول الحواريين إلى الشمال الإفريقي. ونسب نشر خبر الكنيسة بهذا الوطن إما إلى تجار شرقيين لوجود المواصلة بين المشرق وقرطاجنة، وأما إلى الرومان الذين تمسحوا وقدموا افريقية.

ومن المؤرخين من أثبت دخول بعض الحواريين إلى افريقية نقل البكري عن اسحق بن عب الملك الملشوني أنه قال: «**لم يدخل افريقية نبي قط. وأول من دخلها بالإيمان حواري عيسى بن مريم عليهما السلام**»[1].

---

[1] المغرب ص45. واسحاق الملشوني ذكره البكري ص52 وأباه. وقال فيهما: (عالمان يحمل عنهما العلم). وقال عن ملشون: (قرية من قرى بسكرة).

ومن هذا النقل عن عالم جزائري صحراوي قديم مشهود له بالصدارة في العلم _تعلم أن لا صحة لاعتقاد العامة وجود خالد بن سنان العبسي بوطننا، وزيارتهم لمكان زعموا أنه صريحه. قال صـــاحب المـــؤنس=

وفي ابن خلدون ان الذي دخل افريقية من الحواريين فليبس. وقال القيرواني: اسمه متى العشار. وابن خلدون ذكر متى العشار، وأنه أرسل إلى أرض السودان والحبشة .ومراد ابن خلدون بافريقية وطن تونس.

وكيفما كان الحال فإن انتشار المسيحية بافريقية مقارن لانتشاره بايطاليا. وانتشاره كان بمساعدة اليهود الإفريقيين واللغة اللطينية التي هي اللسان الرسمي للكنيسة.

وقد كان لليهود هجرات على الوطن البربري أولاها على عهد الفينيقيين جلبوهم عندما أسسوا المراكز التجارية بشاطئ البحر الأبيض لفضل حذق اليهود بالتجارة. وثانيتها بعد هلاك الاسكندر على عهد بطليموس صاحب مصر، اذ حاصر هذا الملك بين المقدس وشرد اليهود منها فانتقل بعضهم إلى الشمال الإفريقي وذلك سنة **(320) ق.م.** وثالثتها على عهد الإمبراطور ادريانس اذ نقل إلى المغرب بعضهم من بيت المقدس وبعضهم من برقة.

لبثت المسيحية بافريقية تحت جناح من الظلام لا يعلم لها تاريخ حتى بداية القرن الرابع. والمعلوم عنها في هذه المدة كلها هي أحاديث الاضطهاد، وانعقاد مجمعين للأساقفة أحدها أواخر القرن الثاني اشتمل

=ص18: ومنهم من قال بل دخلها (افريقية) خالد بن سنان زمن الفترة. ولكن لم يدخلها بدعوة. قـال: (وأنكر بعض الفقهاء ذلك وصححه آخرون).

وليس في التاريخ مايؤيد تصحيح وجود خالد بصحراء الجزائر. وليس من المعقول أن يأتي نبي من جزيرة العرب إلى هذا الوطن البربري من غير أن يكون مرسلا إلى أهله. هذا على فرض أن يكون خالد نبيا. والصحيح أيضا خلافه.

على سبعين أسقفا من افريقية ونوميديا والثاني سنة (240) حضرة تسعون أسقفا.

وجدت الطبقة المستعلية في تعاليم هذا الدين ما ينافي كبرياءها وجورها واستعبادها للضعفاء فعارضته. واستعمل الأباطرة قوتهم في أخفات صوته واعتدوا على المتمسكين به حتى أن من سلم منهم من القتل لا يسلم من السجن. وكان سبتموس سويرس أشد الأباطرة وطأة على المسيحيين.

وقد قابل رؤساء الكنيسة تلك الاعتداءات بكل شجاعة وثبات. وكان رجال من البربر وقفوا حياتهم لنشر هذا الدين ومات منهم عظماء في سبيله.

لم يزل رجال هذا الدين يقاسون الاضطهادات الإمبراطورية وقليل من الأباطرة من خلاهم ودينهم مثل نربا (96-98) حتى ظهر الإمبراطور قسطنطين فأحسن إلى الكنيسة ومنحها الحرية ثم تمسح هو نفسه.

تعززت الكنيسة بهذا الناصر العظيم. ولكنها انتقلت من الاضطهادات الخارجية إلى الفتن الداخلية، إذ حدث بين رجالها اضطرابات أفضت إلى انقسامها على حزبين متنافسين متباغضين.

وذلك أن من المسيحيين من لم يتحمل الاضطهادات وارتد عن دينه. ومن بين المرتدين بعض الأساقفة. وفي عصر ديوقلطيانس طلبت منهم الحكومة تسليم الكتب المقدسة. فخشي كثير من الأساقفة أن يقتلوا

فشحوا بأنفسهم وجادوا بدينهم وكتبه. ومنهم بنوميديا أساقفة قرطة وتجيست (**عين البرج جنوب قسنطينة**) ومصكولة (**خنشلة**) وقالمة.

في سنة (**305**) مات أسقف قرطة بولوس. فاجتمع الأساقفة للنظر فيمن يخلفه فكان سلفانوس. وهو من المتهمين بتسليم الكتب المقدسة. فلم يرضه كثير. وأخذ الخلاف يتسع بين المسيحيين ويشتد من ذلك الحين.

وفي سنة (**311**) مات أسقف قرطاجنة فاجتمعوا للنظر فيمن يخلفه فكان سيسليان. ولم يرضه كثير من الأساقفة. وأخذت الدعاية تتمشى ضده، حتى بلغ عدد أضداده من الأساقفة سبعين يرأسهم سوغندوس أسقف تجيست.

ثم اجتمع هؤلاء الأساقفة وطلبوا من سيسليان المثول أمامهم لاتهامهم له بأنه من المقصرين في جانب شهداء الاضطهادات. فامتنع من الحضور. فسجلوا امتناعه وأطلقوا عليه لقب (**TRADITEUR**) واعتبروا منصبه شاغرا فسموا مكانه بقرطاجنة مجورينوس من حزبهم.

سنة (**316**) مات مجورينوس وسمي مكانه دونتوس. وكان أسقفا بباغاية. وقد نظم مذهب هذا الحزب حتى نسب إليه. واستعان بسميه دونتوس أسقف الديار السود (**قرية شمال أوراس اندثرت**).

أخذ هذا المذهب ينتشر بقوة وسرعة في نوميديا وموريطانيا. وقاومته الحكومة فلم تظفر به. وابتدأ قسطنطين مقاومته في مهده فجمع

الأساقفة مرتين كانت النتيجة فيهما ضد دونتوس. وأخيرا قابلهم بالقوة واشتد عليهم فلم ينل منهم.

وفي نواحي سنة (326) توفي سيسليان فاجتمع بقرطاجنة من أساقفة الحزبين 270 واصطلحوا. وقد كانوا قبل ذلك متنافسين كل حزب يريد التغلب على الآخر. ويتوسل إلى ذلك بالإكثار من الأساقفة.

وفي سنة (330) بلغ من كثرة إتباع دونتوس أن استحوذوا على جميع الكنائس، حتى طلب أسقف قرطة زيزيوس أحداث كنيسة للأرثوذوكس.

وفي سنة (340) تجددت الفتن بين حزبي الكنيسة. ومات قبل ذلك قسطنطين (337) وخلفه أبناؤه الثلاثة كل بناحية. وكان قسطنط أحدهم على ايطاليا وافريقية. وكان ناصر الأرثوذوكس. فوجه جنوده لحرب إتباع دونتوس. واقتتلت جنود الإمبراطور وهؤلاء الأتباع. فانتصر الإمبراطور وأخذ أتباع دونتوس بالقتل والنفي.

وبعد سنين ثأر الدونتسيون من الأرثوذوكس. وذلك أن قسطنطيوس أحد أبناء قسطنطين استقل بالملك بعد وفاة أخويه. وفي سنة (360) ظهر يليانس المرتد، ونازع قسطنطيوس السلطة. وأراد فتح افريقية، فامتنعت عليه. وكان الأرثوذوكس مع قسطنطيوس، فلما توفي هذا الإمبراطور خلا الجو ليليانس المرتد، وانتقم من الأرثوذوكس فسلط عليهم الدونتسيين، ففتكوا بهم فتكا ذريعا، ولم يسلم منهم حتى النساء والصبيان.

وفي سنة (**372**) ثار فرموس البربري بوطن القبائل وشغل الرومان ثلاث سنوات. كان الدنتبسيون من أنصاره في تلك الثورة. ولما أيس من النجاح وقتل نفسه انتقم الرومان من حزب دونتيوس وساموهم سوء العذاب.

وفي سنة (**395**) ثار جلدون أخو فرموس على الرومان ونصره إتباع دوتنيوس وفتك بالأرثوذوكسي. ولما قبض عليه انتحر. وحنق الرومان على الدونتسيين، فجاروا عليهم واستعبدوهم.

انتشر مذهب دونتوس بنوميديا وموزيطانيا (**الوطن الجزائري**) وحاز الأغلبية على الأرثوذكس. وهاك بيان مراكز أساقفة الفريقين بمدن هذا الوطن: في سنة (**411**) كان عدد المراكز مائة وسبعة وثمانين منها (**87**) دونتيسية، (**34**) كاثوليكية، (**66**) للفريقين.

ومهما كثر عدد أساقفة حزب بناحية آذوا أتباع الحزب الآخر بالسلب والسرقة وهدم المعابد. وقد بلغ من تباغض الأحزاب المسيحية أن قال فيهم أميان مارسلان ـ وقد عاش قريبا من أوائل القرن الخامس ـ:

«**إن العداوة بين المذاهب المسيحية أشد من عداوة السبع للإنسان**».

و لم تقف الكنيسة عند هذا الحد من الانقسام. بل أن إتباع دونتوس أنفسهم انشقوا طائفتين: طائفة متساهلة مع بقية المسيحيين والأغنياء، وأخرى متشددة مع المسيحيين ومتعمقة في الزهد تكره الأغنياء. وكان مركز الطائفة الثانية بتمغادي، وهي تتركب من العبيد المماليك الصعاليك، وقد أخذت على نفسها العمل لتحقيق المساواة بين الأفراد في

الفقر. فصارت تجوب البلاد وتطوف في البوادي لنهب الأغنياء وإفساد الأموال. ورؤساء مذهب دونتوس يعدون ثوارا على الحكومة. ولذلك أقبل بربر الجزائر على هذا المذهب لما كانت تنطوي نفوسهم عليه من كراهية السلطة الأجنبية. ولذلك أعانوا فرموس وجلدون في ثورتهما، وكانت الحكومة دائما ضدهم. وأصدر الإمبراطور هرنريوس سنة (**410**) أوامر في التشديد عليهم، ولكثرتهم لم يستطع تنفيذها. ولما أعياه أمرهم أمر باجتماع شيوخ الدين سنة (**411**) فانعقد المجلس بقرطاجنة، وحضره من أساقفة الكاثوليك والدوتيس (**286**) فحكم رئيس الجلسة الدونتيسيين ولكنهم لم يحفلوا بذلك الحكم. فأضدر الإمبراطور أمره بالتشديد عليهم وسلب حقوقهم والتضييق على حريتهم.

قال مؤرخ المسيحية بإفريقية الأب مسناج: «**لما عجز البربر عن طرد الرومان من وطنهم اكتفوا بإظهار الكراهية لهم. فامتنعوا من لغتهم ومذهبهم. فإن شعبا لا يتعلم لغة المستولي عليه يعد ثائرا خصوصا إذا أضاف إلى ذلك مخالفته له في المعتقد. ويقول بعض المؤرخين: ان البربر ما دخلوا أولا في المسيحية إلا لكون الرومان وثنيين. فلما أقبل الرومان عليها حالفهم البربر وأسسوا لأنفسهم مذهبا جديدا**».

المسيحية والوثنية بالجزائر:

لم تتجاوز المسيحية بالجزائر حدود المملكة الرومانية، ولم تنتشر داخل تلك الحدود الا على نسبة انتشار اللطينية، فكانت الاغليبة للوثنية، وما كان من كثرة الأساقفة ومراكزها بمدن نوميديا وموريطانيا فإنما نشأ عن تنافس حزبي الكنيسة لا عن كثرة أتباع المسيحية .

وقد رأيت أن مذهب دونتوس هو مذهب الأغلبية المسيحية بالجزائر وذلك لأنه مذهب ظاهره ديني وباطنه سياسي يؤيد السيادة الوطنية. ومن ههنا كانت كراهية أتباعه للارثذوكس الذين ينصرون الرومان ويؤيدون السيادة الأجنبية ولان غاية أتباع دونتوس سياسية لم يتمكن الدين من تحويل طبائعهم وعاداتهم وعباداتهم. وكذلك كثير من الارثذوكس لم يكن الدين ليفضي إلى قلوبهم. وقد كان القديس أغسطين يخطب في المسيحيين ويرشدهم إلى المسيحية الصرفة. قال الأب مسناج: «**اذ كان في عصره أكثر المسيحيين لم تزل بين جنوبهم عقائد وثنية: يأتون الكنائس ويعبدون فيها آلهة وثنية، ويذهبون أيضا إلى الهياكل الوثنية**» ـ وقال أيضا: «**فجر القرن الخامس هو أزهر عصر للديانة المسيحية بافريقية، ومع ذلك فانه لم يصل إلى قلوب معتنقيه من البربر، وإنما كان شعارا ظاهريا، وفي حقيقة الأمر لم يزالوا على وثنيتهم**».

وكان عصر قسطنطين الحرية الدينية فارتفعت عن المسيحية الاضطهادات وصار كل من المسيحيين والوثنيين يأتون أعمالهم بحرية

تامة. ثم تأثرت المسيحية من الوثنية وأصبحت تضطهدها: في عصر قسطنط سنة (**314**) منعت القرابين، وفي أيامه أيضا سنة (**346**) أغلقت الهياكل الوثنية وشدد في منع القرابين حتى هدد فاعلها بالقتل. وفي سنة (**380**) لم يعترف إمبراطور رومة غراطيانس بشيخ الديانة الوثنية. ثم صادر سنة (**382**) أملاك الهياكل، ونزع لشيوخ الوثنية امتيازهم، وأزال من مجلس الشيوخ تمثال آلهة النصر.

وفي سنة (**399**) أمر هنوريوس بإبطال عبادة الأصنام وهدم معابدها. وامتعض الوثنيون ـ وكانوا كثيرين ـ لهذا الأمر.

ولم تجد الوثنية حريتها الا في زمن يوليانس المرتد (**361-363**).

كان هذا الإمبراطور قد تعلم بأثينا. وبعد إمبراطوريته فتح داره للحكماء والفلاسفة، فنبذ المسيحية، وبذلك سمي المرتد، ومنح الوثنيين حريتهم. واشتد على المسيحيين لأنهم كانوا في نصرة خصمه قسطنطيوس ما عدا الدونتسيين.

قال الأب مسناج: وقد استبشر بانتصاره للوثنية بربر افريقية الشمالية، ولقبوه «**محيي القرابين**». وأظهرت مدن كثيرة استبشارها بذلك. وبعث مجلس بلدية تمغادي إلى يوليانس تهانيهم في مجالس أخرى. وقد كان أكثر الولاة بنوميديا وموريطانيا وأغلب المتوظفين بالمجالس البلدية في أوائل القرن الخامس مسيحيين.

قال الأب مسناج: «**ومداوروش كانت كلها وثنية. وهي العاصمة العلمية لوطن أغسطين. ووجدت آثار هياكل وثنية من القرن الخامس، تدل على عظمتها. في حين أن الكنائس اذ ذاك في غاية الفقر**».

وقد تقدم ان الديانة المسيحية لم تتجاوز حدود المملكة الرومانية. وقد قسم الأب مسناج هذه المملكة إلى ثلاث أقسام:

1- مدن رومانية، كانت الأغلبية فيها مسيحية، ولكنها ممزوجة بالعقائد الوثنية.

2- بوادي رومانية لم يتمكن بها نفوذ الرومان. كانت الأغلبية فيها للوثنية

3- جهات غير خاضعة للرومان، هذه لاأثر للمسيحية بها.

وقد اتضح أن الأغلبية الساحقة بالجزائر في جانب الوثنية، وأن الأقلية المسيحية لم تكن خالصة، وان جلها من أتباع دونتوس الذين يرمون إلى غرض سياسي.

وقد عاشت المسيحية على أقليتها وعدم خلوصها وتعدد مذاهبها إلى أن جاء الإسلام فقضى على الجميع بسرعته المدهشة.

ذكر بعض رجال البربر في الدور الروماني:

قد رأيت ما كان للبربر من رجال عظماء وملوك كبراء قبل أن يصابوا بكابوس الاحتلال الروماني. وقد ظهر منهم بعد ذلك الاحتلال أيضا

رجال في العلم وفضلاء في الدين وعظماء في السياسة ونحن نذكر لك ما وقفنا عليه من أسماء الجميع، وان كنا نأسف لفقدان تراجم حياة كثير منهم:

1- فمن رجال العلم الذين كانت لهم شهرة فرنطزنس. كان أستاذ الامبراطور مرقس أوراليوس. وله سمعة بين جميع الطبقات في الفن الهندسي، وهو مولود بقرطة.

ومنهم أبوليوس. قال بيروني: «**هو من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره. وأحسن وصف له وأصدقه أن تقول: هو رجل مخترع مؤسس لمباد كثيرة**». وكان قبل القديس أغسطين وأصله من مداووش.

2- ومن رجال الدين نمفانيو، مغجيس، لسيتة، سناييس. هؤلاء من أهل القرن الثالث الذين اضطهدوا في سبيل الدين وقتلوا شهداء.

ومنهم دونتوس مؤسس المذهب المنسوب اليه. وسميه أسقف الديار السود.

وكان بقالمة ومصكولة (**خنشلة**) أسقفان كلاهما يدعى دونتوس. وكانا عصر تسليم الكتب المقدسة.

ومنهم أبطأت أسقف ميلة. كان في عصر القديس أغسطين. وأعانه في حملته على المسيحيين المتهتكين. وترك تآليف ذات أهمية. وأهمها كتب في تاريخ مذهب **دونتوس**.

ومنهم القديس أغسطين. ولد أغسطين بتغاست وتعلم بمدو روس ثم انتقل إلى قرطاجنة ثم ذهب إلى ميلان بايطاليا ثم عاد إلى مسقط رأسه سنة (**388**). ونزل دار أبيه وجعلها ديرا يتعبد به. وفي سنة (**391**) سمي قسا بهبون، ومنح أيضا خارج المدينة ليبني بها ديرا، ثم سمي أسقفا، واتخذ داره نفسها ديرا. وقد اشتهر هذا الدير وتخرج منه عشرة أساقف. منهم البيوس بتغاست، وسفروس سمي بميلة سنة (**396**)، وفرتونتوس سمي بقسنطينة سنة (**402**)، وبوسديوس وسمي بقالمة سنة (**397**) وهو مؤرخ حياة أغسطين وافوديوس بأزليس (**وجل**) في حدود سنة (**400**)، ونفاتوس بسطيفي قبل سنة (**411**).

ويقال ان أول من أحدث الاديرة بافريقية القديس أغسطين، وكان من حزب الارثذوكس (**سلفي**) وانتصب للدفاع عن المسيحية. فرد على أدباء عصره الزارين عليها بكتاب سماه «**مدينة الله**» ومما جاء فيه في مقام إثبات الاله قوله: «**أني متحقق وجودي. ولا أخشى أن يقال أني غالط في ذلك. لان الغلط دليل الوجود**»[1].

وأرشد مسيحي ذلك الوقت الذين انحرفوا عن الدين وانغمسوا في الملاهي والخمور حتى كانوا يتعاطونها في المجامع الدينية. واشتد في حماسه الديني عليهم حتى عزم مسيحيو قرطاجنة على الفتك به. ومن أقواله في

[1] عثرت على هذه الجملة الفلسفية في كتاب الدين الطبيعي نقلها عنه مؤلفه جول سمون، ص7.

سبيل الإرشاد: «**ان الشهداء ترتجف قلوبهم من زجاجاتكم وآلات طبخكم واصطباحكم**».

وناظر أصحاب دونتوس بالحجة وأغلق باب السباب الذي لاتخلو منه مناظرتهم سابقا وفتح باب النقد النزيه.

قال بيروني: «**وهو أخطب خطيب لطيني وأكبر مفكري كل زمان**». عاش القديس أغسطين حتى فتح الوندال. وحوصر ببونة في جملة المحصورين. وتمكن له الفرار فلم يرضه لنسه ومنصبه. وبقي مع المحصورين إلى أن أدركه أجله سنة (**430**).

3- ومن رجال السياسة لسيوس كبيتوس وأرديون. وقد ذكرا سابقا. ومنهم فرموس وجلدون. وقد أخرنا ذكرهما إلى هذا الفصل لأن أنصارهما كانوا من حزب دونتوس. فرأينا ان نذكرهما بعد الكلام على ذلك الحزب.

كان رجل بربري يدعى نوبال ملكا على القبائل الخمس. وتوفي في عشرة السبعين من القرن الرابع، وترك أولادا، وهم: **فرموس، جلدون، مسيزال، ديوس، صلمسيس، زامة** وكلهم مسيحيون.

وفي سنة (**372**) ثار فرموس على الرومان بجبال جرجرة، وأعانه أهل الموريطانيتين وأتباع دونتوس. فجمع من الجنود نحو عشرين ألفا ذهب بها إلى قيصرية فحاصرها ثم افتتحها وحرقها. وامتدت الثورة بنوميديا. وأراد والي قرطاجنة مقاومتها بالحرب فانهزم. ونادى البربر بفر موس ملكا.

بلغ خبر هذه الثورة الشاملة للوطن الجزائري مسامع الامبراطور والنتنيانس، فوجه جندا تحت رئاسة ثأودوسيوس فنزل هذا القائد جيجل وتوجه منها إلى سطيف سنة (373). والتحق به جلدون ومعه جنده ليعينه على أخيه!

وكان مع فرموس أخواه مسيزال وديوس. ولكنه رأىٰ نفسه ضعيفا عن الحرب فراسل ثأودوسيوس في الصلح فلم يقبل، وتحاربا. وبعد معركتين أعاد فرموس طلب الصلح فقبل ثأودوسيوس. وانعقد الصلح بينهما على الصفة الآتية:

1– إهداء مدينة الجزائر (**اقسيوم**) لثأودوسيوس.

2– تنازل فرموس عن تاجه.

3– أداء مال كثير لثأودوسيوس.

4– إعطاء رجال رهنا لتنفيذ مواد الصلح.

ذهب ثأودوسيوس بعد الصلح إلى قيصرية ليجددها وأخذ أعوان فرموس بها بالقتل والجلد. وحاول فرموس تجديد الثورة فلم يفلح.ولما أيس خرج مشرقا لينجو بنفسه. فراصده الرومان، فعاد إلى وطنه وأوقد نار الثورة من جديد، وجمع نحو عشرين ألفا هزم بها ثأودوسيوس ففر في جناح الظلام وجمع عساكره بعيون بسام. واشتد غيظه على من لم يثبت منهم في المعركة فقتل وحرق آخرين بالنار. وجمع الباقين بسطيف ونظمهم تنظيما حسنا.

كان رجل بربري يدعى اغماسن رئيسا لقبيلة تقطن جنوب جرجرة. وكان هذا الرئيس قد أعان بقبيلته فرموس.

في سنة (375) ذهب ثأودوسيوس إلى تلك القبيلة وأرشى رئيسها ليقبض له على فرموس. فلم يخف على فرموس ضعفه وعجزه فانتحر، ولم يجد اغماسن إلا جثته فوجهها على بعير لثأودوسيوس.

قد يكون اغماسن خائنا لفر موس لما عرف به رؤساء البربر من التخاذل. والظاهر عندي انه غير خائن، بل هو سياسي حاذق لأنه علم عجز فرموس وضعف قبيلته عن المقاومة وان الرومان سينتقمون منه ومن قبيلته، فقبل رشوة ثأودوسيوس ليكون له فضل على الرومان فيأمن على نفسه وقبيلته.

فرموس من رجال البربر المعدودين. وقد مازجه شيء من الخلق الروماني فكان محبا للرفاهية متمتعا بالملذات كأنه قيصر. ومع ذلك قاسى في سبيل الاستقلال البربري أهوال الحروب ثلاث سنين.

فرموس وتقفار يناص ويوغورطة ومصينيسا رجال متشابهون في الجلد ومقارعة الأهوال وعدم الخضوع للعدو وقوة الرجاء في النصر. ومن لم يفلح مات شهيدا في سبيل الاستقلال.

هكذا انتهت حياة فرموس أما أخوه جلدون فقد بقيت العلائق حسنة بينة وبين ثأودوسيوس، والمكاتبة سائرة بينهما. وكانت له بنت تدعى «**صلفينة**» ربيت مع أبناء ثأودوسيوس. وتولى هو خطبتها لبعض قرابته

فزوجها أبوها، وأصبحت بالقسطنطينية. وتقوت بذلك العلاقة بين الزعيم البربري والإمبراطور الروماني.

وفي سنة (387) سمي جلدون رئيسا أعظم على فيلقين رومانيين وفي سنة (395) توفي ثأودوسيوس. واقتسم مملكته ابناه ارقاديوس على الجهات الشرقية قاعدته القسطنطينية وهنوريوس على الجهات الغربية قاعدته رومة.

هنالك تبين ان جلدون لم يكن محبا للرومان رغم حظوته عند إمبراطورهم. وأعلن الحرب على هنوريوس. وقطع عن رومة ما كانت تستورده من حبوب افريقية. وعطله بقرطاجنة.

تهيأ وزير هنوريوس إلى حرب جلدون وتهيأ الدونتسيون لنصرة جلدون. وشقي الكاثوليك اذ ذاك لأنهم من دعاة السادة الأجنبية.

وفي هذا الحين ذهب مسيزال إلى ايطاليا و لم يعلم مراده فظنه جلدون يتجسس عليه للرومان، فقتل له ولدين، وتظاهر بخضوعه للإمبراطور.

وجد وزير هنوريوس في قتل ولدي مسيزال أحسن فرصة للانتقام من جلدون. فكلف مسيزال بحربه وأعطاه خمسة آلاف جندي.

وكان لجلدون من الجنود سبعون ألفا. وتقابل الإخوان بجيوشهما نواحي تبسة. وأعجب جلدون بكثرته فلم ينظم جيشه وخفي عليه ان النظام هو القوة. فانهزم جمعه وفر هو قاصدا القسطنطينية. فأدركه شيعة أخيه بطبرقة، وجاؤوا به إليه فأودعه السجن. فعجل جلدون أيام نحسه وانتحر بعدما ملك اثنى عشر عاما.

بعد انتحار جلدون وجهت رومة إلى قرطاجنة واليا ليحوز لها أملاك جلدون وأبيه من أراض وأموال وذخائر. وكانت كثيرة جدا خصص لإدارتها نائب خاص.

هكذا انتهت حياة جلدون، أما مسيزال فانه أعاد افريقية تحت السيادة الرومانية. ثم توجه إلى ميلان بايطاليا طمعا في ان يعطي منصب أخيه جلدون جزاء انتقامه من جنسه لقتل ولديه وخدماته للرومان. ولكن وزير هنوريوس لم يجازه جزاء العاملين المخلصين بل جزاء الخائنين السافلين فقتله غريقا في الماء وهو ينظر إليه. وقد أصاب هذا الوزير في قتل مسيزال وجه الصواب في خدمة دولته. فانه لو منح هذا البربري مطلوبه لسلك سبيل جلدون. بل انه سبق جلدون إلى كراهية الرومان اذ كان في صف أخيه فرموس.

سقوط حكومة الرومان بالجزائر:

ابتدأت علاقة الرومان بالجزائر منذ سنة (**213**) **ق**.م علـى عهـد صيفاقس وتعرفوا بالتراب الجزائري منذ سنة (**104**) بعـد يوغورطـة. وتصرفوا في التراب النوميدي منذ سنة (**46**) **ق**.م بعد يوبا الأول. وتم لهم الاستيلاء على الوطن الجزائري سنة (**42م**) بعد بطليموس. فكانت المـدة بين ابتداء علاقتهم بالجزائر واستيلائهم عليها خمسا وخمسين ومائتين من السنين.

وفي سنة (430) انهدم سلطانهم على أيدي الوندال. فكانت مـــدة حكومتهم بالجزائر ثمانية وثمانين وثلاثمائة من السنين.

ولم تكن هـــذه المـــدة ـ على طولها ـ كافية لتثبيـــت قدم حكومة الرومان بالجزائر. فان البربر ما انفكوا خلال هذه المـــدة يعربـــون عـــن كراهيتهم للرومان بالقول والفعل. فمن أقوالهم المأثورة في ذلك: «**نقـــل رومة في افريقية بشرط أن تضيفها إليها**» ومن أفعالهم كثرة ثوراتهم التي لم تنحسم مادتها من عصر تقفاريناص إلى عصر جلدون.

وقد ظلت جهات محافظة على استقلالها وسط الحكومة الرومانيـــة وهي جبال أوراس وجرجرة وونشريس، وقد كانت هذه الجهات هـــي مادة تلقيح الحركة الاستقلالية. ومن وصايا بعض السياسيين الورمانيين: «**لا تتم طاعة أية أمة ما دامت حولها أمم غير مطيعـــة. وإذا أردت ان تحمل امة على الاستعباد فانزع من بين عينيها منظر الحرية**».

وقد عد بعض المؤرخين من الأغلاط الرومانية تركهم لهذه الجهات استقلالها. وعندي أن هذا يعد من الرومان عجزا لا غلطا. فإنهم ما كانوا ليمنوا على البربر بمساواتهم لهم في الحقوق فكيـــف يتركـــون لبعضـــهم استقلالهم لو وجدوا إلى ذلك سبيلا؟

وإذا بحثت عن علة سقوط حكومة الرومان بالجزائر فلن تجد لذلك غير ضعف الحاكم ونفور المحكوم منه.

أما ضعف الحاكم فهو ضعف مادي وأدبي. وأما نفـــور المحكـــوم فبعضه ناشئ من الطبيعة البربرية وبعضه من معاملة الرومان. ونحـــن الآن نوضح هذه النقط بإيجاز:

أ- ضعف الرومان المادي: ظهر هذا الضعف في السلطة المركزيـــة والجندية والعمران.

1- أما السلطة المركزية فقد كانت تنتابها بين آونة وأخرى ـ علاوة على الحروب الخارجية ـ الفتن الداخلية الناشئة من تنافس العظماء علـــى عرش الإمبراطورية. وامتاز عصر ما بين سنتي (**192** ـــ**270**) بتـــداخل الجنود في إسناد الامبراطورية لمن وافق هواهم حتى عرف بعصر الفوضى. وبلغ من التلاعب بها أن انتقل مركز السلطة من رومة إلى قرطاجنة ســـنة (**237**) على عهد غرديانس الأكبر، وبقي سرير الملك شاغرا بعد (**251**) مدة عامين.

وفي عصر ديوقلطيانس بلغ من عجز السلطة المركزية أن قســـمت الممالك الرومانية أربعة أقسام على رأس كل قسم متصرف مطلق.

وما زال سرير الإمبراطورية يطفو ويرسب حتى جلس عليه ولنتنياس الثالث سنة (**423**) وكان غلاما ابن ست سنوات، فقامت أمه مقامـــه. وكان بونيفاس واليا عاما بافريقية حاذقا في إدارته مخلصا لدولتـــه. ولـــه منافس يدعى ايتيوس، وهو قائد عام. فأوغر عليه صـــدر بلاصـــيدية أم الامبراطور الصبي، وروج عليها أنه عازم على الاستقلال، وقـــال لهـــا: أرسلي إليه ليحضر لديك، فإن امتنع فتلك آية صدقي. وأرسل غليـــه ان

الإمبراطورة تريد قتلك. فلما أرسلت إليه لم يحضر، وإذ ذاك أيقنت صدق ايتيوس، فعزلته سنة (427) فرفض عزلها. ووجهت إليه الجنود، فهزمها. ودخل الوالي والإمبراطورة في حرب، ولما خشي الغلب راسل الوندال في الإعانة على ان يمنحهم من وادي مساغا إلى آخر ما يملك الرومان بالشمال الإفريقي غربا. فصادف ذلك هوى في نفوس الوندال ولبوا مسرعين.

2- وأما الجندية فأخذ شأنها يضعف منذ إمبراطورية سبتموس سويرس إذ أذن للجنود المرابطة على الحدود بالإقامة مع أزواجهم خارج المراكز الرباطية بصفة مستمرة، حتى أصبحت تلك المراكز أما مختزنات للسلاح والمؤن وأما ساحات لتمرين الجند.

وفي سنة (237) انتصب غرديانس الأكبر إمبراطورا بقرطاجنة بإعانة الفرقة الثالثة. فلما انتصر عليه مكسمينوس انتقم منها. قال مرسيي: **«وربما قضى عليها لمساعدتها غرديانس»**.

وكما كان لبعض الأباطرة يد في ضعف القوة العسكرية بالجزائر كان للزمان أيضا يد في ذلك، فإن الجنود بطول إقامتها في هذا الوطن ومنح الأراضي لها عشقت الحياة الفلاحية، وأصبحت تنافس الأغنياء في تعمير الحقول وتشييد القصور، فابتعدت بذلك عن الصفات الجندية.

3- وأما العمران فقد كان لضعفه سببان: أحدهما تطلع الأعضاء البلديين لمجلس الشيوخ، وبعد تسنمهم لذلك المنصب تقل عنايتهم بالشؤون البلدية، ويعفون من الأداء على أملاكهم الواسعة. وثانيهما

التزاع الواقع بين المذاهب المسيحية. وقد مر أن من المسيحيين طائفة كانت تجوب البوادي لنسف العمران وإعدام الطبقة المثرية من البلاد.

ب- وأما ضعف الرومان الأدبي فذلك أنهم وجدوا بالجزائر أرضا طيبة التربة ويدا ناشطة في العمل، فاستغلوهما جميعا. وبلغوا بهما أقصى درجات البذخ والنعيم، فانغمسوا في الملاهي والملذات، حتى أن الديانة المسيحية ـــ على ما فيها من تهذيب للنفوس وتزهيد في الدنيا ـــ لم تصدهم عن ذلك وقد حدث أسقف قرطاجنة القديس قبريان (**248 ـــ258**) عن أكثر أساقفة عصره بأنهم كانوا سراقا منهمكين في اللذائذ مرابين إلى غير ذلك من الصفات الذميمة. وقد جاهد القديس أغسطين في تقويم الأخلاق جهادا أكبر ولكن الأمر قد أدبر وفساد الأخلاق عم وانتشر فلم يكن لكلامه بالنفوس كبير أثر وإذا ذهبت أخلاق أمة فبشرها بالزوال.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   وإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ج- وأما نفور البربر الطبيعي فإن هذا الجنس سقيت طينته بماء الحرية وعجنت بيد الشدة وجفت بريح الثورة، فليس في وسعه إن يخضع للسيادة الأجنبية مهما طال أمدها عليه، وامتدت عروقها بوطنه، وكثرت سكاكين حضارتها لتقليم أظفار بدويته، وفيما سقناه من أحاديث الثورات البربرية ما يغني عن الأسهاب في بيان هذه الحقائق.

د- وأما نفور البربر الكسبي فقد رأيت ما كان للرومان عليهم من التفوق والاستعباد. الأمر الذي كان يلقح دائما نفورهم الطبيعي. ولا

أزيدك في إنارة هذه الحقيقة عما تقدم غير كلمة واحدة أنقلها عن بيروني، وهي لا تخرج في معناها عم سبق. قال هذا البحاثة: «**والأماكن التي كان للرومان بها سلطة حقيقية وقدم راسخة لا يعامل البربـــري فيهـــا إلا للانتفا ع منه**».

هذه أصول علل سقوط حكومة الرومان بـــالجزائر. وقـــد أكثـــر المؤرخون في هذا الموضوع من الأبحاث والاستنتاجات. وقد لخصنا لـــك في هذا الفصل زبدة أقوالهم الصحيحة، وأعرضنا عن تتبع ما كـــان لهـــم أقوال ساقطة وأفكار سقيمة خشبية الإطالة عن غير كبير فائدة. والمطلـــع على كلامهم يرى فيه غرضين واضحين: أحدهما حمـــل القـــارئ علـــى الاعتقاد بعظمة الرومان إلى درجة ان يدهش من ســـقوط اســـتعمارهم، وثانيهما تحذير قومهم من الفرنسيين من الوقوع فيما وقع فيه الرومـــان. وكلا هذين خارج عن غرضنا من تاريخ الجزائر.

الحضارة الرومانية والبربر:

كانت لبعض الأباطرة عناية بغرس الحضارة الرومانية بالجزائر. وأشدهم عناية بذلك ادريانس وسبتموس سويرس وقسطنطين. ويقول بعض المؤرخين: إن الرومان أكملوا حضارتهم بالجزائر حتى أصبحت لا فرق بينها وبين حضارة رومة. ويستدل لذلك بأنه زمن طريانس صار من

يحكم عليه بالنفي من رومة يمنع من افريقية لما بين الوطنين من المشابهة في الحياة والرفاهية.

ونحن لا ننازع في وجود حضارة رومانية بالجزائر شبيهة بحضارة رومة. وإنما نبحث عن هذه الحضارة هل كانت خاصة بالرومان أم ان البربر أقبلوا عليها؟

اختلفت أقوال الباحثين من المؤرخين إزاء هذه النقطة وانقسموا ثلاث فرق:

1- **فرقة تقول:** كل ما كان بافريقية الشمالية من بناءات وفلاحة وسائر وجوه العمران إنما كان من البربر، أخذوا الأساليب عن الرومان وعمروا لأنفسهم. وزعيم هذه الفرقة هو لويس بيرتران. ومما قاله بيرتران: إن البربر أقبلوا على الحضارة الرومانية أكثر مما أرادت منهم رومة، وان افريقية اللطينية لم تزل قائمة إلى يومنا هذا، لم ينسخ ظلها نور الإسلام إذ أنه إنما أتاها بدين ولم يأتها بحضارة، وأنه لم تقع معارضة بين البربر والرومان مع كون السيادة للرومان لا سياسيا ولا دينيا ولا اقتصاديا.

وهذه أقوال مخفية. وقد تعرض بيروني لردها. أما أنا فلا أطيل الفصل بنقض أمثال هذه الأقوال، وكونها صادرة عن فكر لويس بيرتران كاف لسقوطها. وإذا كنت تجهل هذا الرجل ـ رغم كونه رئيس المجمع العلمي الفرنسي ـ فهو الذي قال فيه أحد الكتاب الفرنسيين وأجاد: «**إذا أردت الحقيقة في كلام بيرتران تجدها في نقيض ما يقول**».

- **وفرقة تقول**: إن الحضارة الرومانية بالجزائر مركبة من أيدي وأذهان الرومان والبربر، وإن العنصرين كانا مشتركين في الإحساسات الدينية والسياسية والفوائد الاقتصادية، وإن رومة تداخلت في أخلاق البربر فغيرتها تغييرا معتبرا.

والتاريخ الصادق يشهد لخلاف هذا الرأي أيضا: فإن البربر ـ وإن عملوا في تكوين الحضارة الرومانية بوطنهم ـ إنما كانوا بصفة عملة مجبورين. والذين لم تستطع يد الرومان أن تنالهم بالقهر لم يعمروا شيئا في هذه الحضارة. وقد رأيت أن البربر كانوا دائما خلاف الرومان في الدين وثائرين على سياستهم، وأنهم كانوا محرومين من الفوائد الاقتصادية، وإن أخلاقهم لم تزل بحالها فإن أكثر القائمين بالثورات كانوا ممن عرفوا الحضارة الرومانية وأخذوا منها ما لا يضر بقوميتهم.

3- وفرقة ـ منها مرسيي وفرنال ـ تقول: إن البربر لم يقبلوا على الحضارة الرومانية، وإنها ذهبت بذهاب سلطانهم. وهاك أهم حجج هذه الفرقة:

1- مدة وجود الرومان بافريقية ـ على طولها ـ ولم تنقطع الثورات، ولم يفتأ البربر فيها مدافعين عن ديارهم وعوائدهم، ولم توجد أية قوة تنزع من قلوبهم حب التمتع بالاستقلال.

2- لم يوجد من البربر من أعان الرومان، وما كان من مسيزال فإنما كان انتقاما من أخيه الذي قتل له ولدين لا حبا في الرومان. ويوضح لك

ذلك أنه كان حارب الرومان مع أخيه فرموس، وأنهم لم يتجازوه على اعانته لهم على جلدون جزاء المعين المخلص.

3- عدم انتشار اللغة اللطينية بين البربر حتى آخر عصر الدور الروماني إذ كان عصر القديس أغسطين الولاة الإداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون إلى ترجمان بينهم وبين البربر.

4- لم يبق من مدنية رومة غير الخرابات والأحجار المنقوشة، ولو أثرت رومة في البربر حقيقة لبقي من حضارتها أشياء أخر غير الخرابات.

وهذه الفرقة هي ذات القول الصحيح والحجة القويمة، وهي التي صدقت التاريخ و لم تتأثر بدعاية ممجدي الرومان ومكبري شأنهم.

قال بيروني: ويمكن إسناد سقوط الحضارة الرومانية بافريقية إلى ثلاثة أسباب :

1- فساد الأخلاق الرومانية، وذلك لكثرة الملاهي والمنتزهات.

2- نقص الرومان الذين بيدهم تسيير الحضارة، وذلك ان كثرة الملاهي تضعف اليد العاملة فيقل الفلاحون والنوتيون وغيرهم.

3- وجود الديانة المسيحية، وذلك بما حدث فيها من الأحزاب المتباغضة.

قال بيروني: «والسبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية من افريقية هو عدم استقلالها يحفظ بقاءها بعد سقوط رومة» وفي هذا الكلام شيء من الإبهام. فان أراد من الاستقلال استقلال الرومان العاملين على نشرها سياسيا وإداريا فهذا لايكفي لحفظها من السقوط لأن الجنس

الأصلي بهذا الوطن غير مقبل عليها إقبالا يحفظها بعد الرومان. فان قال: أن الرومان لو استقلوا بافريقية لبقيت لهم سلطتهم وحضارتهم، ولم يضرهم ما يصيب الإمبراطورية بروما قلنا أن سلوكهم مع الجنس الأصلي لايضمن بقاء سلطتهم. بل لو استقلوا عن رومة لتعجل سقوطها. وهذا بونيفاس لما أراد الاستقلال احتاج إلى الاستعانة بالوندال. على أن للدول مثل الأشخاص أعمارا تنتهي بانتهاء آجال طالت أو قصرت.

وإن أراد من استقلال الحضارة اللطينية بافريقية الشمالية ان تكون بيد الجنس البربري فصحيح ان تبقى بعد سقوط رومة كما بقيت حضارة قرطاجنة بعد سقوطها. ولكن الرومان ليس غرضهم من الاستيلاء على الشمال الإفريقي نشر حضارتهم به حتى يتخذوا الوسائل اللازمة لقبول البربر إياها. وإنما كان غرضهم توسيع دائرة نفوذ رومة، وتوزيع أبنائها على المستعمرات لكسب الثروة التي عزت عليهم بوطنهم، وجلب نتائج تلك المستعمرات إلى ايطاليا القاحلة.

واذن نقول: إن السبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية بالجزائر هو عدم إقبال البربر عليها، وليس عدم إقبالهم عليها لآفة في طباعهم. فإنهم أقبلوا على حضارة قرطاجنة قبلها. وبقوا محافظين عليها حتى جاءهم العرب بحضارة سامية حديثة جرت ذيل النسيان على حضارة سامية قديمة. وعدم إقبالهم على حضارة رومة يرجع إلى الأسباب الآتية:

1- ترفع الرومان عن مخالطتهم. قال بيروني: **«وكان الرومان لايخرجون عن وظيفتهم السياسة والإدارية، ويترفعون عن مخالطة**

البربر. ومن البربر من كانوا يتجنسون بالجنسية الرومانية، ولكنهم يجدون ـ بعد تجنسهم ـ الرومان متمسكين بترفهم عن مخالطتهم».

2- سياسة الضغط التي سلكها الرومان مع البربر، وذلك بانتزاع أراضيهم وسلب حقوقهم وجبرهم على العمل في أرضهم لفائدة غيرهم. فالبربر الذين تحت الاستعباد الروماني ذهبت مواهبهم في خدمة الرومان، والذين سلموا من ذلك الاستعباد نفروا من كل شيء روماني.

3- إهمال الرومان لبربر، فلم يعتنوا ببث الأخلاق الفاضلة بينهم وتحويل عوائدهم. اذ كان غرضهم من الاستيلاء الفوز بنتائج الوطن وخيراته.

ومن ههنا نعلم ان البربر لم يمتزجوا بالرومان ويندمجوا فيهم. ولكن لاننكر وجود شواذ وقذهم الحضارة الرومانية وتأثروا بساداتهم في لغتهم وآدابهم ونظام حياتهم. غير ان ذلك لايعد شيئا بالنظر لطول إقامة الرومان بينهم. بل ان طول إقامتهم بالوطن البربري أثر فيهم أنفسهم حتى صاروا متميزين عن إخوانهم برومة .

والخلاصة ان استيلاء رومة على الجزائر إنما أفاد الرومان ولم يفد البربر لاعلميا ولا أخلاقيا ولا اقتصاديا إلا عرضا. بل انه بعكس ذلك أضر بهم. ولولا إزعاج رومة لهم وإسقاطها لدولهم لكان يكفيهم ما أخذوه عن قرطاجنة. وفي مواهبهم الفطرية ما يهيؤهم لترقيته. فان البربر من أغنى الأمم رجالا في صفاء الأذهان وقوة الجنان.

ذكر أباطرة رومة مدة الاستيلاء على الجزائر:

لم تزل رومة منذ تأسيسها عاصمة الدولة الرومانية إلى أن جاء قسطنطين فاختار ان ينقل سرير الملك إلى بيزنطة. فانتقل اليها سنة (**330**) وكان له أبناء اقتسموا المملكة الرومانية بعد وفاته. ثم مات منهم اثنان فاستقل الثالث بالمملكة.

ولم تزل المملكة الرومانية بين انقسام واجتماع حتى سنة (**395**) حيث تم في هذه السنة انفصال العاصمة الشرقية عن العاصمة الغربية.

والجزائر لم تزل تابعة لرومة العاصمة الغربية الا سنة واحدة تبعت فيها القسطنطينية العاصمة الشرقية.

وهاك أسماء أباطرة هذه المملكة في جدول استخرجته من ابن خلدون (**2**: **199**–**216**) وقبل أن أرسم لك الجدول أقدم بين يديك ملاحظات:

1– ذكر ابن خلدون اختلافا في أسماء بعض الأباطرة ومدهم. ونحن نقتصر من ذلك على ماكان متحدا أو قريبا مما في كتب الإفرنج. لان ذلك التاريخ الهام قد عبثت به الأيام فكثر فيه التحريف خصوصا في الاعلام.

2– اقتصر ابن خلدون على ذكر مدة أولئك الأباطرة. ونحن نتمم الجدول ببيان ابتداء ولاية كل واحد منهم ونهايتها بالتاريخ الميلادي مأخوذا من كتب الإفرنج. وما يوجد من اختلاف في مدة ولاية بعض الأباطرة بين ابن خلدون وغيره فذلك مما لا تخلو منه التواريخ.

3- قد يكون ما نثبته عن ابن خلدون من الاعلام بعيدا عما في غيره. فننبه عليه في تعاليق. وقد يظهر لنا ان ما فيه محرف أو مصحف فلا نثبته في الأصل ولا نهمل التنبيه عليه في التعاليق. وقد يكون بعض التعاليق لفائدة تاريخية.

جدول الأباطرة

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
قيصر اكتيبيان		ق 27	14م	1
طباريش	23	14م	37	2
غانيس	4	37	41	3
قلوديش	14	41	54	
نيرون	14	54	68	4
غلبان	ش9	68	69	
أتون	ش3	69	69	5
أبطالس	ش8	69	69	6
اسباشيانس	9	69	79	7
طيطش	2	79	81	
دومتيان	15	81	96	8
نربا	2	96	98	9

الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
طريانس	17	98	117	
اندريانوس	21	117	138	10
انطونيس	22	138	161	
أورالیانس	19	161	178	
كمودة	13	178	192	
برطانوس	ش3	192		11
يولياس	ش2		193	12
سورس	18	193	211	
اقطونيس	6	211	217	13
مقرين	1	217	218	14
انطونيش	4	218	222	15
اسكندروس	13	222	235	16

(1) لم يذكر مدته، وقال: ولد المسيح لاثنتين وأربعين من ولايته. وغيره يسميه أكتافيوس، ويقول: ولي سنة 27ق.م وهو صحيح في نفسه، ورواية ابن خلدون معتد فيها بما قبل إمبراطوريته حيث انه كان احد الرجال الثلاثة منذ سنة 42 ق.م (2) غيره يدعوه طيبريوس (3) غيره يدعوه قليغولا (4) اضطهد المسيحية، وحرق رومة تلذذا بمنظر الحريق ومات في شهر يونيه (5) فيه أنون بالنون. وهو تصحيف (6) غيره يدعوه ويتليوس (7) غيره يدعوه وسبسيان (8) فيه دومريان بالراء. وهو تحريف (9) فيه برما. وهو تحريف وتصحيف (10) في غيره أدريانوس بإسقاط النون (11) قال: في عاشرة ملكه ظهر أردشير بن بابك أول ملوك الدولة الساسانية من دول الفرس (12) في غيره برطينكس (13) في غيره سبتمس سويرس (14) في غيره قراقلا (15) فيه مفريق. وهو تصحيف وتحريف (16) المستفاد من غيره ان علمه الشخصي بسيانس، وبعد إمبراطوريته لقب نفسه «مرقس أريل أنطونين».

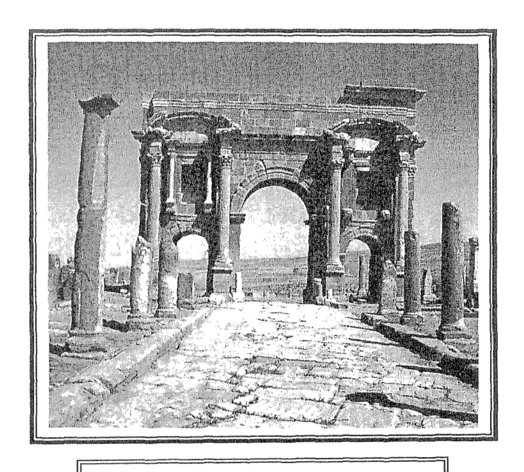
الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق	الامبراطور	مدته	ولايته	نهايته	تعليق
مخشميان	3	235	238	1	قلوديس	2	268	270	7
يونيوس	ش3			2	أورياليانس	6	270	274	
غرديانوس	6	238	244	3	طافسوس	ش9	274		8
	6	244	249	4		7	276	282	9
فلفش	2	249	251	5	فروفش	21	284	305	10
دقيانوس			260		ديقلادياوس				11
أورليوس	15	260	268	6	مقسيمانوس		305	311	12
غلينوس					غلاريس				

(1) دعى في غيره مكسمينس (2) حكى في اسمه قولين آخرين هما: لوكش، بلينايوس. ولم أقف عليه في غيره (3) هذا حفيد غرديانس الأكبر الذي بويع بقرطاجنة بعد الكسندر سويسرس المسمى عنده اسكندروس. ولم يذكر غرديانس الجد (4) في غيره فليبس بالباء (5) قال: في أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف. وفي غيره فليبس بالباء الملك بقي بعد وفاته شاغرا مدة عامين (6)لم يذكر بين دقيانوس وقلوديس غير إمبراطورية واحد واختلف نقله في اسمه وفي مدته: سماه بالإسمين الذين في أصل الجدول وبغيرهما مما لا يختلف عنهما إلا بزيادة والحروف ونقصها. وذكر في مدته روايات منها ما في الأصل. وفي غيره والريانس ملك بعد شغور الكرسي عامين، ولتخذ إبنه غاليانس شريكا في الحكم. فلما توفي استقل ابنه. ومن هذا يظهر ان أورليوس هو اُريانس، وإن غلينوس هو غاليانس، وإنهما شخصان، وإن ما في الأصل من كون مدة غلينوس 15 هو مجموع مدة الأب وإبنه (7) فيه فلوديس. وهو تصحيف (8) عند غيره تاكيتس (9) عند غيره بباءين بدل الفاءين، وملكه غير متصل بملك أورليانس. وجاء بعده خارس ثم هلك وجاء ديوقلطيانس. وقد أهمل ابن خلدون خارس (10) عند غيره ديوقلطيانس (11) حكي في مدته سنة وسبع سنين. ثم ذكر مخشميان، وانه كان شريك ديوقريان، وإن ديوقاريان هو ديوقلاديانوس. وعليه فمقسيمانس هو مخشيمان، وسياق التاريخ يؤيده. وفي غيره يدعى مكسميانس (12) لم يذكر مدته.

الامبراطور	المدة	الولاية	النهاية	التعليق	الامبراطور	المدة	الولاية	النهاية	التعليق
قسطنطين	50	312	337	1	واليس	4	375	378	
قسطوس		337	350	2	واليطينوس	12	364	375	5
قسطنش	24	337	360	3	أغراديانوس	3	378	83	6
يوليانوش	2	360	363		ثاداسيوس	17	392	95	7
يوبينانوس	1	363	364	4	أنوريش	15	395	423	8

---

(1) كان والده قسطنطيوس خلورس أشركته ديوقلطيانس في الحكم، وجعله على بلاد غاليا واسبانيا وموريطانيا. فلما توفي سنة 306 خلفه إبنه هذا في منصبه. ثم حارب منافسيه. وملك رومة سنة 312 والمدة التي ذكرها ابن خلدون بعيدة عما في هذا البيان (2) عند غيره قسطنط. وهو ابن قسطنطين (3) عند غيره قسطنطيوس. وهو ابن قسطنطين كان على القسطنطينية. وبعد وفاة أخيه استقل بملك القسطنطيية وروهة (4) فيه يوشانوس. وهو تصحيف (5) يدعى عند غيره ولنتانس، وهو أخو واليس، وتولى الملك قبله (6) عند غيره غراطيانس. وثار عليه رجل يدعى مكسيمس. وملك ايطاليا حتى قتله ثأودوسيوس سنة 388 (7) قال في الخامسة عشر من ملكه ظهر أصحاب الكهف. وعنده يدعى ثأودوسيوس، كان وزيرا كافلا لولنتنيانس الثاني إمبراطور المشرق الذي تولى سنة 378 وبعد قتل مكسيمس جعل مكفوله على بلاد المغرب، وبقي هو بالقسطنطينية. وفي سنة 392 قتل ولنتنيانس الثاني، ونصب مكانه حاضنه ثأودوسيوس. والمدة التي ذكرها ابن خلدون صحيحة بالنظر لابتدء وزارته اذ كان في الحقيقة هو إمبراطور (8) عند غيره هنوريوس، ومدته أكثر مما ذكر ابن خلدون. وبعد وفاته نصب مكانه ابن أخته باسم ولنتنيانس الثالث، وفي مدته دخلت الجزائر في يد الوندال.

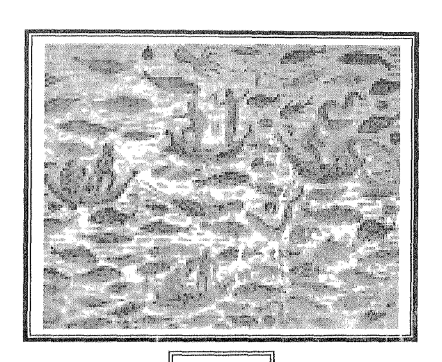


الممر والقوس الذي نسب إلى طريانس

بنيت هذه الابنية في عهد طريانس



موزاييك "الجميلة"



الصيد

الباب السابع

في ذكرى الوندال ومدل أمرهم

تمهيد:

القوط (**ويقال لهم أيضا: الغوث – LES GOTHS**) أمة شديدة البأس صعبة المراس. قال ابن خلدون: «**كانوا يعرفون في الزمن القديم بالسيسيين، نسبة إلى الأرض التي كانوا يعمرونها بالمشرق، فيما بين الفرس واليونان**»[1] قال: وكانت لهم حروب مع الملوك السريانيين من لدن عهد ابراهيم الخليل عليه السلام (**كان أواخر الألف الثالث قبل الميلاد**) ثم مع الفرس ثم قهرهم الاسكندر المقدوني وأخضعهم فيمن أخضع من الأمم. ومن ذلك الحين اختلطوا بالروم واليونان. هذا ملخص كلامه.

وقال غروت: كانوا في القرن الثالث (**ق.م**) على شواطئ بحر البلطيق. ثم انتشروا في جنوب جرمانيا وتعددت شعوبهم فاشتهرت منها شعوب **هيرول (HERULES)** وسويف **(SUEVES)** والان **(ALAINS)** وبرغند **(BURGONDE)** ووندال **(VANDALES)**

---

[1] ج2 ص234.

قال: وفي النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد تغلبوا على بلاد مقدونيا وبلاد الإغريق. وانتشروا على ضفاف نهر الدنوب[1] بعضهم جنوبه: ويسمون القوط الشرقيين، وبعضهم شماله، ويسمون القوط الغربيين.

وفي سنة (**376**) على عهد الامبراطور واليس هجم الهون من التتر على القوط الشرقيين. فاجتازوا نهر الدنوب. والتحقوا بإخوانهم الغربيين. وهجم الجميع على المملكة الرومانية. واستوطنوا تراقية بإذن من الامبراطور واليس. ومن هذا الحين انفتحت لهم الطرق في المملكة الرومانية ففي سنة (**382**) كلفهم ثأودوسيوس وزير ولنتنيانس الثاني بحراسة مجار نهر الدنوب، وملكهم ولايتين هنالك، ولما ولي إبنه هنوريوس على رومة، وكان صغير السن، استوزر له ستيليقون الوندالي. وكان هذا الوزير متزوجا من بنات أباطرة الرومان. وفي أيام وزارته اجتازت طوائف من القوط حدود ايطاليا. فكلفه هنوريوس بحربهم. فجهز الجيوش، وكانت جنود مرابطة على نهر الرين لحفظ الحدود، فاستدعاها، واستعان بها على حرب ايطاليا من ناحية الرين بقيت من غير حراسة، فاجتاز بها من شعوب القوط السويف ولألان والوندال، وانتشروا بالغيا. وذلك أول يناير سنة (**407**).

---

[1] منبع هذا النهر من الغابة الكحلاء غربي ألمانيا، ويمر جنوب ألمانيا ثم بالنمسا والمجر، ويفصل بين صربيا والمجر ورومانيا، وبين رومانيا وبلغاريا وروسيا ويصب بالبحر الأسود.

وكان ألريك[1] قد حارب بقومه من القوط الغربيين أرقا ديوس إمبراطور القسطنطينية. وتم بينهم الصلح على ان يمنح الامبراطور ألريك ولاية اليريا[2]. ولما اصطلح مع إمبراطور المشرق أخذ في الغارات على المملكة الغربية، ودافعه ستيليقون. ولما أعياه أمره عرض عليه رئاسة الجند الروماني على أن يكف غارات القوط. وكان من الرومان من لم يرض سياسة ستيليقون فقتلوه سنة (**408**).

غضب ألريك لقتل ستيليقون. فتقدم إلى رومة. وحاصرها حصارا قضى على حياة خلق كثير من أهلها. وأخيرا أفرج عنها عوض غرامة كبيرة أخذها. ثم عاد إليها سنة (**409**) فخضعت له. وتدخل في شأن الإمبراطورية. فأسقط هنوريوس لأنه لم يسند اليه رئاسة الجند. ونصب مكانه شخصا يدعى أتال. ثم نزل هنوريوس على رغبته. فأعاد عليه كرسيه وعزل أتال. وما زال ألريك على عظمته حتى طمع في فتح افريقية سنة (**410**) ولكن الزوابع أغرقت أسطوله. فعاد إلى ايطاليا وتوفي سنة (**411**).

وكان لالريك صهر يدعى اتولف. فقربه هنوريوس وزوجه أخته بلاسيدية وسماه بطريقا. كل ذلك ليعينه على أبعاد أمم القوط عن ايطاليا. فانتقل اتولف بالقوط الغربيين إلى الغاليا. وكان بها السويف ولألان والوندال. فأخرجهم منها إلى اسبانيا. وفي سنة (**415**) قتل اتولف وخلفه

---

[1] سماه ابن خلدون الطرك.

[2] اليريا: وطن جبلي على الشاطئ الشرقي من بحر الادرياتيك.

في ملكه وليا. فتوسع في اسبانيا، وأخرج الوندال إلى نواحي غرناطة وجيان من الجنوب الاسباني. فاستقروا بذلك القسم. ونسب إليهم. فصار يدعى: «**وندلوسيا**» وقد صقلته العرب فغيرته إلى كلمة أندلس.

أصل الوندال:

قد رأيت من سياقة تاريخ الوندال عند الإفرنج أنهم شعب من القوط. وذكر ابن خلدون ان القوط من ماغوغ ابن يافث.

ورواية الإفرنج هذه هي الصحيحة عندي لما فيها من الشرح والبيان لأحوال الوندال إلى أن استقروا بأندلس. وذلك يدل على فضل اطلاعهم في هذه المسألة. فيترجح الأخذ بروايتهم.

وهناك روايتان أخريان حكاهما ابن خلدون:

الأولى أنهم من الإغريق. وهم أيضا من يافث. وهاك عبارته: «**ولحق بالأندلس ثلاث طوائف من الغريقيين فاقتسموا ملكها. وهم الأبيون والشوانيون والفنداش. وباسم فندلس سميت الأندلس**» وعبر عن هؤلاء الطوائف بالطوالع.

الرواية الثانية حكاها بقوله: «**وقد يقال ان هؤلاء الطوالع كلهم من ولد طوال بن يافث، وليسوا من الغريقيين**»[1].

[1] ج2 ص235 وماذكره باسم طوال ذكره في تفصيل أنساب العالم باسم قطوبال، وذكره في الكلام على أنساب اليونان والروم باسم طوبال.

وفي كلتا روايته نظر: وأما الأولى فيبطلها ان الرومان كانوا يطلقون على الوندال وغيرهم من أمم القوط اسم المتوحشين. ولم يعهد منهم هذا إطلاق في الإغريق. كيف وهم أساتذتهم في العلوم والحضارة؟ ولعل من أن القوط اختلطوا بالروم واليونان منذ عهد الاسكندر. فاختلط على صاحب الرواية بعض شعوب القوط بشعوب الإغريق.

وأما الثانية فقد أشار إلى ضعفها بقوله وقد يقال. ووجه سقوطها ان أبناء قطوبال استوطنوا الأندلس بعد الطوفان على ما ذكره في موضع آخر، وتقدمت الإشارة اليه في الباب الثاني. وهؤلاء الطوالع إنما نزلوا الأندلس أوائل القرن الخامس للميلاد كما تقدم في سياقة تاريخ الإفرنج. وتدل عليه أخبار ابن خلدون.

ومما يرشح الأخذ برواية الإفرنج أن أسماء الطوالع عند ابن خلدون قريبة من أسماء الشعوب التي صرح الإفرنج أنهم من القوط: فالفندلس هم الوندال، والأبيون يظهر أنهم ألان صحفت النون باء، والشوانيون يظهر أنهم السويف، ووضع الشين مكان السين من الشائع، فابن خلدون نفسه عبر عن الوندال مرة باسم فندلش وأخرى باسم فندلس، والفاء عربت باء فيما يظهر ولكنها صحفت في الطبع نونا، وكثيرا ما يعرب ابن خلدون حرف (v) باء.

والخلاصة ان الوندال شعبة من القوط يدل على ذلك سياقة تاريخهم، واتحادهم في الأخلاق حتى أطلق الرومان على الجميع اسم المتوحشين، واتحادهم أيضا في الدين واللغة.

وقد بقي اسم القوط لبعض شعوب هذه الأمة. وهم الذين أسسوا دولتهم بالغاليا إلى أن سقطت سنة (**507**) وانتقلت إلى الأندلس وبقيت هنالك إلى أن قضى عليها طارق بن زياد وموسى ابن نصير سنة (**711**).

أما الوندال فإنهم أسسوا دولتهم بافريقية وبقوا بها حتى قضى عليهم الروم البيزنطيون.

ديانة الوندال:

كان الوندال ـ كبقية القوط ـ وثنيين يعبدون الشمس والقمر والأرض وغرهن من آلهتهم حتى بلغتهم دعوة المسيحية أواخر القرن الرابع للميلاد.

كانت المسيحية قد انقسم إتباعها إلى مذاهب متنافرة متباغضة. ومن بين تلك المذاهب مذهب أريوس كثير المخالفة له. فسخطه وطرده. وقال في موضع آخر: س. وكان أريوس هذا لعهد ديوقلطيانس وأدرك دولة قسطنطين. قال ابن خلدون: وهو كبير تلاميذه ماربطرس بطرك الإسكندرية. وكان: «**وكان يذهب إلى حدوث الابن ـ عيسى عليه السلام ـ وانه إنما خلق الخلق بتفويض الأب إليه في ذالك**» ولعل المراد من الخلق ما جاء في سورة المائدة من قوله تعإلى : «**وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فيكون طائرا بإذني**» وإذن تكون عقيدة أريوس في عيسى مثل عقيدة الإسلام.

بعد وفاة ماربطرس انتصب اسكندروس مكانه بطركا. فأشاد بكفر أريوس. وكتب بذلك إلى جميع النواحي. فبلغ الخبر قسطنطين. فأحضر أسكندروس وأريوس في أساقفة آخرين. وتناظروا أمامه. فمال إلى أسكندروس. واذن له أن يشيد بكفر أريوس. وما أقبح تداخل القوة المادية في القوة الفكرية! وما اعجز فؤسها عن إيجاد قبر يعفي وجودها!

حاول أسكندروس إن يعفي مقاله أريوس فانتشرت على الرغم منه ومن قسطنطين حتى أن كثيرا من الملوك اخذوا بها وانتصروا لها. قال ابن خلدون: «**وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينة وإنطاكية ومصر والإسكندرية**».

بلغت المسيحية في أواسط القرن الرابع على القوط على يد إتباع أريوس. وكان الوندال منهم كلهم أريويين. ويقيمون مراسم ديانتهم باللغة القوطية لا باللطينية. وكانوا على غاية من التعصب لمذهبهم حتى أن جل ما يجده المؤرخ من أحاديث الوندال بافريقية هي اضطهاداتهم للارثذوكس. ومما زاد في تعصبهم واضطهادهم لغيرهم أن ملوك الارثذوكس في نواح أخرى كانوا يعذبون الاريويين أيضا. كان الوندال ينتقمون لإخوانهم في الدين من أعدائهم الذين تحت سلطانهم. وليست يد السياسة ببعيدة عن تلك الاضطهادات.

استيلاء الوندال على الجزائر:

ظهرت أمة الهون من التتر وأمم القوط بأروبا. وأخذت تلك الأمم تنقص الإمبراطورية الرومانية من أطرافها حتى بلغوا قلبها، وصاروا يتحكمون في تنصيب الامبراطور. فأصابت أروبا والمملكة الرومانية منهم جوائح الفتن وارتفع الأمن وذهب العمران.

والجزائر ـ كبقية الشمال الإفريقي ـ كانت في هرج من أجل تنافس الأحزاب المسيحية وثورات بعض المتطلعين إلى الاستقلال من البربر والرومان. ولكنها لم تزل أحسن حالا من أوروبا وانعم بالا منها.

ولما استقر الوندال بالأندلس اتخذوا سفنا لخوض لجج البحر الأبيض المتوسط. فكانوا ينظرون إلى شمال افريقية من كثب. ومع علمهم بضعف رومة وجرأتهم على ولاياتها بأروبا لم يجرأوا على افريقية. فبقوا ينتظرون سنوح الفرصة لهم بفتحها، حتى وجدوا في الكونت بونيفاس تحقيقا لأمانيهم وإنجازا لآمالهم.

في سنة (**422**) سمي بونيفاس واليا على افريقية. وفي سنة (**423**) توفي هنوريوس، وتطلع إلى خلافته أناس، ووقعت رومة لذلك في هرج، وكانت بيلاسيدية أخت هنوريوس بالقسطنطينية، ومعها ولدها من قسطانس قائد هنوريوس. تزوجته بعد قتل أتولف. وتداخل إمبراطور القسطنطينية ثأدوسيوس بن ارقاديوس أخي هنوريوس في عرش رومة. فنصب به ابن عمته بلاسيدية باسم ولنتنيانس الثالث تحت كفاله أمه. وذلك سنة (**424**).

لما أفضى الأمر إلى بلاسيدية فوضت لبونيفاس في التصرف. فخدم دولته خدمته صادقة، وصار من عظماء الحكومة. فحسده لذلك بعض منافسيه. وقام بدور السعاية به مع بلاسيدية قائد عام يدعى ايتيوس. واخذ يدس عليه الدسائس معها حتى أصغت إليه وعزلت بونيفاس من ولايته سنة (**427**).

كانت المصلحة الشخصية اغلب على بونيفاس من المصلحة العامة. فلم يتمثل أمر العزل، ولم يبال بما يصيب دولته من شبعه عليها وهي على فراش الاحتضار. وصممت الإمبراطورة على عزله. وعززت أمرها بالقوة العسكرية. فحاربها بونيفاس، وهزم جنودها. فعادت لحربه في السنة التالية. ووجد هو موقفه حرجا، البربر أهل الوطن ضده، ودولته تحاربه، وإراداته أبت من الامتثال للعزال. فأراد أن يستعين على الخلاص من الأزمة بالأجنبي. فاستنجد الوندال على أن يمنحهم غرب المملكة الرومانية بافريقية إلى وادي مساغا ـ ويسلموا له في شرق هذه المملكة، يبقى به مستقلا[1] فأسرع الوندال الإجابة.

وفي سنة (**429**) نزل الوندال والسويف والألان وغيرهم من أمم القوط بموريطانيا الطنجية. وانبثوا في الوطن البربري كالجراد المنتشر. قال مرسيي: «**وكان عددهم ثمانين ألفا المقاتلون منهم خمسون ألفا**».

---

[1] أين الثرى من الثريا؟ أين بونيفاس من خالد بن الوليد(ض) الذي كان قائدا عاما وغازيا منصورا، فلما عزله عمر (ض) امتثل ورجع تحت لواء أبي عبيدة جنديا مخلصا؟.

وفي هذه المدة كان القديس أغسطين يسعى في الصلح بين بونيفاس والإمبراطورة. فأكدت أخيرا غلطها وتحقيق الدسيسة. فرضيت عنه وأعادت عليه منصبه، ولكن بعد نزول الوندال بموريطانيا.

ولما عاد بونيفاس إلى منصبه ندم على اتفاقه مع الوندال فأرسل إليهم أن عودوا إلى الأندلس، وأخرجوا من المملكة الرومانية ! فلم يسرع الوندال إلى إجابته هذه المرة، بل تمادوا في سيرهم. وعدوا أمر بونيفاس هذا ناقضا لاتفاقهم معه. فلم يقفوا عند حد وادي المثل العربي: «**لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت**».

ولما رأى بونيفاس تقدم الوندال في الوطن تهيأ لحربهم وجمع جموعه. فالتقى الفريقان قرب قالمة. ودارت الدائرة على بونيفاس، ففر إلى بونة، وتحصن بها. وذلك سنة (**430**).

وبعد فراره قسم الوندال جنودهم قسمين: قسما تركوه للاستيلاء على نوميديا، وآخر وجهوه لحصار بونة. فكان الأول يفتح مدن نوميديا بمساعدة أتباع دونتوس، ويبطش بالأرثذوكس وكان الثاني يجمع جثث القتلى في خنادق حول المدينة ليفرق من منظرها المحصورون.

وفي سنة (**31**) أرسلت بيلاسيدية نجدة إلى بونيفاس تشجع بها، وخرج لقتال الوندال. ولكنه انهزم أمامهم. فدخلوا المدينة، ونهبوها، وحرقوها. وايس بونيفاس من المقاومة، فترك الوطن لفاتيحه، وذهب إلى الإمبراطورة، فأكرمته، ورفعت منزلته، ولم تؤاخذه على خسارة وطن هو حياة رومة لعلمها بأن لها يدا في ذلك بإصغائها للوشاة.

وبفتح بونة وذهاب بونيفاس تم للوندال فتح الوطن الجزائري **(موريطانيا ونوميديا)** وذلك في مدة عامين.

ويجب ههنا أن نتذكر سير الاستيلاء الروماني على الجزائر. فقد تقدم أنهم تعرفوا إلى هذا الوطن سنة **(213) ق.م** وشرعوا في تحقيق استيلائهم عليه من سنة **(46) ق.م** إلى سنة **(42)** للميلاد. أما الوندال فلم تتقدم لهم معرفة به، ولم يمكثوا في فتحه غير عامين. وهذا مما يبعث على البحث في سبب الفرق الكبير بين سير الاستيلاء ين.

لايصح أن ترجع سرعة الاحتلال الثاني وبطء الأول إلى تفوق الوندال على الرومان في السياسة والجندية. فان الواقع يشهد لخلاف ذلك. فلنبحث عن العلة في غير القوة الحربية والحنكة السياسية.

يقول بعض المؤرخين: أن الذي سهل على الوندال احتلال الوطن البربري وقرب أمده هو إتفاقهم والبربر طبعا ودينا. ذلك بأن طبع الجميع حب الثورات وهدم الحضارات، ودين الجميع كان على خلاف دين الرومان الارثذوكس. وليس ذلك عندي بصحيح. فان البربر إنما كانت ثوراتهم حبا في الاستقلال وتطهير هوائهم من سموم الأنفاس الأجنبية، وكانوا أكثرهم وثنيين والمسيحيون منهم كانوا غير متفقين مذهبا مع الوندال.

ومن المؤرخين من يعترف بوجود فروق بين البربر والوندال من شأنها ان توجد الكراهية والبغضاء بين الامتين. وهذه الفروق هي: اللغة،

القوانين، الأخلاق، العوائد، اللون. ويعلل هذا المؤرخ سرعة احتلال الوندال بأمرين: انتشار الفوضى في الوطن، وحسن سياسة القائد الوندالي.

وليس هذا بصحيح عندي أيضا. أما الفوضى البربرية فإنما هي من حيث فقد أمير عام يلتفون حوله ،لان الرجال الذين يصلحون لذلك قد قضت عليهم رومة، ولايمنع ذلك من وجود رؤساء على عشائر يقومون بالدفاع عن وطنهم وتعطيل سير الوندال به، وأما حسن سياسة القائد الوندالي فليست هي التي استمالت اليه البربر، وانما نفعته في جمع كلمة من تحت رايته من قومه وتثبيت قدم دولته بعد الاحتلال.

وعندي أن لاسبب لسرعة احتلال الوندال غير مساعدة البربر لهم. وعلة مساعدتهم أنهم كانوا ينفرون من سلطة رومة، ويعشقون الاستقلال. وقد حاولوا مرارا أن يبلغوا مرادهم من طرد الرومان والاستقلال بوطنهم فلم ينجحوا. فلما وجدوا في الوندال نصيرا على طرد الرومان أعانوهم مكتفين بهذا الشطر من غايتهم، اذ رأوا أنهم عاجزون عن الشطر الآخر وهو الاستقلال. فاستبدلوا باحتلال، تحقيقا لأحد المقصدين، وتلك قاعدة ارتكاب أخف الضررين.

تأسيس حكومة الوندال:

استولى الوندال على نوميديا وما يليها غربا. واتخذوا بونة عاصمة مملكتهم. وأيست رومة من إرجاع ذلك الوطن بالحرب، لما كانت عليه من الاختلال والانحلال. ورأى الامبراطور أن يحافظ على ما بقي له من

تراب افريقية. فأرسل رسولا إلى جنسريق قائد الوندال وملكهم، ليفاوضه في الصلح. وفي سنة (35) تم الاتفاق بين الفريقين حسبما يلي:

1- يدفع أمير الوندال لامبراطور رومة غرامة سنوية.

2- لايتجاوز ملكه حدود نوميديا شرقا.

3- يعطي ولده هنريق رهنا على الوفاء.

4- يعمل بهذه المعاهدة لمدة ثلاثين سنة.

قضت هذه المعاهدة ببقاء حق إمبراطور رومة في الجزائر وقبول جنسريق لأن يكون تحت سيادته. فأظهر له حسن الولاء، وحافظ على مواد المعاهدة. وبعد أربع سنوات وثق الامبراطور بإخلاصه، فسرح له ولده. وذلك ما كان ينتظره جنسريق لتوسيع مملكته بفتح البروقنصلية **(تونس)**.

لم يبق لجنسريق بعد رجوع ولده ما يحمله على احترام المعاهدة. واتفق إن كان الرومان إذ ذاك مشتغلين بحرب القوط. فلم يهمل هذه الفرصة. وذهب إلى قرطاجنة، ففتحها من غير عناء. واستولى على البروقنصلية. وتم له بذلك الاستيلاء على تونس والجزائر ومراكش وذلك سنة (439).

لم يستطع ولنتنيانس الثالث أن ينتقم من جنسريق لتعديه على المعاهدة. وقديما عد الرومان مدافعة القرطاجنيين لهجوم مصينيسا خرقا لمعاهدة (201) ق.م وهكذا ترى القوي يعد مدافعة الضعيف عن حقه تعديا، والضعيف يداس حقه فيتظاهر بالحلم والسماح.

رأى ولنتنيانس ضعفه أمام قوة جنسريق. فلم يحتج بالمعاهدة التي بينهما. واكتفى بتجديد معاهدة أخرى معه. فوقع الاتفاق بينهما بقرطاجنة سنة (42) على ان يسلم الامبراطور للأمير من سرت شرقا إلى تبسة وشق بنارية وباجة غربا، ويسلم الأمير للإمبراطور بقية نوميديا وجميع أقسام موريطانيا.

قضت هذه المعاهدة بعود الجزائر إلى السلطة الرومانية. ولكنها سلطة ضعيفة، وقصيرة العمر، اذ قضى عليها جنسريق سنة (55) وما قبل هذه المعاهدة الا بنية القضاء عليها، حيث أنه استبدل وطنا هادئا غنيا لسلامته من جوائح الثورات بوطن قضى على عمرانه تعدد الفتن وأنهكه تهاطل الأرزاء والمحن.

في سنة (450) توفيت بلاسيدية. وبقيت المملكة بيد ابنها ولنتنيانس. فعبث بها عبثا كبيرا. وأخيرا قتل سنة (54) وانتصب قاتله مكانه. وزاد ذلك في اضطراب أحوال رومة. وكان جنسريق يراقب أحوال أروبا. فرأى في اختلال رومة ما شجعه على غزوها. فجهز جيوشه من الوندال والبربر. وقصدها ففتحها سنة (55) من غير عناء ولاتعب. وسرح جنوده فيها للنهب أربعة عشر يوما. ثم عاد إلى قرطاجنة ظافرا منصورا يحمل غنائم جليلة واسارى من أعيان الرومان.

من ذلك الحين انتهت بقايا سيادة الرومان على شمال افريقية. واستقل به الوندال. وعدوا أنفسهم سادة هذا الوطن. فكانوا يؤرخون

بأيام ملوكهم. ولم يقبل الملوك القابا تشريفية من رومة لئلا يعدوا كموظفين رومانيين، وصاروا يرسمون صورهم على النقود.

وكانت المملكة الشرقية القوية تنظر إلى أختها أو أمها المملكة الغربية بعين الحنان والشفقة. فأراد امبراطورها ان يتداخل في شؤون الوندال تارة لفائدة رومة وأخرى لفائدة الارثذوكس. ولكن ملوك الوندال كانوا يرفضون تداخله بكل شمم.

والخلاصة أن جنسريق كان في بداية استيلائه يتظاهر باحترام دولة الرومان. وبعد رجوعه من رومة رفع غشاء السيادة الرومانية. وبقي يلين القول لامبراطور القسطنطينية لقوته. فلما جاء خلفاؤه تمموا استقلالهم، وطهروه من شائبة أي تداخل أجنبي.

وقد علمت ان استيلائهم على الجزائر فيما بين سنتي (**30–42**) كان تحت سيادة الرومان الاسمية. وعادت الجزائر إلى الرومان من سنة (**42**) إلى سنة (**455**) ومن هذه السنة استقل الوندال بالجزائر وغيرها. وجعلوا عاصمتهم قرطاجنة.

نظام دولة الوندال:

بعدما استقر جنسريق ببونة أخذ ينظم شؤونه ويستأصل جرثومة الخلاف عليه. كان له أخ يدعى غندريك، وكان هو رئيس الوندال بالأندلس. فقتله هنالك، وأودع زوجته وأبناءه السجن. فلما حل ببونة قتل الجميع، وتتبع أخيه حتى أخضعهم. واعتنى بالجندية والبحرية. فاتخذ

جيشا من الوندال والبربر يشتمل على ثمانين فرقة. وكان يستميل البربر، ويتقي كل ما من شأنه ان يثيرهم عليه.

وإذا اضطر لمحاربتهم لم يحاربهم الا بالوندال الحقيقيين، لأنهم أكثر إخلاصا له، وأشد قوة على الحرب. وكان يمنح الجيش من الغنائم. واتخذ أسطولا عظيما خاض به عباب البحر الأبيض المتوسط، وملك به أهم جزره، وأدهش به الايطاليين. قال مرسيي: وقد وجد في هذا الأسطول فائدتين: الغنائم التي كان يجلبها بالقرصنة، وتمرين الجنود على الحرب. وأرى فائدة ثالثة وهي إشغال البربر من جيشه بالقرصنة حتى لايثوروا عليه. وقد غفل خلفاؤه عن هذه الفائدة، فلم يجدوا في البربر السلم التي وجدها هو.

وبعذ أن دخل جنسريق قرطاجنة وثبتت قدمه هنالك بمعاهدة سنة(**42**) اتخذ الوطن التونسي وطنا ونداليا. فقسم إدارته إلى خمس عمالات، وقسم أراضيه بين ولديه هنريق وجنصون، والجنود، ومعمري الوندال. وابقي بعض الأراضي للأهالي.

أما الوطن الجزائري فلم يدخل عليه بعد عوده اليه أي تغيير إداري ولا استعماري. بل أبقى لساكنيه نظامهم القديم وولاتهم ومجالسهم البلدية وشرائعهم الذاتية، وإنما اتخذ به مراكز للجنود وكان يرسل إليه أحيانا بعض أعيان دولته لاستطلاع الحالتين:

السياسية والعسكرية، ولم ينترع منهم أملاكهم، الا ما كان من أملاك الدولة الرومانية فانه صار إلى ملوك الوندال، وعليه وكلاء وبه

خدمة فلاحون، و لم تتغير حالة الضرائب أيضا الا في المدة التي عادت فيها الجزائر إلى الرومان فان الامبراطور أصدر أمرا سنة(**45**) بإسقاط سبعة أثمان الغرامة عن الأهالي.

وكان رؤساء البربر منقادين لملك الوندال، ويمدون جيشه برجالهم.

ووجد أتباع دونتوس في الوندال أعظم نصير فثأروا من الارثذوكس. وفي أيام هنريق استعملوا قوانين ضد الأرثذوكس هي نفس القوانين التي شرعها بعض أباطرة رومة للارثذوكس لينفذوها على الدونويين: «**وتلك الأيام نداولها بين الناس**».

والخلاصة أن الوندال لم يحدثوا أي تغيير بالوطن الجزائري الا ما كان من قلة عددهم به بالنسبة إلى ما كان به من الرومان، و لم يلحق سكانه منهم أي اضطهاد الا من كانوا أرثذوكس وهم أقل القليل كما سبق.

ملوك الوندال وسياسيتهم:

اعتلى عرش مملكة الوندال بافريقية ستة ملوك في مدة تزيد على مائة سنة.

1- جنسريق (429-77): هو الذي تولى قيادة الجيش الذي ساقه لفتح افريقية. وأسس بها دولة الوندال.

كان من أعظم ملوك افريقية وأنفذهم رأيا وأبعدهم نظرا، سياسيا ماهرا وحربيا حاذقا. لايحارب إلا حيث يرى فائدته في الحرب. ولذلك عقد معاهدتين مع إمبراطور رومة. ولما تيسرت له الحرب لم يبال بالمعاهدتين. وإن رأى أنه عاجز عن الحرب توقاها واستعان بدهائه. فقد جمع له مجريان (**الذي تولى الإمبراطورية برومة سنة 457**) بقرطجنة سنة (**58**) ثلاثمائة سفينة ليحاربه بها ويسترجع منه افريقية. فرأى هذا الملك أنه عاجز عن صده بالقوة، فأرسل الجواسيس إلى معسكر العدو وكان به جنود من القوط. فاستمال الجواسيس هؤلاء القوطيون، وأغرقوا السفن بمكانها. ونجا بهذا الدهاء جنسريق من شر حرب لاقبل له بها. وكان إمبراطور القسطنطينية يحاول أضعاف الوندال. فأرسل جيشا بريا وآخر بحريا لحرب جنسريق. ورأى هذا الملك عجزه فصار يناوشهم القتال، ويبث فيهم الجواسيس، ويسعى في تفرقتهم. فتم له الفوز. واكتفى الجيشان من الغنيمة بالإياب. فعادا إلى القسطنطينية سنة (**70**).

وفي سنة (**476**)[1] عقد معاهدة مع إمبراطوري الشرق والغرب على أان لا يحارب أحد منهما مملكته ويعترفا بأنه ملك افريقية. وهكذا ظل منصورا في كل مواقفه حتى أدركه حمامه.

2- هنريق (477-84): انتصب مكان أبيه. ولكن لم يخلفه في تدبيره ودهائه. فقد كان ضعيف السياسة شديد القسوة سفاكا للدماء.

---

[1] في هذه السنة سقطت مملكة الرومان الغربية. قضى عليها أداقر ملك الهيرول. استولى على ثلثي ايطاليا. واصطلح مع جنسريق. واقتسما صقلية.

ولم ينج من بطشه حتى أقاربه وحاشيته. ويكفي أن نسوق حكاية واحدة عن أسقف قرطاجنة الاريوي ذهب اليه ليعظه ويرقق قلبه. فجازاه بأن حرقه أمام الناس؟

ولسوء سياسته انسلخ عنه أكثر الجهات. وانحصرت دولته في السواحل وبعض دواخل الوطن.

3- **غندامند (484-96)**: هو ابن جنصون. انتصب مكان عمه. ووجد الدولة في خطر من جراء سياسة عمه. فحاول ان ينهض بها، ويكبح جماح الثوار. فلم يأت بشيء وكان كسلفه مشتدا على الارثذوكس. فأدرك ما في ذلك من ضرر بالسياسة، ورجع عن شدته، وأعاد المنفيين منهم، ورجع إليهم أملاكهم.

4- **تراسمند (496-523)**: انتصب مكان أخيه. واشتد على الارثذوكس. وحسن علائقه مع القوط. وتزوج بأخت ملكهم.

5- **هلدريق (523-31)**: هو ابن هنريق. انتصب مكان ابن عمه. وكان حييا محبا للسلم. وخالف سياسة أسلافه: فرفع الاضطهادات عن الارثذوكس، وأعلن بدخول دولته تحت سيادة يستنيان إمبراطور القسطنطينية، وصار يرسم على نفوذه صورة هذا الامبراطور، وقطع علائقه مع القوط بقتل أخت ملكهم زوجة تراسمند لأنها سعت في تدبير ثورة ضده.

ولم يرتض الوندال سياسته هاته، فثاروا عليه، وأودعوه السجن، فلم يزل به حتى قتل سنة (33).

6- جلمير (531-534): هو حفيد جنصون. كان في دولة هلدريق رئيسا للجنود ومكلفا بحرب بربر المغرب. وله تأثير على الجنود. فكانوا يحبونه. ولما رأى انحراف الوندال عن ملكهم داخل جنوده في الثورة عليه. فأجابوه بالامتثال فثار عليه، وأودعه السجن، وانتصب مكانه.

بلغ خبر هذه الثورة يستنيان، فامتعض لها. وأرسل إلى جلمير: ان سرح هلدريق، واعد له كرسيه. فكان جواب هذه الرسالة التشديد على هلدريق حتى لايعد جلمير مثله خاضعا ليستنيان. ولما رأى الامبراطور إصرار جلمير على سياسته أرسل اليه ثانية: ليسرح هلدريق، وليأذن له في الالتحاق به. وإن لم يفعل فالحرب. فأجابه جلمير عن هذه الرسالة بقوله:

«إني لم أتول الملك بالقهر.. وهلدريق كان صاحب دسائس في الأسرة. وحنق الوندال كلهم عليه هو الذي أسقطه. فبقي الكرسي شاغرا فجلست عليه بوجه شرعي، لأني أكبر الأسرة». وقال جوابا عن تهديده له بالحرب: **«الملك الحكيم هو الذي يشتغل بحكومته. ولا يمد طرفه إلى ما هو خارج حدودها. ولا يتداخل في شؤون الدول الأخرى. وإذا أردت قطع ما بيننا من المعاهدات فاني معذور في مقابلتك بالمثل»**.

كان هذا الجواب قاطعا لآمال يستتنيان في آن يفيد صديقه هلدريق بالمكاتبة. ولم يبق الا الأعراض عنه أو الحرب. وهي أنسب بعظمته. فتجهز لحرب الوندال بافريقية. وانتهت الحرب بخضوع جلمير إلى قائد

الروم البيزنطيين. فذهب به هذا القائد إلى القسطنطينية. ومنحه يستنيان أرضا بالأناضول قضى بها بقية حياته.

أعمال الوندال:

الوندال أمة حربية متعصبة لمذهبها. فلم يشغلوا بافريقية إلا بالغزوات البحرية، الاضطهادات للارثذوكس. ولم يفيدوا الوطن لابعلم ولا بصناعة. بل كانوا سببا في نقص عمرانه وعلة لخرابه ومادة لإذكاء نار الثورات به.

جنسريق مؤسس دولتهم والمعدود من أمهر السياسيين أمر بنسف عمران أقسام موريطانيا وإفساد سبلها عندما بلغه أن مجريان جمع جموعه بقرطجنة، وقاصد لحربه على طريق المغرب. وكان مشتدا على الارثذوكس، حتى انه سنة (37) طلب منهم الدخول في مذهب أريوس. وأغلق كنائس من لم يلبوا طلبه منهم ونفاهم.

وهنريق جمع في سنة (83) أساقفة وقسوسا وشمامسة من الارثذوكس، بلغ عددهم **4976** وحشرهم في شق بنارية، وسيقوا من هنالك إلى مجزرة الصحراء. وطلب اليه بعض أساقفة الارثذوكس إنهاء اضطهادهم بعقد مجمع في افريقية، يستدعى اليه كل من له رتبة في الكنيسة من جميع أنحاء العالم. فأجابه بقوله: «**إني أحب ذلك. لكن بشرط أن تضع العالم كله تحت سيطرتي**».

وغندامد اشتد أيضا على الارثذوكس أولا. وفي سنة (87) عفا عنهم.

تراسمند جرى على سياسة سلفه في العفو عنهم. ولكنه كان يستميلهم إلى مذهبه بمنافع يمنحهم إياها. ولم يساعدهم على نظام كنيستهم، ونفى من الأساقفة من لم يخضعوا لأوامره.

وهلدريق أوصاه سلفه بالرفق بالأرثذوكس. فجرى على وصيته. وفي سنة (524) عقد مجمعا بقرطاجنة رجاء إيجاد سبل للمفاهمة والموافقة والموفقة بين المذهبين. فانفصل المجمع على استحالة توافقهما.

والخلاصة أن أعمال الوندال كانت منحصرة في تخريب حصون الرومان، وامتلاك ما كانوا أخذوه عن البربر من الأراضي بجميع الشمال الإفريقي، واضطهاد الارثذوكس ألرومانيي النزعة بنفي أساقفتهم وإغلاق كنائسهم وانتزاع أملاكهم. وقد ساموهم سوء العذاب: يحرقون رجالهم ونساءهم بالنار، أو يمثلون بهم بقطع الأعضاء أو الضرب بالسياط.

وتاريخهم حافل بتفاصيل وقائع الاضطهادات وأعمال التخريب. ولكن لاتخلوا تلك الأحاديث من المبالغات. على أن إجمال ذلك أنسب بنا من بيانه، لكون أكثره خارجا عن موضوع تاريخنا، وأغلب مسيحيي الجزائر كانوا دونويين فنجوا من تلك الاضطهادات ،بل كانوا شركاء الوندال في التعدي على الارثذوكس واداله الله منهم.

ثورات البربر:

قد علمت أنه لم يكن للوندال بالوطن الجزائري غير مراكز عسكرية قليلة وأراض دولية الفلاحون بها من البربر. فكان عدد الوندال به قليل، وسلطتهم على أهله ضعيفة. وإذا كان الرومان على قوتهم الحربية والاستعمارية وطول أمدهم لم يقطعوا ثورات البربر فإن الوندال أعجز من أن يغمدوا سيوف أولئك الأبطال إلا في جسد سلطتهم.

كان جنسريق يحملهم على الهدوء بعاملي الترغيب والترهيب. فقد كان معنيا بالجندية التي يخشون بطشها، وكان يشركهم مع جنوده في غزواته وغنائمها، حتى في فتح رومة وما عاد به منها من النفائس.

وبهذه السياسة شغلهم عن تدبير الثورات، ورغبهم في السلم. فكانت افريقية الشمالية على عهده في راحة من الثورات لم تعرفها في غير عصره. ووجد البربر اذ ذاك الفرصة لاسترجاع قوتهم الحربية، ولكنهم لم يستعملوها ضده و لم يهملوها بعد وفاته.

جاء بعده هنريق الذي لم يكن كأبيه، فلم يعامله البربر مثله. وثاروا عليه سنة (83) بعد جمع الارثذوكس بشق نارية وتشريدهم في الصحراء. امتدت الثورة من جبل راشد وجبال أوراس وجرجرة وما بينهما إلى طرابلس. وهجم الثوار على الجهات الشمالية. قال مرسيي: كان هؤلاء الثوار منضمين من عهد جنسريق. وانضم إليهم ضباط من الارثذوكس الممتحنين. وقد دافعهم هنريق. فعجز عن إخماد ثورتهم. وانحصرت مملكة الوندال في السواحل وبعض الجهات الداخلية.

وجاء غندامند فلم يستطع أن يقف حرية البربر. وتقدم الجيتوليون على عهده إلى ناحية قفتة. وفي عصره تراسمند تقدم البربر في لم شعثهم واستعدادهم للثورة. وفي عصر هلدريق انتصر البربر على قائده أومير، وأخذوا بذلك حريتهم. وكانت محاولات الوندال لإخضاعهم تذهب هباء.

كانت ثورات البربر ناشئة عن سوء سياسة خلفاء جنسريق لأنهم أهملوا الجندية وفرطوا في الأسطول. فلم ير البربر تلك القوة التي كانوا يخشونها، ولم يجدوا تلك الغنائم التي كانوا يجرونها.

وقرب نجاح تلك الثورات، أن الوندال كانوا خربوا أسوار المدن خوفا من أن يتحصن بها الرومان. فلم يجد الثوار حاجزا يقف سير ثورتهم.

في عهد خلفاء جنسريق استولى البربر على أكثر تراب الموريطانيتين. ونزل بربر أوراس إلى سهول نوميديا. وخربوا بها المدن الزاهرة التي كانت تحت حماية الفرقة الثالثة الاوغسطية. وهي:

تفيست، باغاية، تمغادي، لمبس. وبلغوا قريبا من قسنطينة.

قال أغسال: «**حقا ان البربر أنفسهم كانوا يكنسون الوندال. لولا ان الإغريق هم الذين تحملوا بهذه الخدمة**»[1].

---

[1] الجزائر في القديم **131**.

انتهاء دولة الوندال:

في سنة (**533**) قدم الروم البيزنطيون إلى افريقية لحرب جلمير. وفي شتنبر تلك السنة فتحوا قرطاجنة. وبقي جلمير خارجها يجمع الوندال والبربر ليعيد عليهم الحرب. وفي منتصف دجنبر آخر السنة عادت الحرب بين الفريقين وانتصر فيها الروم. ففر جلمير على بعض الجبال متحصنا. وحماه البربر بمدينتهم ميدينس. فحاصرها الروم ثلاثة أشهر ولم يقووا على فتحها. وأخيرا طلب جلمير الأمان لنفسه من الروم. فأمنوه واستسلم لهم. وذلك سنة (**534**) وباستسلامه انتهت دولة الوندال التي تأسست بالجزائر سنة (**430**) فكانت مدتها **104** ولم يضبط ابن خلدون ذلك. فقال: إنها كانت نحوا من ثمانين سنة.

وبسقوط ملكهم ذهب من افريقية كل شيء وندال. قال مرسيي: «**بعد ستة أشهر من مجيء البيزنطيين لم تبق افريقية وندالية. الأمر الذي يدل على ان استيلاءهم لم يتمكن منها. وذلك أنهم بعد ما فتحوها فتحا سريعا مدوا أعينهم إلى جهات أخرى. فاشتغلوا بالفتح وإطفاء الثورات. ولم يستعمروا الأرض وينشروا المدنية. ولم يمتزجوا بالمعمرين من الرومان ولا اتخذوا روابط مع البربر. وبهذا ذهب أثرهم بأثر فقد ملكهم. وأما رجالهم فقد ذهب أكثرهم في الحرب. وانتقل بعضهم مع جلمير إلى المشرق ودخلوا تحت العلم البيزنطي. وانتقل آخرون إلى جهات أخرى. وبقي منهم قليل بافريقية. ولكن لم يكن لهذا الباقي تأثير**

بها. لأنهم امة حربية ذهب جندها وملكها. ولم يبق لهم بعد دولتهم إلا ذكرهم السيئ. وكل فتح لم يرتكز على الاستعمار يذهب أثره بذهاب دولته».

وقال بيروني: «لا يوجد دليل على ان الوندال حكموا نوميديا كلها. إنما كان سلطانهم حقيقيا على الشواطئ الساحلية. وهو أشبه شيء باستيلاء الأسبان في القرن السادس عشر» وبعد أن ذكر كلاما نظير ما قدمنا عن مرسيي قال: «ويقول بعض المؤرخين: أن الوندال اخذوا شيئا من الحضارة الرومانية. وأعانوا الفلاحة. وجلبوا المياه. واخترعوا صناعة أسلحة. وهم أمة متعصبة للغتها وآدابها لا تسمح لها نفسها بتعلم اللغات الأجنبية وآدابها. ومع ذلك فإن لجنسريق ابن أخ كان متضلعا في اللغة اللطينية وعلوم رومة. وشهد كثير من المؤرخين بأن تراسمند كان أعلم أهل افريقية، وكان يحب المحاورة باللسان اللطيني في المسائل الإلهية والفلسفية مع رجال الكنيسة. وألف باللغة اللطيني كتابا يؤيد فيه مذهب أريوس، أظهر فيه بلاغة في الإنشاء ومقدرة في المنطق. والوندال ـ وإن كانوا أقل حضارة من الرومان ـ استفادوا من مماستهم، ونقلوا عنهم في أمد قليل عوائد. وهذا مما يؤيد كفاءتهم وأهليتهم للفنون والأدب. وقد نظم جلمير أيام حضارة قصائد بعيدة، ولم يبق شيء مما كتبه الوندال حتى أن أسلحتهم ذهبت، ولم تعش بعد

القرون الوسطى[1]. ولم يبق من لغتهم إلا بعض كلمات وأعلام شخصية. وهذا الفناء التام هو الذي جرأ من بعدهم على لعنهم وتشويه سمعتهم. ولا يعقل أن تدوم حكومة قرنا كاملا ولا غرض لها إلا الهدم. بل لا بد أن تكون لها حسنات. ويظهر أنها هدمت أكثر مما شادت».

هذا كلام بيروني نقلناه بطوله لأنه اشتهر أن الأمة الوندالية أمة متوحشة هدامة للحضارات شأنها الغزو والسلب والنهب. فلكيلا يظن ان ذلك حقيقة تاريخية لا نزاع فيها نقلنا كلام المؤرخ مرسيي المؤيد لهذه النظرية ثم كلام البحاثة بيروني المناقض لها والمبين لسبب هذه السمعة السيئة.

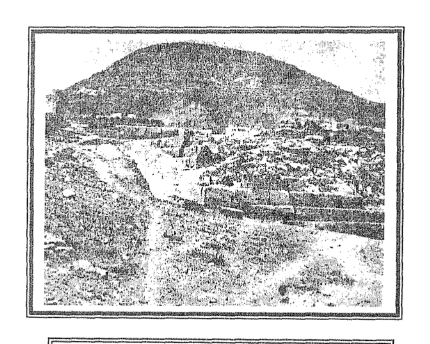
ونحن نميل إلى الرأي الثاني لاعتداله وتدعيمه بالأدلة المعقولة. بخلاف أصحاب الرأي الأول فقد بالغوا في ذم الوندال. وقد بين بيروني سبب أقدامهم على هذا التحامل بكون الوندال فنوا فناء تاما. أما سبب تحاملهم فلأن هذه الأمة كانت حاربت المملكة الغربية، وأسست دولتها على حسابها. ثم حاربت المملكة الشرقية احتفاظا بسلطانها فلم تفلح. فمحاربتها لهاتين المملكتين الشقيقتين ووقوع عصرها بين دوريهما سبب قوي لذلك التحامل.

---

[1] يقسم المؤرخون أدوار التاريخ إلى ثلاثة: القرون الولى، من فجر التاريخ إلى نقسام دولة الرومان سنة 395م، والقرون الوسطى، من ذلك الحين إلى فتح القسطنطينية سنة 1453، والقرون الأخيرة، من ذلك العهد إلى اليوم.

وسواء صح الرأي الأول أم الثاني فإن بربر الجزائر لم يستفيدوا من الوندال لا علما ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما، لأن سلطتهم عليهم كانت على ضعفها غير شاملة لجميعهم. وقد رأيت أنهم كانوا في أيام جنسريق أيام شباب الدولة متهيئين للثورة، فلم يغب عن الوجود حتى أعلنوها.

على أن البربر ليس غرضهم من تسهيل طرق الاستيلاء للوندال أن يفيدوهم في شيء غير طرد الرومان، وقد نالوا هذا الغرض. وبزوال الضغط الروماني استطاعوا ان يجددوا قوتهم الحربية ويستعيدوا حياتهم الاستقلالية. هذا ما قصدوه من استبدال الوندال بالرومان. وهذا ما استفادوه منهم وبلغوا منه غايتهم. حتى أنه ـ كما سبق ـ لو لم يعجل الروم البيزنطيون بقدومهم إلى افريقية لاستطاع البربر وحدهم أن يقضوا على الوندال ويستقلوا بوطنهم.



الجدار: القسم الأول عبارة عن سطح وغرفة
مخصصة للعبادة.

الباب الثامن

في ذكر دولة الروم

تمهيد:

تأسست الدولة الرومانية بايطاليا. تلك الجزيرة المتوسطة بين عالمي الشرق والغرب. فلما أخذت تعظم صارت تتوسع في هذين العالمين. وملكت فيهما من الأوطان ما صير رومة عاجزة عن القيام بإدارتها.

كان ذلك العجز ناشئا أولا عن كثرة المستعمرات، وثانيا عن محاولة بعض الأمم المغلوبة للاستقلال، وثالثا عن هجمات أمم القوط وغيرهم، ورابعا عن تنافس عظماء الرومان على الرئاسة والاقتتال من اجلها.

وقد حاول كثير من الأباطرة رفع ذلك العجز بإشراك بعض قرابتهم أو عظماء قوادهم معهم في الحكم والإدارة. وكان الامبراطور ديوقلطيانس قد أشرك معه مكسيمانس، واقتسما إدارة الإمبراطورية، ثم أشرك معه غلاريوس وقسطنطيوس خلورس. فصارت الإمبراطورية إلى أربعة أقسام. احدها بلاد غاليا واسبانيا وابريطانيا. وكان على هذا القسم خلورس. ثم اعتزل الملك كل من ديوقلطيانس ومكسميانس. واتخذ غلاريوس معه شريكين، أحدهما مكسمينوس والآخر ليقينيوس. وفي

خلورس. فقام مقامه إبنه قسطنطين. وثار بايطاليا على غلاريوس مكسنتيوس ابن مكسميانس.

وفي سنة (**311**) توفي غلاريوس. واقتسم شريكاه مملكته. وتحالف مكسمينوس ومكسنتيوس، واتحد ليقينيوس وقسطنطين. ونشبت الحرب بين الفريقين. وانتهت بفوز قسطنطين وحليفه. فدخل رومة. وذلك سنة (**312**) واختص بالجهات الغربية، وأخذ حليفه الجهات الشرقية. ثم نشبت الحرب بين هذين الحليفين. فانتصر قسطنطين، وقتل حليفة بالأمس وخصمه اليوم. وذلك سنة (**324**).

بعد هذا الانتصار أصبحت قسطنطين الامبراطور الوحيد لجميع المملكة الرومانية. وفي سنة (**330**) نقل مقر الحكومة إلى الشرق. وجعل عاصمته بيزنطة. وبقيت المملكة الرومانية ذات وحدة، غير أن اعتيادها للانقسام وأحداث عاصمة ثانية فيها فتحا لها بابا إلى الانقسام والانفصال. فلما أفضت الإمبراطورية إلى ثأودوسيوس قسم المملكة بين ولديه: ارقاديوس، جعله على العاصمة الشرقية، وهنوريوس، جعله على العاصمة الغربية. ثم توفي هو سنة (**395**) فاستقل كل من الولدين بناحتيه، وتم الانفصال بين العاصمتين. وأخذت الأولى في الصعود، والثانية في السقوط.

هذه المملكة الشرقية هي التي يدعو العرب أهلها من الإغريق واللطين بالروم. ويطلقون إسم الرومان على أهل المملكة الغربية.

بعد أن بلغ الروم قوة عظيمة صاروا يحاولون استرجاع كل الممالك التي خرجت عن رومة، ويرون لأنفسهم الحق في تراثها. فاشتبكوا لذلك مع الوندال بافريقية، والقوط بالأندلس، وغيرهم. وكانت لذلك حروب ضررها بالبشرية غير يسير.

وقد بلغ من عظمة الروم أن صارت لايدانيها في العظمة غير دولة الفرس. وكانت بين هاتين الدولتين العظيمتين حروب ذات أهوال وخطوب.

وبقي الروم في عظمة سلطان إلى أن ظهر الإسلام وجمع كلمة العرب ونظم قوهم. فأخذوا يفتحون البلدان ويستولون على الأوطان. فانتزعوا من الروم غرر دولتهم من أوطان الشام ومصر وافريقية الشمالية.

أمست دولة الروم بعد ان أخذ منها العرب زهرها تبذل وتتدلى، حتى ظهر آل عثمان من الأتراك، وضايقوها فيما بقي لها، وصاروا يستولون على مدنها. وجاء محمد الفاتح منهم، فقضى على البقية الباقية منها بفتحه القسطنطينية سنة (857هـ 1453م).

بيزنطة:

عرفت أن العرب يطلقون اسم الروم على أهل المملكة الشرقية من اللطين والاغريق. والإفرنج يطلقون على هؤلاء الروم إسم البيزنطيين. وذلك نسبة إلى عاصمة دولتهم مدينة بيزنطة.

وهي مدينة قديمة ذات موقع ممتاز لتوسطها بين قارتي آسيا وأوروبا، ووقوعها على مضيق البوسفور الواصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الأبيض المتوسط.

وقد ذكر ابن خلدون بيزنطة مرة باسم بوزنطية وأخرى بلفظ بيزنطية. قال: إنها بنيت في الثانية والخمسين من ملك منشا بن حزقياهو. وهاك عبارته: «**وفي تاسعة وثلاثين من ملكه ملك سنجا ريف الصغير مملكة الموصل. قاله ابن العميد. وفي الثانية والخمسين بنيت بوزنطية، بناها بورس الملك. وهي التي جددها قسطنطين، وسماها باسمه**»[1].

وسنجاريف الصغير هذا هو ابن سنجا ريف الذي دعاه ابن خلدون بهذا العلم. ويظهر من سياقة تاريخه انه المعروف عند غيره باسم **سيناخريب (SENNACHERIB)** والاختلاف قد يكون من أصل النقل، وقد يكون من تصحيف النساخ للخاء جيما وللباء فاء. وسياقة حديث سنجار يف الصغير نقتضي ان المعروف في غير ابن خلدون باسم اسرحدون. وهو قد تولى الملك سنة **(681) ق.م** فتكون هذه السنة هي التاسعة والثلاثين من ملك منشا، والثنية والخمسون من ملكه توافق سنة **(688)**. فتكون بيزنطة أسست في هذه السنة.

---

[1] ج2 ص **105** وفي الأصل بورنطية بالراء. وهو تصحيف.

وبعد ان استولى الرومان على البلاد الاغريقية لم يتنبه أباطرتهم لأهمية موقع بيزنطة، حتى جاء قسطنطين، فتنبه لذلك، وانتقل إليها سنة (330م).

وكان انتقاله لها لغرضين: ديني وسياسي. أما الديني فلأنه تنصر، وكانت رومة لايزال عظماؤها وثنيين. فهو لايستطيع أن يؤيد ديانته بينهم، ويضر بنفوذه ان هو قام فيها بحماية المسيحية. فابتعد عنهم إلى بيزنطة، واتخذها مهدا صالحا لنمو المسيحية.وأما الغرض السياسي فلأن الفرس كانوا يهددون دولته من ناحية الفرات، وأمم القوط يهددونها من ناحية الدنوب. فنزل تلك المدينة المتوسطة بين ذينك النهرين ليراقب حركات الأعداء ويرد غاراتهم.

ولما انتقل إليها أخذ في تعميرها على مثال رومة، ونسبها اليه. فصارت تدعى القسطنطينية. ثم لما فتحها محمد الثاني من آل عثمان صارت تدعى اسلامبول. ومعنى ذلك مدينة الإسلام. وقد غير هذا العلم إلى لفظ اصطنبول.

الروم في افريقية:

كان يستنيان إمبراطور القسطنطينية ينظر إلى المملكة الغربية التي زال منها حكم الرومان نظر الوارث المستحق، ويتحين الفرص لاسترجاعها، وضمها إلى الإمبراطورية الشرقية. فكان لذلك يتداخل في شؤون الوندال بافريقية، وكان سروره عظيما يوم أعلن هلدريق سيادته بها، وكان

كذلك استياء الوندال عظيما، أفضى إلى إسقاط ملكهم وإجلاس جلمير مكانه. وقد عجم يستنيان عود جلمير بالكتابة، فوجده صلبا. فأراد أن يهشمه بالكتيبة لا بالكتابة.

كان يستنيان في حرب مع الفرس دام أمدها خمس سنوات. ولما أجابه جلمير ذلك الجواب اصطلح مع الفرس على أن يؤدي لهم غرامة مبلغها أحد عشر مليونا من الفرنك، وأخذ يتهيأ لحرب الوندال.

اشترى يستنيان حرب الوندال بذلك الثمن. وانه لزهيد بالنظر لخيرات افريقية. ولكن وزراءه استصعبوا قبض متابعهم لبعده عن العاصمة وشجاعة حماته من الوندال. وكادوا يردونه عن عزمه. غير أن بعض أساقفة الارثذوكس الذين يودون إنقاذ إخوانهم من الاضطهاد الوندالي شجعه على الغزو، وتنبأ له بالفوز والنصر. واتفق أن كانت طرابلس وصقلية ثائرتين على الوندال. وطلب رئيسا الثورة بهما إعانة هذا الامبراطور على أن يسهلا له طريق الاستيلاء على افريقية. فزاد ذلك في نشاط يستنيان، ومضى على عزمه.

وكان من رجال البلاط الإمبراطوري رجل يدعى بليسير، له نفوذ بالجيش. فاختاره الامبراطور لقيادة حرب افريقية. وفوض له في اختيار الضباط. وصدر له الأمر بركوب البحر.

في صائفة سنة (**533**) ركب بليسير البحر بجيش يشتمل على خمسة عشر ألفا ثلثهم فرسان، في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة. وركبي

معه زوجه وكاتبه المؤرخ بركوب. وحض ركوبهم الإمبراطور نفسه، وأحد الأساقفة، وزودهم بالدعاء.

سار الأسطول إلى أن أرسي بصقلية. فنزل الجيش للاستراحة والتزود والاستعلام عن أحوال الوندال. وذهب بركوب إلى سرقوسة ليأتي مخدومه بإرشادات. فعاد اليه يحمل هذه البيانات:

1- الجنود الوندالية بسردانيا تحارب عاملها الثائر.

2- جلمير نازل بالبيزاصين (**جنوب تونس**).

3- الوندال لا علم لهم بمجيء الجيش الرومي.

بعدئذ ارتحل بليسير بجيشه، وأرسى بخليج قابس في يوليه. وأخذ ينتقل مع الساحل البحري، ففتح لبتيس وحضرموت. وأرسل إلى سراة الوندال باسم الإمبراطور: إني لم آت محاربا للأمة الوندالية. وإنما جئت محاربا لشخص جلمير الذي اغتصب الملك من يد هلدريق!

ولما علم جلمير بنزول الروم بافريقية جمع جموعه لحربهم. وكانت بين الفريقين معارك لم تفل من عزم جلمير وإن كان وقعها عليه شديدا، وأخيرا ذهب على جبل بابوة (**PAPPUA**)[1] فتلقاه أهله البربر بالترحاب، وأدخلوه مدينتهم ميدينس (**MIDENOS**).

نزل بهذه المدينة طمعا في أن يجد سبيلا في الذهاب إلى الأندلس. وأرسل إلى ملك القوط بهاثوديس ليوجه له مراكب. فلباه. ولكن القدر

---

[1] اختلف في هذا الجبل: قيل هو جبل ايدوغ وقيل جبل الناطور.

أبى على جلمير إلا ان يقع بيد أعدائه. فحوصر بتلك المدينة ثلاثة أشهر. ولما أيس من اللحاق بالأندلس طلب من بليسير الأمان. فأمنه. وسلم نفسه إليه. فذهب به إلى القسطنطينية. وذلك سنة (**534**).

الروم بالجزائر:

بعد فرار جلمير إلى جبل بابوة توجه بليسير إلى بونة فاحتلها. وبعث بمن فيها من الوندال إلى قرطاجنة. ثم وجه جندا عن طريق البحر إلى قيصرية. فاستولى عليها. وبلغ ذلك الجند سبتة ففتحها أيضا. واصدر يستنيان أمرا يقول فيه: «**لا بد أن ندافع عن الخاضعين إلينا، ونصل بحدودنا إلى حيث وصلت الجمهورية الرومانية**» ولكنه حلم لذيذ جعلته يقظة البربر من أضغاث الأحلام، وأمل حال دو تحقيقه تمسك البربر باستقلالهم وقدرتهم على حماية أنفسهم.

جد الروم في الاستيلاء على الجزائر. ولكن لم يكن لهم في أول الأمر غير السيادة الاسمية في جهات قسنطينة وسهول سبيوس وأعلي مجردة. ولحفظ تلك السيادة جعلوا على هذا القسم خطأ من الحصون، أهم مراكزه قسنطينة وقالمة.

وفي سنة (**539**) فتحوا أوراس والحضنة ووطن سطيف. ولكن لم تثبت قدمهم بأوراس. فاكتفوا باتخاذ حصون قوية شماله. وذهب خط

الحدود من هذا الشمال مغربا فمر بطبنة وزابي، ثم انحنى شمالا مشتملا على سطيف.

وبقية الوطن الجزائري لم يحتل منه الروم غير بعض المراسي. منها رسقوناي وتبازا وقيصرية وقرطنة. ولم يبلغوا هذه المراسي إلا من طريق البحر. قود ضيق البربر عليهم فيها تضييقا شديدا. فعاشوا بها عيشة بؤس. وأحاطوها بأسوار لم تزل آثارها حتى اليوم. وهي تدل على نقصان مساحتها بالنسبة لما كانت عليه عصر الرومان.

وقد قسم الروم جزائرهم إلى قسمين: نوميديا، وهي الجهات الشرقية من الوطن الجزائري، وموريطانيا الثانية، وهي تلك المراسي التي ليس لهم حولها أي سلطة. وجعلوا لكل من القسمين رئيسا. وبعد مدة أضيفت موريطانيا إلى عمالة سطيف.

وقد سلك يستنيان سبيل الرومان. فأسكن الجنود على خط الحدود ومنحهم الأراضي لاستعمارها. وقد علم أن هذا وحده غير كاف لحفظ ما استولى عليه جيشه. فاستمال بعض رؤساء القبائل بأن جعل لهم أرزاقا سنوية، ومنحهم القابا شرفية، وأنعم عليهم بالأوسمة. واحتاط لبقائهم في خدمته بأن أغرى بينهم العداوة والبغضاء. وغمرهم بتأثيرات رؤساء الدين. وأخذ من قبائلهم رجالا رهائن. وجعلهم تحت إشراف قواده من الروم، فمن رأوا منه انحرافا عن الطاعة قطعوا عنه كل ما كان يناله من دولتهم.

قال اغسال: «**ومع هذا كله لم يكن السلم مستمرا. فكثيرا ما اجتاز البربر الحصون الرومية. وعاثوا في البوادي فسادا. واتقاء من هذه الغارات اتخذ المعمرين حصونا ممتنعة ببادئيتهم**».

أمراء البربر في العصر الرومي:

قد علمت ما استولى عليه الروم من وطن الجزائر وأنه اقل بكثير مما بقي بأيد البربر غير محتل. وتوجد خارج تلك الحدود إمارات عظمى للبربر، منها إمارة قرب تيهرت. تركت آثارا تدل على عظمتها، منها ثلاثة عشر هرما يسميها العرب اليوم الجدار، يبلغ ارتفاع اكبر من تسعين ذراعا. وهي قبور لبعض الأسر البربرية.

من أمراء البربر في هذا العصر مصيناس. كان على موريطانيا. ويلقب نفسه: «**ملك القبائل الموريطانية والرومان**» والمراد من الرومان الباقون بموريطانيا بعد ذهاب سلطتهم من افريقية. وهذا اللقب يدل على عظمة صاحبه حيث أن الرومان خاضعون له وإخوانهم من الروم بجوارهم، إذ لو وجدوا سبيلا للشغب عليه والاحتماء بالروم لفعلوا جادين.

ومنهم أرثياس. كان على غربي أوراس إلى الحضنة.

ومنهم بيداس. كان على جبل أوراس.

ومنهم قطزيناس. كان على شرقي أوراس.

هؤلاء الأمراء كانوا مستقلين بنواحي. ووحدوا القبائل التي تحت سلطانهم وردوا لها قوتها الحربية لما ضعفت السلطة الوندالية. واسترجع البربر على عهدهم كثيرا من الأراضي التي كان الرومان استولوا عليها. وصار شعارهم: «**أرض البربر للبربر**».

قال مرسيي: وقد وصف تجديد الوطنية البربرية لكروا (**LA CROIX**) وهو كاتب بليغ. فقال: «**الرومان ذلك الجنس القوي الحاذق العظيم في التمدن وقوة الفتوح، لم يكن في وقت من الأوقات امتزج بالبربر امتزاجا حقيقيا. بربر السهول والمدن وما قاربها اختلطوا حقيقية بالرومان. ولكن بربر الصحراء والجبال لم يبلغ شيء من تأثيرات الرومان إليهم. بعد سبعة قرون من ابتداء تسلط الرومان على افريقية وجدت الجنس البربري كما كان قبل ذلك التسلط. ثوار القرن السادس الذين مر عليهم ستة قرون، وحاربوا الرومان تحت يوغورطة: طبائع متخذة وأعمال متماثلة وكراهية واحدة للأجنبي ومحبة واحدة للحرية وصفة واحدة في الحرب.. وهذه الأمة لم تتبدل عن حالها الأولى، ولا يخرق سياج طبائعها أي أثر خارجي.. العدد الكثير الذي حارب يستنيان بعد ذهاب الوندال، واستحالة استيلاء البيزنطيين على ملك أسلافهم الرومان، يدلان على أن أكثر البربر لا يمكن نفوذ شيء إلى طبائعهم**»[1].

---

[1] مرسيي1: 168 عن مجلة افريقية.

أجاد الكاتب حقا في وصف الوطنية البربرية، ولكنه أخطأ في جعله وطنيتهم قد منعتهم من نفوذ شيء إلى طبائعهم. فان تاريخهم ما تقدم منه وما يأتي يدل على أنهم يقبلون الرقي والحضارة لكن إذا لم يصحبهما صغار.

حروب الروم والبربر:

بعد ذهاب بليسير بجلمير إلى القسطنطينية بقي على رئاسة افريقية الرومية سليمان الخصي. وما كاد بليسير يركب البحر حتى أسرع البربر إلى الثورة. فحاربوا الروم. واستولوا على جميع مراكز الجند الرومي بدواخل الوطن.

قطزيناس تقدم إلى البيزاصين. وسرح له سليمان الجنود فحاصرهم بكهف هنالك. واستأصلهم. ثم خرج سليمان نفسه سنة (35) فهزم قطزيناس. وعاد إلى قرطاجنة. فعاد البربر إلى الثورة وخرج إليهم ثانية. فوجدهم متحصنين بجبل بورغؤن (**المظنون أنه جبل بوغانم**) فأخرجهم من حصنهم وهزمهم.

وفي هذا الحين كان بيداس ومصيناس يجولان بنوميديا وينهبانها بجموعهما. ولتحق ببيد اس بعض البربر المنهزمين بالبيزاصين مستصرخين به. وأصبح موقف سليمان في أحرج ما يكون. ولكن طبيعة البربر في الانقسام وتخاذل الرؤساء نفست عليه قليلا اذ تطوع بعضهم لسليمان بالدلالة على طرق الوطن لتتبع بيداس. فخرج سلميان يطلبه حتى بلغ

جبل اصبيديس (**جبل شلية**) ولكنه لم يظفر به ولم يبصره. وكان وقت الشتاء قريبا والمؤونة غير كافية للإقامة. فعاد إلى قرطاجنة.

دخلت سنة (**36**) وخرج فصل الشتاء. فتجهز سليمان في فصل الربيع لحرب بيداس. ولكن جنوده كانت قليلة الانقياد. فلما شق عليها تتبع هذا الأمير في جباله شقت عصا الطاعة في وجه سليمان وعزمت على قتله، فما وسعه الا النجاة بنفسه. فأغذ السير إلى قرطاجنة. ومنها ذهب إلى صيقلية ـ وبها بليسير ـ فأعلمه بما جرى. فركب بليسير البحر إلى قرطاجنة لإخضاع الجنود. وثارت بعده جنوده هنالك. فعاد سريعا إلى صيقلية. وبقيت افريقية الرومية بعده في فوضى عامة..

كانت تلك الجنود الثائرة بافريقية متحدة تحت رئيس يدعى ستوزاس. وأرسل يستنيان جرمان واليا. فحارب ستوزاس. وبينما هو فار أمامه إلى ناحية بها بيداس وأرثياس طمعا في نصرهما إذا بهذين الأميرين قد نزلا على جنوده واستأصلاها. ففر إلى موريطانيا. وكانت هذه المعركة بمكان يدعى: «**سلاص فاتاري**» قال مرسيي: وهو أما نواحي تيفاش واما جنوب قسنطينة.

وفي سنة (**39**) عزل جرمان وعين مكانه سليمان الخصي. فجعل حرب أوراس نصب عينيه. وكان على البربر البيزاصين أمير منهم يدعى انتلاس. فاستماله سليمان وجعل له عطاء سنويا. وفي ربيع سنة (**40**) أرسل أحد ضباطه لفتح أوراس. وخرج هو بأثره. ولما بصر هذا الضابط بالعدو لم يقف لحظة عن الفرار إلى باغاية. فأدرك البربر. وحاصروه بها.

وأرسلوا عليها الماء كي يغرق من بها. ولكن سليمان أدك ضابطه ففك عنه الحصار.

بعد ذلك تتبع سليمان البربر في جبال أوراس طامعا في إدراك بيداس. وكان هذا الأمير ذهب إلى مدينة زربولة. فلحقه سليمان. وحاصره بها. واستطاع بيداس أن ينفلت من الحصار فذهب إلى مدينة ثمار. وتحصن بها. وكانت ممتنعة. فحاصرها سليمان مدة حتى فتحها. وجرح بيداس في دفاعه عنها. ونجا على موريطانيا.

بانتقال بيداس من أوراس استطاع الروم أن يجوسوا خلاله. وغنموا أموالا طائلة لأميره. ثم ذهب سليمان إلى بلاد الزاب يخضع البربر لدولته. وبلغ المسيلة. وكانت تدعى زابي. فجددها. وسماها يستنيانة تخليدا لذكر إمبراطوره.

وبعد جولته عاد إلى قرطاجنة. وقد له الهلاك على يد حليفة انتلاس. فقتل على أيدي جنود هذا الأمير بنواحي تبسة سنة **(45)**.

بعد هلاك سليمان جاء ولاة ضعفاء عن حماية ما تحت أيديهم من البربر. فكانت مدتهم حروبا بينهم وبين ملوك البربر المتحدين تارة والمتخاذلين أخرى. وقام البربر بعدة غارات على روم نوميديا وغيرها.

وفي سنة **(46)** جاء يوحنا طرغلطا واليا على إفريقيا. وجعل حرب انتلاس أهم أعماله. واستعان عليه بقطزيناس وبيداس وافسدياس **(هو أحد أمراء البربر بنواحي أوراس)** فأعانوه. كما كان سليمان استعان بانتلاس

على بيداس. وبعد ما اشتدت الحرب بين انتلاس وطرغليطا انجلت بخضوع الأمير البربري سنة (48).

عد الروم هذا الفوز انتصارا باهرا. ولكنهم لم ينصروا على البربر إلا بالبربر. وهو يعدون البربر كلهم أعداء لهم سواء المحارب والمحالف. ولذلك قتلوا الأمير قطزيناس غدرا سنة (63) رغم كونه حليفا لهم. وقام أبناؤه مطالبين بدمه، ورفعوا لواء الحرب على الروم.

استمرت غارات البربر على الروم. وعجز الولاة عن إيقافها عند حد. حتى جاء جناديوس. فحاربهم وافتك منهم بعض ما كان استولوا عليه من الأراضي. ولكنهم لم يزالوا في غاراتهم حتى أنهم سنة (97) بلغوا أبواب قرطاجنة وحاصروها.

والخلاصة أن تاريخ الروم بافريقية كله حروب. أكثرها للبربر. أما علة كثرة الحروب فهي تشبع البربر من مبدأ الاستقلال، وطمع الروم في أرث الرومان من غير نظر إلى الظروف، وجور ولاتهم فيما تحت نفوذهم. واما سبب نجاح البربر في الأكثر فذلك لضيق نطاق التراب الرومي، وعجز كثير من الولاة في السياسة والحرب، وتمرد الجنود على قوادها.

البناءات والاستحكامات الرومية بالجزائر:

قد رأيت ضيق نطاق ما استولى عليه الروم من الجزائر وعجز ولاتهم أمام تعدد غارات البربر. وذلك مما يحرج موقف الروم ويجعل حياتهم في خطر. فأنشئوا لاتقائه الأسوار الحصينة خلف المدن، وبني الفلاحون

بباديتهم الحصون المنيعة، وشيدت حصون على خطوط الحدود والطرق التي يمكن أن يفضي البربر منها إلى التراب الرومي. وقام بتلك البناءات والاستحكامات بجلها سليمان الخصي، وببعضها معمرو الروم أنفسهم.

ومن المدن الكبرى التي أحيطت بالأسوار قرطنة وقيصرية وسطيف وميلة وتمغاد وقصر الصبيحي وقالمة ومدوروش وتبسة. ومنها ما لم يزل سوره قائما حتى اليوم. ويبلغ ارتفاع بعض الأسوار عشرين ذراعا وعرضه ست أذرع.

وقد أخذ الروم مواد الأسوار والحصون مما وجدوه من رخام وحجارة منحوتة وغيرها من بقايا مدن الرومان التي ضربها الوندال أو البربر. وإذا كان الوندال والبربر قد خربوا مدن الأحياء فإن الروم لم يقفوا في تحصين مركزهم عند أخذ مواد المدن الخربة بل تعدوها إلى نبش القبور وتخريب مدن الموتى لأخذ ما فيها من مواد صالحة للبناء.

وللروم من البناءات سوى الأسوار والحصون تشييد الكنائس. وليس لهم من البناءات العمومية غيرها. قال اغسال: «**وهي مبنية بمواد مختلفة ومزينة بلا ذوق ولا فن**».

وقد حافظ الروم ـ علاوة على ما أنشأوه ـ على ما بقي من آثار الرومان لم ينله الخراب. ورمموا منه ما وجدوه منثلما. وكل ذلك إنما قاموا به لحفظ راحتهم. ولكن لم ينالوا بغيتهم، ولم تصد استحكاماتهم

البربر عن غاراتهم. قال أغسال: «**وآثار البيزنطيين الباقية بنوميديا ـ ما عدا التحاصين ـ تدل على بؤس شديد**».

الحالة الدينية في العهد الرومي:

علمت سابقا أن الاسرائليين كانت لهم هجرات على الشمال الإفريقي قبل الميلاد وبعده. وقد جاء الوندال ـ وهم أمة حربية ـ فألفوا بهذا الوطن الاسرائليين ـ وهم أمة تجارية ـ فقربوهم، واستعانوا بهم على استدرار خيرات الوطن. فاستحوذ الإسرائيليون على التجارة، وراشوا، وكثر عددهم. واتفقوا مع الوندال على كراهية الأرثذوكس وإذابتهم.

ولما جاء الروم وجدوا أنفسهم في ضيق مع الاسرائليين. فكان قوادهم يرهقونهم على الدخول في المسيحية ويبدلون بيعهم كنائس. وزال على الأرثذوكس ما نالهم في الدور الوندالي، وأصبحوا معتزين دون سواهم من الموسويين والدنويين والاريويين.

وفي سنة (535) انتزعت الدولة الرومية من هذه الفرق جميع أملاكها، وأعدمتها حماية الشريعة، وحجزت عليها العمل بمذاهبها، وعزلتها مما كان من مناصب. كل ذلك جريا خلف داعي التعصب المذهبي.

واعترف يستنيان رسميا للكنيسة الأرثذوكسية بحق مراقبة المدن وإدارة العمالات. فلم تقف عند حد مراقبة الولاة وأهل الوظائف

السياسية، بل صارت تأمرهم، وتتداخل في جميع الشؤون الدولية سياسة كانت أو مالية أو إدارية أو حربية. وصار البابا برومة يرسل أوامره للقواد والولاة. قال اغسال: «**وغمرت قوة الكنيسة قوات جميع المتوظفين**».

تحت هذا الاستبداد الكنيسي دخل بعض الموسويين في المسيحية لمجرد منافع مادية. والمادة عند الاسرائليين قبل الدين والجنس. ولكن مدة ارتدادهم لم تطل حيث ان السلطة الرومية أدركها الضعف قريبا. فعادوا إلى دينهم الذي دخل فيه بعض القبائل البربرية أيضا. ورجعت قبائل أخرى من البربر إلى الوثنية.

هكذا كان الوطن الجزائري في العصر الرومي يشتمل على أديان ومذاهب كلها متعادية متنافرة. فكانت من أقوى عوامل الخراب في هذا الدور، ولها أثرها السيئ في الفوضى وفقد الأمن. وإنها لكذلك حتى جاء الإسلام على أيدي الفاتحين من العرب. فنظم ما اختل، ووحد ما تفرق، واستقر بالقلوب الاستقرار النهائي.

الحالة الاجتماعية بالجزائر:

قد رأيت أن ما استولى عليه الروم من الوطن الجزائري قليل وإن أكثره بقي تحت امراء عديدين من البربر. وقد عم الشقاء والبؤس في هذا الدور كل الوطن الجزائري سواء الذي كان منه لنظر الروم، والذي كان لنظر البربر.

أما ما كان تحت الروم فإن من عوامل بؤسه ما يأتي:

1- تكرر غارات البربر غير الخاضعين للروم، وتنعت هؤلاء الروم في دفاعهم.

2- إذكاء نار الخلافات الدينية بتعصب الدولة لمذهب على سائر المذاهب. قال بيروني: «**ولم يكن من غاية للحروب الدينية التي تهيج الأحقاد وتطيل أمد الفوضى إلا إيجاد فرصة للنهب، وشفاء الغليل بقتل العدو**».

3- جور الولاة الرومانية. قال بيروني: «**واتفق المؤرخون إن سياسة البيزنطيين مع الأهالي سيئة**» وقد أرهق هؤلاء الولاة الأهالي بالضرائب الفادحة. وزاد في فداحتها جور المستخلصين لها. وعلاوة على ذلك كله كانت الجنود تماطل بأعطيتها، فتستخلصها من الأهالي.

وقد تكونت الفوضى وعمت من ذلك البؤس ومن فقد الإخلاص سواء من الجنود لرؤسائهم أو من الرؤساء لدولتهم. قال بيروني: « **في ابتداء القرن السابع لم تبق إدارة ولا هيئة اجتماعية. وبلغت الفوضى السياسية غايتها**».

وقد نشأ عن هذه الفوضى ظلمة في تاريخ هذا الدور. قال اغسال: «**إن الآثار الكتابية صارت قليلة جدا حتى أنه ليخيل للباحث كأن كابوسا عاما حل بهذا الوطن**».

وأما ما كان تحت تصرف البربر فان من عوامل بؤسه تمسك الأمراء باستقلالهم من غير ان يكونوا متحدين ولاذوي نظام دولي. أما عدم

اتحادهم فهو خلق قديم فيهم، وهو سبب نجاح أولي المطامع من الأمم في وطنهم. وأما فقدهم للنظام الدولي بعد ما كانت لهم دول قبل الميلاد فذلك أنهم بعدما تعلموا من الفينيقيين الحياة النظامية ووسائل العمران والرقي جاء الرومان فأخذوا على أنفسهم تجهيل البربر ماتعلموه. ابتدأوا بهدم استقلالهم وقتل عظمائهم، وثم حرموهم من جميع الحقوق السياسية. وكانت سياستهم سياسة تنفير فلم يقبل البربر على حضارتهم. فلم يذهبوا حتى أنسوا البربر ما أخذوه عن الفينيقيين من غير ان يعوضهم شيئا ينفعهم في حياتهم الاجتماعية. ولما جاء الوندال وكانت وطأتهم عليهم خفيفة وهم أمة حربية لم يستفد البربر منهم غير الحياة الحربية. فعملوا للاستقلال من غير نظام. ولما جاء الروم أرادوا أن ينزعوا منهم استقلالهم. فدافعوا دونه. ووقعت بينهم حروب مبيدة. قال بيروني: «**ويصعب أن يحيط مؤرخ بحروب البربر مدة الاستيلاء البيزنطي**».

ولولا أن الرومان هم الذين افقدوا البربر الحياة النظامية لكانت حروبهم مع الروم عائدة عليهم بالسعادة وعلى وطنهم بالعمران والرقي. ولكنهم ـ وقد فقدوا كل نظام ـ لم يجنوا منها غير الشقاء وخراب الوطن وعموم الفوضى.

وإذا علمت أن الروم لم يعلموا فيما تحت تصرفهم إلا لشقاء أهاليه، وإن أمراء البربر عاجزون عن إسعاد أمتهم أمكنك أن تحكم عن بينة بأن العصر الرومي كان كله جوائح نزلت بالوطن الجزائري فأنهكت الحياة الاجتماعية أيما أنهاك.

قال بيروني: «القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة رومة والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بافريقية ـ هذه القرون أهوال وحروب مبيدة» ثم قال: «وقد كانت هذه القرون علة في مرض افريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا. ذهبت الفنون الجميلة، وعطلت الأراضي الفلاحية، وتنوسيت الأساليب العلمية، وتكاثرت اللصوصية حتى صار الناس يفزعون إلى الغابات ويختفون بالشعاب،وتعطلت التجارة، وخشي الناس المجاعة» وقال مرسيي: «كان المؤرخ بروكوب لما نزل افريقية مع بليسير دهش من عمرانها ونشاط تجارتها ونفاق أسواقها وسعادة فلاحتها. ولكن بعد عشرين عاما لم يبق شيء من ذلك، وعم الخراب جميع افريقية. ويقال أن الحرب وحكومة يستنيان خسرتا افريقية في خمسة ملايين من الأنفس».

ومن ههنا تعلم أن ما اشتهر به الوندال من التخريب ليس شيئا يذكر أمام تخريب الروم. فان الوندال مكثوا أكثر من قرن ولم يبلغوا في التخريب وقتل الأنفس ما بلغه الروم في عشرين عاما.

والخلاصة ان الحياة الاجتماعية بالجزائر على عهد الروم بلغت من الانحطاط والتقهقر والشقاء ما لم تبلغه في دور من أدوار تاريخها.

السلطة الرومية وانقراضها من الجزائر:

قال اغسال: «**السلطة البيزنطية بافريقية غير معلومة. وإنما توجد قوانين تذكر مستعمرين ومستعبدين عائشين ببعض الأراضي. وكبار ملاكي الرومان الذين ضعفوا في دور الوندال نجهل ان تكون أملاكهم عادت إليهم في هذا الدور. والظاهر عدم عودها**».

والذي جعل السلطة الرومية غامضة هو ضعفها. ولعلك لاتتوقف بعد قراءة ما تقدم في الحكم بضعفها منذ نشأتها في المهد إلى حين وضعها في اللحد. ومنشأ ضعفها أولا بعدها عن مركز الإمبراطورية. ذلك البعد الذي جعل الأباطرة لايستطيعون إمدادها بالقوة، والذي جرأ الولاة على الجور والاستبداد. وثانيا مقاومة البربر لها من غير انقطاع وفوزهم عليها في كثير من البقاع.

ولم يأت من الولاة من هو ذو قيمة إدارية وحربية غير أربعة:

1- بليسير. وغاية عمله انه قضى على الوندال.

2- سليمان. وغاية عمله انه فتح أوراس ووسع حكومة الروم بالجزائر وشاد البناءات. ثم مات مصطليا بنار الثورة. وعاد توسعه في وطن الجزائر ضررا على الروم لان البربر لم ينفكوا يهاجمونهم.

3- يوحنا طرغليطا. بقي يدير حكومة الروم عشرين سنة لم يجن فيها غير إخضاع أنتلاس.

4- جناديوس. وهذا استرجع بعض المدن التي افتكها البربر من الروم. ولكن البربر حاصروه سنة **(97)** بقرطاجنة. ولم ينج من الحصار الا بطلب الصلح منهم ثم غدر بهم.

ومع ضعف سلطان الروم وضيق نطاق نفوذهم وعدم كفاية ولاتهم وإخلاصهم كانوا مشتدين على من تحت سلطانهم من البربر. قال بيروني: **«ومن المحقق أن الولاة البيزنطيين كانوا قساة أصحاب طمع»**.

ولقد زاد في ضعف السلطة الرومية بالجزائر ضعف مركز الإمبراطورية. فقد توفي يستنيان سنة **(565)** وخلفه أباطرة ليست لهم عظمته وشغلوا عن افريقية بحروب الفرس وغيرهم. وفي سنة **(602)** دخل فوقاص القسطنطينية بجنود من الدنوب. وقتل الامبراطور موريس. وانتصب مكانه.

وفي هذا الحين كان الوالي بافريقية يدعى **جرجير** **(GREGOIRE)** وقائد الجيش يدعى هرقل. فثار القائد على فوقاص سنة **(608)** وقطع عنه القمح الذي كانت العاصمة تستورده من افريقية. فخاطبه البيزنطيون في الانتقال إلى القسطنطينية على أن يعينوه على استلام العرش من يد غاصبه. وكان كبير السن. فأجابهم على أن يوجه إبنه مكانه. ونافسه جرجير. فأرسل كلاهما ولده المسمى باسمه. وبما أن هرقل هو قائد الجيوش كان الأسطول تحت قبضته. فسير إبنه بحرا. وسير جرجير إبنه برا. فسبق هرقل بن هرقل. وقتل فوقاص. وجلس على العرش. ولما

خاب جرجير فيما كان يأمله من تبوأ عرش القسطنطينية أعلن انفصال افريقية عنها، واستقل بها. وجعل عاصمته سبيطلة.

بقي جرجير على رأس هاته الدولة التي لم تكن لها القوة وهي مرتبطة بالإمبراطورية فكيف تحصل لها وهي مستقلة عنها وفي غير وطنها.

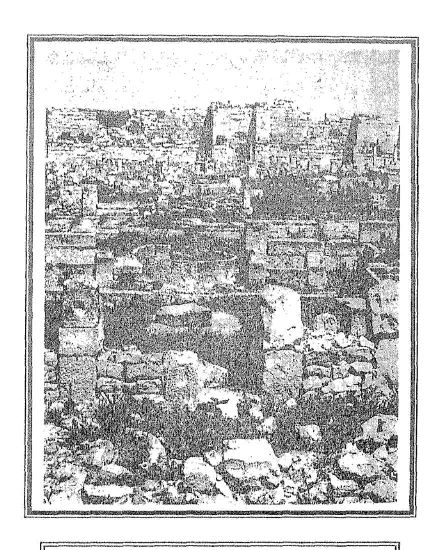
وفي سنة (**647**) هجم العرب على هذه الدويلة. فقضوا عليها لاول هجومهم. وقتلوا جرجير. واحتلوا عاصمته. ومن ذلك الحين انقرضت السلطة الرومية من الشمال الإفريقي بعد ما لبثت (**113**) سنة.

كان انقراضها بهذه السهولة لأنها لم تكن ثابتة الأركان، فقد سبق أنها عاشت في حروب واضطرابات. وإن سلطة هذه حالها لا تلفت النظر إلى ما تركته من علوم وصنائع وفنون وأنظمة وعمران. بل إنها لاتترك الا ما يناسبها من جهل وفوضى. فلم ينتج عنها غير خراب الأذهان والأوطان.

والخلاصة ان البربر عادوا في العصر الرومي إلى حياة الوحشية والهمجية تحت رؤساء لادراية لهم بغير الحرب والسلب.

ولعل الروم لو كانوا في هذا العصر لقالوا: أننا جئنا لننقذ البربر من الهمجية وننشر بينهم المدينية اللطينية. ولئن سألناهم عما بلغ اليه البربر من الوحشية والفوضى بعد قرن لاجابونا بأن البربري وحشي الأخلاق ثوري بطبعه. لايقبل التعليم ولا يحسن النقل عن جاره الرومي. ولعلهم ينقعون عن الجواب إذا قلنا لهم: هذه الأمة قد أحسنت النقل عن الفينيقيين. فبلغت بذلك أوج العز. وشادت دولا عظمى. وبعد مدة من القرون

نقول لهم أيضا: ها هي تلك الأمة قد استفادت من العرب. وأحسنت النقل عنهم. وعاد لها عزها. فشادت ممالك عظمى كما شادتها من قبل.



مدوروش

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة
حي العناصر عمارة **309** رقم **03**. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: **021 31.44.51**
الجوال: **070 91.77.73**



هو الشيخ مبارك بن محمد ابراهيمي الميلي من مواليد قرية الرمامن الموجودة بجبال الميلية (بناحية سطارة) في الشرق الجزائري دعي بالميلي نسبة إلى مدينة الميلية، ولد بتاريخ 26 ماي 1898م وهناك من يقول سنة 1896م الموافق لسنة 1316هـ. توفي أبوه وعمره أربع سنين كفله جده ثم عمّاه.

بدأ تعليمه بجامع سيدي عزوز بأولاد مبارك بالميلية تحت رعاية الشيخ أحمد بن الطاهر مزهود حتى أتم حفظ القرآن.

لقد أنهكه مرض السكري منذ سنة 1933م، وعالجه مرات عدة، واشتد عليه بعد وفاة شيخه العلامة ابن باديس، فتدهورت حالته الصحية إلى أن وافاه الأجل يوم 1945/02/09م.

وشيعت جنازته في موكب مهيب يتقدمهم رئيس جمعية العلماء بعد ابن باديس، الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي.

كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث هو أول كتاب صدر في هذا الموضوع، يتناول التاريخ الجزائري من منظور وطني، علما بأن الجزء الأول منه طبع طبعة أولى عام 1928، وهو الجزء الذي يتناول تاريخ الجزائر قبل الإسلام.

ويتأكد النفس الوطني في هذا الكتاب عندما يتناول قصة الكاهنة، فيعتبرها بطلة وطنية، رغم أنها حاربت المسلمين.

لهذا كتب له ابن باديس رسالة بعد اطلاعه على الجزء الأول يقول فيها:

أخي مبارك!

سلام ورحمة، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم، وقفت على الجزء الأول من كتابك «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» فقلت لو سميته «حياة الجزائر» لكان بذلك خليقا.

فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة كالضاد صورة تامة سوية، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك. وقد نفخت في تلك الصورة من روح أيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين.

أخي مبارك!

إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف من أحيا امة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها، وحياتهما عند أبنائها حياة مستقبلها. فليس ـ والله ـ كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال. وإذا كان هذا في والجيل المعاصر قليلا، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيرا. وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وأنا ـ واحد من هذا الجيل ـ بلسان من يشعرون شعوري، أشكرك لأقوم بما علينا من واجب، لا لأقابل ما لك من حق.

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وانصاف.

والسلام عليك من أخيك عبد الحميد بن باديس.

وقد حرص الشيخ مبارك على إثبات هذه الرسالة في الجز... لأنه يعتبر ابن باديس عظيما من عظماء الجزائر جدير بأن يثبت ... تاريخ الذي نتيجة من «نتائج حياة عظماء الأمتين العربية والبر... الشيخ مبارك نفسه.


Bibliotheca Alexandrina
0645197

ISBN : 9947 833 05 6
9789947833056



